

سارة السادات

جذرُ خُرُساء

رواية

الطبعة الأولى:

1440 هـ / 2018 م

اسم الكتاب: جدّ خُرساء

المؤلف: سارة السادات

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 304 صفحة

عدد الملزم: 19 ملزمة

مقاس الكتاب: 21 x 14

عدد الطباعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2018 / 23725

ISBN:

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 732 - 6

التوزيع والنشر:

القاهرة - جمهورية مصر العربية

هاتف: 01152806533 - 01012355714

E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com



جميع الحقوق محفوظة



جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار
البشير للثقافة والعلوم. حسب قوانين الملكية الفكرية،
ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجترار أو إعادة نشر أية معلومات
أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

سارة السادات

جذرُ خُرْسَاء

رواية

خِزَانَةُ الْبَشِيرِ
لِلثَّقَافَةِ وَالْعُلُومِ

الفصل الأول

يتصاعدُ رنينُ المنبّه كصيحةٍ يوم القيامة، فيبعثه مرّةً أخرى من موته الصغير، تمتدّ يدُ مرتحيةٍ لتسكّت صراخه، بينما تُفتح عينٌ على وسعها وتسحب الأخرى غطاءَ الجفون وسطَ قنوطٍ تامٍّ للجبين، ثمّة ضيق يتملّكه عند كلّ إشراق، لا شيء بالنسبة إليه أسوأ من التكرار، مللٌ يشبه الموت، يومٌ جديد يواجهه فيه العالم بالكثير من الحذر.. ثمّ ماذا! لا شيء سوى أن يأتي الليل مبدّداً لصخبِ النهار، معلناً عن جولةٍ جديدة من صراع الأسئلة الدائر رحاهُ بعقله، صراعٌ يلتهم الساعات بلا هوادة، دونَ أن يخلفَ له أجوبةً تشفي سقم روحه ليشرق الصّباح بعدها محتضناً يوماً جديداً ظاهرياً، لكنّه لا يختلف عن الذي ودّعه بالأمس سوى أنّه يُسقطُ ورقةً أخرى من شجرة العمر!

يعتدل جالساً بثقلٍ خشيّة أن تغويه ظلماتُ النّوم فيتخلف عن العمل، بعينٍ مذعنةٍ وأخرى متمرّدة يمدّ يده للكمود المجاور فيمسكُ بعلبةِ السجائر المحاذية للمنبة، تصيّد أنامله سيجارة فيشعلها، يستقبل اشتعالها بقُبلة عاشقٍ متيم، قُبلة الموت لها وله،

لم لا؟! فلا فارق بين حياته وموته، فلا هو يزدهر حياة ولا الموتى
يزدادون موتًا!

«جميعنا يسكنُ البرزخ!» هكذا ردّد بينه وبين نفسه.

ينتهي من سيجارته فيكمل مراسم روتينه اليوميّ، ينهض من
الفرش بثقلٍ وعدم اتزان، يمضي تجاه دورة المياه، أفرغ مثنائه،
وضع رأسه أسفل صنوبر المياه، ارتدى قميصه المعتاد وبنطاله الأكثر
اعتيادًا، ثم يغادر شقته التي أنّت جذرها من ثقل سقفها فتسلّقتها
الشروخ بمهارة، والتي ترتّب فوق عرش بنائية لم يأكل عليها الدهر
فقط؛ بل لطّخ معالمها بما علق بيده من طعام، وسكب على صفحة
وجها بقايا قهوته فأحال واجهتها للون الأسود!

يتمشّى بأزقة الحارة فيصحبه ضجيجها الذي لا ينقطع، صياح
الباعة، تنقيب الشحّاذين بأكوام القمامة، تراشق الفتية بالسباب
كنوع من إثبات الرجولة! تقصّع الفتيات بأجسادهنّ الفائرة يثير
فحولة الرجال فتنهمر ألسنتهم بالكلمات الماجنة، يتحسّر على شبابه
المفقود بين أروقة الاستهتار، فقد كان أحقّ مثلهم ذات يوم، صحيح
أنّ حماقة تلك جلبت له الكثير من النشوة؛ لكنّها سبّبت له الكثير
من المتاعب أيضًا، ممّا دفعه لاتخاذ قرار الزواج بالنهاية؛ فنحنّ لا
نطلب الاستقامة إلّا حينما تضيق الدائرة حولنا، عندما ندرك أنّ
أفعالنا ما عادت تجلب لنا سوى الأذى!

ينتهد بعَمق، يحاول أن يعتصر ذاكرته ليسترجع آخر مرة تحرّكت فيها مشاعره تجاه أنثى! متى أحب فتاة حقًا؟! آخر عهد له بممارسة الجنس.. هو حتّى لا يتذكّر متى فعلها وهو يشعر باللذة!
ينهر نفسه مرّداً:

- عليك تبديد أفكارك هذه يا إسماعيل؛ فهي ليست أفكاراً رائعة لتبدأ بها يومك، أم عليّ تذكيرك بأنك كنت بالماضي بئراً لا ينضب، أمّا الآن فعليك أن تدعي العفة من أجل ألاّ يفتضح أمرُك، بالكاد يمتلئ بئرُك كلّ عام مرة ويتصبّ طولك بشقّ الأنفس، بعد أن أتلّف التدخين والحشيش جسدك، لست بحاجة لتصبح علكةً بأفواه أهل الحارة، يكفي الإشاعات التي تلتصق بك كعلقة لا متناعدك عن الزواج بعد وفاة زوجتك منذ سنوات عدّة.
يجابوب نفسه:

- لأئهم أغبياء، لا يدركون أنّ الزواج مقبرةٌ تبتلع بجوفها كلّ شيء وتحيله لُرّفات؛ المشاعر، المال، الصحة وراحة البال.
رؤيته لابنته قادمةً من الاتجاه المعاكس للطريق تبتّر حديثه المحتدّ لنفسه، يقترب منها سائلاً:

- أين كنت؟ وما الذي أخرجك من البيت هذا التوقيت؟
تسّع عيناها ذعرًا كمَن رأت شبحًا، تجاوبه والارتباك يلوّن محياها:
- كنت أشتري طعامَ الفطور.

ينظرُ ليدِّيها الخاويتين فيضيّق عينيه محققًا:

- في هذا الوقتِ المبكر! دون إخباري بخروجك من المنزل!
ومنذ متى أصبح الفطورُ شغلَكَ الشاغل؟! وأين هو؟
الأسئلةُ المنهمرةُ تجعلُها تتلعثم، بينما تدور عينها بمحجريهما:
- اكتشفتُ أنّي نسيت النقود بالمنزل؛ لذا عدتُ أدراجي خاويةً
الوفاض.

يتفحصها بنظرةٍ شكٍّ شملتها كلّها ليأمرها بعدها:
- عودي للمنزل، ولا تخرجي منه مرّةً ثانية دون إذني، سيكون
لنا حديثٌ آخر لاحقًا.

عندما انتهى لم تزدْ عليه حرفًا، بل أسرعْتَ الخطأ وكأَنَّها تهرب
منه، بينما ظلَّ هو يشيّعها بعينه حتى اختفتْ من أمامه، ثم أكمل
طريقه وهو يغمغم: «اللّعة على خِلفة الفتيات وما نجّيه منها».

بعد انتهاء المحاضرات، وقفتُ زهراء على مقربةٍ من صديقاتها
اللائي أخذنَ يتضحكن ويتلامزن على فتياتِ الدّفعة وعلاقاتهنّ
العاطفية، من ارتبطت ومن فارقت، نزولًا إلى السّخرية من
الأخريات اللائي مازلنَ في مرحلة المحاصرة وأحكام الشّراك،
والتي تعرفُ بمرحلة (الكراش crush)، نيمتهنّ تثيرُ اشمئزازها
وتقزّزها وتدفعُها للانزواء بعيدًا وعدم الانخراط في حديثهنّ،

لطالما شعرتُ زهراء باختلافها عنهنّ، بأنّها نشاز وسط تناغمهنّ، كأنّها ولدت بعالمٍ آخر لم يكتشفه أحدٌ بعد، وبالرّغم من شعورها هذا، لم تستطع تركهنّ والعودة لمنزلها، (سجنها القسري) كما تدّعه دومًا؛ فالجامعة هي المكانُ الوحيد الذي يشعرها بأنّها حرة الإرادة، فتاة طبيعيّة تستطيع أن تفكّر وحدها وتختار أصدقاءها، تتفق معهنّ وتختلف، تقارعهنّ الحجّة وتدحض أفكارهنّ المغلوطة عن فتيات الصعيد، والتي تزعمُ أنهنّ غيرُ مؤهّلات لاستيعاب تطوّرات العصر، إنسانة من لحمٍ ودم، لا دمية تحرّكها عائلتها كيفما تشاء.

تبادرُها صديقتها عبيّرُ سائلة:

- زهرة، هل ستأتين معنا؟

تركُ زهراء رَحَى أفكارها الدّائرة وتعود لواقعها:

- إلى أين؟

- سنذهبُ لمشاهدة عرضٍ جديدٍ للشاعر عمرو حسن.

- للأسف لن أستطيع، تعلّمين أنّه غيرُ مصرّح لي بذلك.

- وهل هناك شيء مصرّح لك به على الإطلاق!

ترسمُ زهراء ابتسامةً باهتة على شفّتها، ثمّ تجاوبها معدّدة على أصابعها:

- مصرّح لي بأن أكملَ تعليمي دون احتمالٍ للفشل، وهذا يقودُنَا

للتصريح الثاني؛ حيث مقدّر لي الزواج من ابن عمّي تليد بعد انتهاء

دراستي، دون اعتراضٍ أو إبداءٍ تحفّظاتٍ مغلوّبةٍ على أمرها،
وذلك درءاً لنشوبِ صراعاتٍ داخل العائلة.

تهزّ عبيرُ رأسها بأسى:

- زواجكما ما هو إلّا هدنةٌ مؤقتةٌ قابلةٌ للخرق، فالصّراعات
التي لا ينهيها التعقّل لن ينهيها الزّواج يا زهرة.
أُتبعْتُ عبيرٌ جُمَلتها بالالتفات لبقيّة الفتيات:
- هيّا بنا، فزهرةٌ كعادتها لن تأتي.

تهمّ مجموعةُ الفتيات بالتحركِ تاركاتِ زهرةٍ وراءهنّ كحملٍ
منبوذٍ من عشيرته! تزمّ فمها بابتسامةٍ لم تفلح في التودّد للملاحمها،
تلوّح لهنّ مودّعة، بينما كلماتُ عبيرٍ تثير داخلها زوابعٍ من يأسٍ،
تتفرّس في الأشخاص حولها كطفلٍ يختبر العالم عبرَ خشبةٍ مسرحٍ،
يُبهر عينيه ما يرى، بينما يسوق الأفكار لعقله! ترى التناقضَ يملأُ
الأركان؛ الفتيات والشّباب، الجادّ منهم والمستهتر، أصحابَ الملابس
الممزّقة والسلاسل التي تكلّل الأعناق، العباءاتِ الفضفاضة متوّجة
بالحجاب، وذوي اللّحي المقصّرين، المتحرّرين والمتشدّدين؛ كلّ في
دائرته، كلّ مشغولٌ بشورته، والقضية ضائعة!

تبدو الجامعةُ كصورةٍ مصغّرةٍ من الحياة، والحياةُ مغرورةٌ لا
وقتَ لديها لتلتفتَ إلى أحدهم، متكبّرةٌ وأكبرُ من مفاهيمنا، حتّى
الذين كرّسوا أيّامهم لتأمّلها وسيرِ أغوراها، لم يجدوا طريقةً سويّةً

للمرور بها دون أن تعمل بمخالبتها في أعمارهم القصيرة، كم تبدو الحياةً مرعبةً بكلّ ما تحمله من تناقض! تأخذ نفساً عميقاً، ومن ثمّ تزرّقه بقوة مخاطبةً نفسها:

- وأنتِ يا زهرة، إلى مَنْ تنتمين؟

تَهَمُّ بمغادرة بوابة الجامعة وهي تحجب نفسها:

- أنا لا أنتمي للحياة، فقد سلبوها مني، وأعطوني بالمقابل خيوطاً حريرية تلتفّ نهايتها حول أصابعهم، فصرْتُ دميةً عليها أن تنصتَ وتطيعَ دون ردّة فكرٍ أو تنديدٍ قلب، فهل للدمى فكرٌ خاصّ بها أو قلب بين جنباتها؟! الدّمي لا تنتمي إلّا لصاحبها، يتلاعب بها كيفما شاء، يدهسُ روحها ويدقّ عنق جموحها، ثمّ بالنّهاية يودّعها رفوفَ التّجاهل ليتذكّرها فقط كلّما احتاج لمن يُشعره بالعظمة والهيمنة.

ظلّت أفكارها تعصف داخلها كما تعصف ريحُ ديسمبر العاتية بالأشجار من حولها، ما إن خرجت من بوابة الجامعة حتى اقترب منها شابٌّ عشرينيّ، يرتدي معطفًا داكنًا وبنطالًا أسود، ليصبح صورةً باهتة لا تنتمي لهذا العالم الملوّن، يتنخّح بصوتٍ أجشّ:

- هل انتهيتِ آنسة زهرة؟

تجاوبه موافقةً بإيحاء من رأسها.

- حسنًا، لنذهب إلى المنزل.

تتقدّمه فيتبعها كظلّها، كحارسٍ شخصي لكنّ من دون حلّة
سوداء رسمية، أو أسلاكٍ ملتفة حول الأذن! تمشي كآلة معدنية فاقدة
للروح، والأفكارُ تتراقص برأسها، تتّجه ناحية بنايتها الواقعة قريبًا
من محيط جامعتها، فقد ارتأت والدتها استئجار شقّة قريبة منها، كي
تقيها شرّ المواصلات وما يحدث داخلها، وزيادةً في الاطمئنان تركت
لها أمّ بسيل وابنها؛ لتكون أمّ بسيل خادمتها ورقبيتها أيضًا، ومن
أفضل منها لتقوم بهذه المهمة؛ فهي كمُخبرٍ مُحترِف، تتقصى الأمور
وتطلّع على المستجدّات، تحفظ جدول المحاضرات ومواعيده بدقة
تامة، تحسب الوقت الذي تتطلبه المسافة من البناية حتى الجامعة
ذهابًا وإيابًا لتزيده على الوقت الذي تستغرقه زهراء في المحاضرات،
كما إنّها تنقل لوالدتها كلّ ما تفعله وما تأكله، عدد ساعات مذاكرتها
ولا تغفل عن التنصّت على مكالماتها، تسجيل أسماء صديقاتها، ولولا
استحالة تواجدها بالحرم الجامعي ما تردّدت لحظة في الحضور معها،
وكأنّهما توأمٌ ملتصق!

أمّا بسيل، فقد عيّنه حارسًا شخصيًا، يصحبها كطفلةٍ مطيعة
حتى بوابة الجامعة في الصباح، ثمّ ينتظرها هناك حتى تنتهي من
محاضراتها، فيلازمها في طريق العودة حتى باب شقتها، بسيلُ
الذي يقطن بذات البناية لكنّ بغرفة مستقلة أعلى سطحها! لم تفق
من أفكارها إلّا حينما وجدت نفسها أمام باب شقتها، أخذت نفسًا

عميقًا، ثم طرقت الباب في انتظار استجابة أم بسيل.

تستقبلها أم بسيل بوابلٍ من الأسئلة المتدفقة كمطرٍ مُنهمر:

- أهلاً سيّدي زهرة، كيف حالك اليوم؟ كيف حال الدراسة بالجامعة؟ لم أنتِ صامتة! هل تعرّض لك أحدهم؟ أضايك بسيل؟
بنفادٍ صبرٍ تجاوبها:

- أنا بخير خالتي، فهلاً تركتني ألتقط أنفاسي قبل أن يبدأ استجوابك اليومي!

تخبط بيدها على صدرها مُستنكرة:

- استجواب! سامحك الله يا ابنتي، بل أطمئن عليك فأنّت كبسيل بنظري، بل وأفضل لو تعلّمين، هيّا اذهبي حبيبتني، واغتسلي ريثما أعدّ لك طعام الغداء.

تركّها زهراء وتّجه لغرفتها، تضع كتبها فوق مكتبها، تجهّز ملابسها استعدادًا لنيل حمام منعشٍ يزيل عنها آثار اليوم وغضبها المحتقن جرّاء سجنها اللانهائي والممتدّ، طالما هي محاصرة بين أم تخشى شرور البشر، وأخ يرى أنّ المرأة مجرد متاع، طبقةٌ دنيا غيرُ مصرّح لها بالاختيار، بل هي بهيمةٌ تباع بأعلى سعرٍ وقد تكون هدية درءًا لنشوب حرب، تتّجه للحمام وأفكارها تغلي، لا بأس بحمام بارد؛ علّ انهيار الماء يطفئ غرغرتها!

- هل عادت زهرة؟
- نعم سيّدي، عادت بموعدها دونَ تباطؤ.
- وكيف حالها؟
- تبدو كعادتها، هادئة صامته، تواظبُ على دروسها، تجاوبُ على أسئلتني باقتضاب.
- لن أوصيك عليها، اعتني بها جيّدًا، وأخبريني إن حدث عارض ما.
- أمرك سيّدي، في أمان الله.
- قالتها غالقةً الهاتف.
- كانت زهراء تستند إلى باب المطبخ، تستمعُ لتقرير أمّ بسيل المفصل، بينما تشبّك ذراعيها أمام صدرها! لم تكدِ المرأة تنهي اتّصالها حتى بادرتها زهراء بتهكّم لاذع:
- حقًا، لن تجد أمّي من هي أفضل منك لمراقبتي! أخبريني..
- أكانت راضيةً عن تقرير اليوم أم هناك ما أرق فكرها؟
- التفتت أمّ بسيل تجاه زهرة لتفاجأ بوجهها الغاضب، ممّا دفعها لتبتسم بحرج:
- لو أنّك تفعلين هذا بنفسك، ما اضطرّرت لفعلها.
- لو كانت تتصل بي عوضًا عن الاتّصال بك لكنتُ أخبرتها، لكنّها لن تفعل لأنّها لا تثق بي.

- تعطينَ الأمور أكبرَ من حجمها سيّدي، بالنهاية هي والدُّتك،
وجُلّ ما تفعله لصالحك، فلا أمّ تريد لأولادها سوى الخير والسعادة.
- وهل سأكون بخيرٍ وسعادة عندما يتمّ حصاري وتزويجي من
ابن عمّي قسرًا؟!!

تهزّ أمّ بسيل رأسها بأسف:

- كعادتك، تعطينَ للأمور أكبرَ من حجمها! حبّيتي، كلّ
معضلةٍ بالحياة تمتلك أكثرَ من زاوية للنظر إليها، فلا تحصري نفسك
بالزاوية الخطأ، ثمّة توضّحاتٌ صغيرة تجلبُ على أثرها خيرًا عظيمًا،
فلا تضخّمي الأمرَ الصغير وتقلّلي من شأن الكبير.

أنهتْ جُمْلتها مقتربةً من زهرة لترتّبَ على كتفها مواسية:

- هيّا حبّيتي، لقد أعددتُ الطاولة بما تشتهيهِ نفسك، تناولي
طعامك فلا أريد لسيّدي أن تتّهمني بأنّي أجوّع ابنتها الوحيدة.

لقد خسرت الكثيرَ من المتعة بعدم حضورك، كانت الحفلةُ
أكثرَ من رائعة، عمرو حسن هذا لا مثيلَ له، لكن قصرُ نظره وتحجّر
مشاعره أثارَ غضبي، إذ كيف له ألاّ يلحظَ فتاةً رائعة الجمال مثلي!

تضحكُ زهراءُ مجاوبةً «عبير» بسخرية:

- ربّما جَمالك لا يرى بالعين المجرّدة.

- نعم أدركُ ذلك، فجمالي لا يُرى إلّا بالقلب، أرايتِ! أستطيعُ

أن أوّل عبارات رنّانة مثله، بالتأكيد سنشكّل معاً ديو رائعاً ومميّزاً.
تتعالى ضحكاتُ زهراء:

- من دون شكّ، وستقوّمين بدور الأخرق في الديو على أكمل وجه.
- حقودة.

صمتت لبرهة، ثمّ أردفت:

- أحياناً أتساءل.. ما الذي كان سيحدث للعالم إن لم أتواجد
به؟ مَنْ كان سيرسم الابتسامة على وجهك الكئيب هذا إن لم أكن
صديقتك؟ عليك أن تحمّدي الله أنّه أرسلني إليك لأصبح قنديل
البهجة والسعادة بحياتك.

ترتفعُ ضحكاتُ زهراء ممّا جعل أمّ بسيل تطرق بابها مردّدة بقلق:
- أنت بخير سيّدي؟

تزيحُ زهراء الهاتف من فوق أذنها مجاوبة:

- أنا بخير خالتي، أتحدّث مع عبير عبر الهاتف.
- حسناً!

قالتُها أمّ بسيل مبتعدة.

تضعُ زهراء الهاتف على أذنها مرّة أخرى، فتسألها عبير:

- أهّي أمّ عتريس السجّانة؟

ترتفعُ ضحكاتُ زهراء مجدّداً:

- اسمُها أمّ بسيل.

- اسمٌ غريب يثقل اللسان والروح، كيف لك أن تستمرّي في هذا الجنون! لو كنت مكانك لجُننت حتمًا وانتهى بي المطاف بمصحّة المجاذيب.

- أنتِ بالفعل مجنونة عبير، فقط المصحّة لم تعثرْ على عنوانك بعد.

- ساحك الله يا ابنة الأكابر، لكن صدقًا.. متى سيمكنك الخروجُ معي؟

تتنهّد زهراء بآس:

- لا أعتقد أنّ ذلك ممكنٌ بتلك الحياة، فكما تَري، خطواتي وأنفاسي وضحكاتي أيضًا قيدَ المراقبة.

- وماذا عن دعوة الدكتور راشد لحضور حفل خطبته! فكرةٌ عدم الذهاب لا تبدو جيدة، تعلّمين كم هو متنمّر.

- أعتقد أنّه لن يلحظ غيابي، ولن يفتقدني.

تضحكُ عبير بسخرية:

- نعم لن يفتقدك، لكن سيفتقد هديّتك، لهذا دعانا أيّتها الساذجة.

تتنهّد زهراء بقنوط:

- أعلمُ ذلك، لكن ماذا عليّ أن أفعل؟ لن توافق والدتي.

- لا بدّ لها وأن تفعل، فقسمُ البيو⁽¹⁾ ذو عددٍ محدود من الطلبة،

(1) Biotechnology :: من الأقسام الجديدة بكلية الزراعة، ويوجد فقط في زراعة جامعة القاهرة وعين شمس، وهو يُعتبر من أقسام اللغة الإنجليزية بالكلية، ويقبل عددًا محدودًا من الطّلاب، ويدرس الطّلابُ فيه كيمياء الإنزيمات والتّمثيل الغذائي.

مما يجعل غيائبك أمراً مستحيلاً، اعرضي الأمر على أمّ عويس ودعيها تتولّى أمر إقناع والدتك.

تقهقه زهرة:

- لقد جعلتِ المرأة أمّاً لرجلين لا تعرفهما في مكالمة واحدة، مكالمة أخرى وستجعلينها أمّاً للمئة مليون مصري، أمّ بسيل يا غير، أمّ بسيل.

- كلّها أسماء الله فلا تكثرني، سأتركك الآن، أراك غداً.

- الى اللقاء.

قالتُها منهيةً الاتصال لتخفي الابتسامة ويحلّ مكانها تقطية حيرة:

- وما العمل الآن يا زهرة؟ كيف ستقنعين أمّ بسيل بالأمر؟

هكذا سألت نفسها وهي تغادر غرفتها متّجهة إلى غرفة خالتها، وقبل أن تطرق الباب توقّفت لحظة لتلتقط نفساً عميقاً يعينها على تهدئة أعصابها، فمهمة إقناع أمّ بسيل ليست بهينةً على الإطلاق.

الفصل الثّاني

داخل مبنى شركة شمال القاهرة لتوزيع الكهرباء، فرع
النزهة....

- صباحُ الخير يا إسماعيل.

- صباحُك ورد أستاذة سميرة، كيف حالك؟

- بخير حال والحمد لله.

يرتفع صوتُ الأستاذة عنايات القابعة خلف المكتب المجاور
لمكتب الأستاذة سميرة في غضبٍ مُفتعل:

- وأنا يا إسماعيل، ألا أستحقّ صباحك الوردِيّ هذا، أم أنّ

عينيك أصابها العمى فلم تبصرني؟

كانت الأستاذة عنايات، أو بالأحرى الآنسة عنايات، أربعينيّة،
ممتلئة القوام، متوسطة الطّول، ذات بشرة خمرية، وجهها يحمل أطناناً
من مكياج صارخ لا يليقُ بنور الصّباح الباهت، فمَن يراها يظنّ أنّها
ذاهبة إلى حفلٍ صاخب كزيتها، بينما تطلّ مقدّمة شعرها المصبوغ
بالأشقر الفاقع تمرّداً على الوشاح المغطّي لرأسها ليؤكد صدق

الخدس السابق!

يلتفت إسماعيل إليها، وعلاماتُ التبدُّل تكحل وجهه:
- آسف، لم ألحظ وجودك إلا الآن، على أية حال صباحك
نرجس وريحان.

تقاطعهما الأستاذة سميرة مناولة إسماعيل بعض الإيصالات قائلة:
- تفضّل يا إسماعيل، هذه فواتير منطقة شيراتون المطار،
ستكون منطقة التّحصيل الخاصّة بك هذا الشهر، معك ألفا إيصال
راجعهم جيّدًا، ثمّ وقّع بالاستلام، أتمنّى أن تستطيع إنهاءهم مبكرًا،
تعلم أنّ لدينا عجزًا في عدد المحصّلين، كما أنّ زيادة راتبك تعتمد
على زيادة التّحصيل.

يتسلّم منها الإيصالات مبتسمًا بحبور، فمنطقة شيراتون المطار
منطقة راقية، وسكانها يتحلّون بالذّوق والرّاحة المادية، فلن يقذفه
أحدُهم بالشّتائم، أو يقوم بضربه لأنّ قيمة استهلاكه من الكهرباء
تساوي مبلغًا باهظًا! فهي تعتبر من المناطق الآمنة للتّحصيل،
بخلاف المناطق التي عمل بها سابقًا؛ كالمطرية وعزبة النّخل؛ حيث
يطارد المواطنون محصّل الكهرباء ككلبٍ أجرب، وأحيانًا تصل
إلى محاصرته والتّعدّي عليه، وردّة الفعل تتناسب طرديًا مع قيمة
الفاتورة!

يأخذُ منها الفواتير مردّدًا بامتنان:

- الحمد لله أنّ منطقة التحصيل هذا الشهر هادئة.

قالها وهو يعدّ الإيصالات، ثمّ يراجع إجمالي قيمتها المالية على آلتة الحاسبة في تأنٍّ وروية، ينتهي من المراجعة فيطمئن بأنّ الرقم النهائي الظاهر على الشاشة مطابق للرقم المدوّن بالدفتري، ومن ثمّ يقوم بالتوقيع على استلامهم.

- سأغادر الآن أستاذة سميرة، هل هناك أمرٌ آخر؟

- فقط توخّ الحذر، صاحبكّ السلامة.

يوليها ظهره هامًا بالمغادرة، فإذا بصوت الأستاذة عنايات يرتفع مجددًا ليستبقيه:

- مهلاً يا إسماعيل.

يلتفت إليها ناظرًا باستفسار.

تقرب منه بروية وهي تعدل من وشاحها:

- هل تناولت إفطارك؟

يتسّم لها بودّ:

- لا، ليس بعد.

تمنحه ابتسامة ناعمة مدججة بخمرة شفاها:

- حمائك القادمة تحبكّ بالتأكيد، فقد أحضرتُ معي فطورًا

يكفي ثلاثتنا، هيّا اجلس وشاركنا ليصبح ما بيننا خبزًا وملحًا.

يتنحّن بخرَج:

- شكرًا لكرمك أستاذة عنايات، لكن لا داع لذلك، اعذريني فالوقت ضيق، وعليّ أن أباشر عملي لأتمكّن من إنجاز أكبر قدر ممكن منه.

تصرّخ فيه بغضب:

- تفضّل العمل عن مشاركتي الفطور، حسنًا أنت الخاسر، ليس لك في الطيّب نصيب.

تنهي كلماتها عائدةً لمكتبها وهي تدكّ الأرض بكعبي حذائها. ثورتها غير المبرّرة أربكته، لذا لم يجد أمامه مخرجًا سوى مغادرة الحجرة مهرولاً، وكأنّ كلماتها ستنفجر بوجهه، تاركًا على عاتق الأستاذة سميرة أمر تهدة عنايات، التي ظلّت ترشقه بالكلمات اللاذعة حتى بعد أنصرافه!

- اهديني حبيبتي، وارحمي الرجل من لسانك.

- ألا تريّ كيف رفض عرضي! هل كنت سألتهمة؟! كنت سأطعمه ناكراً الجميل هذا، حقًا.. ليس غريباً أنّه ظلّ بلا زواج طوال هذه السنين؛ فوجهه يقطع الخميرة من البيت.

تأخذ سميرة نفساً عميقاً لتمتلك أعصابها:

- لم يكن عرضاً للزواج يا عنايات، انسي أمره ولنلتفت لحالنا.

- عرض زواج! ممّن؟! إنّهُ حتّى لا يملأ عيني، صحيح أنّه لم يسبق لي الزّواج من قبل، إلّا إنّهُ لا يمكن لشابّة فاتنة مثلي أن تنظر

لكهلٍ أشعث الشعر، فوضاوي الهندام مثله.

- أصدّقك، هو كذلك وأكثر، تجاوزي الموقف فهو لا يستحقّ
 أن تعكّري صفوك من أجله، أمّا عن الزواج فسيرزُك الله من حيث
 لا تحتسبي بزواجٍ يقرّ عينك وروحك إن شاء الله.

تهزّ عنايات رأسها باستنكارٍ مبالغ فيه:

- صدّقاً هذا الموضوع لا يشغلني، مازلت صغيرةً وجميلةً أيضاً.

تسدّد سميرة أنظارها لسقف الغرفة بامتعاض:

- أعلمُ ذلك عزيزتي، لننسى ما حدث ونتناول إفطارنا، سأذهب
 لأوصي فتى البوفيه بإحضار كوبين من الشاي.

همتّ سميرة بالابتعاد بعدما أُنهت كلماتها، تاركةً عنايات لتللم شتاها.

عندما غادر إسماعيلُ المبنى، نظر لساعته ثم أخذ يحدث نفسه
 مفكّراً:

- مازال لديّ الوقت الكافي لتناول شطيرتين من الفلافل
 من عربة مسعود ملك الفول، واحتساء كوبٍ من الشاي الممزوج
 بنشارة الخشب بقهوة المعلم عسل.

أنهى أفكاره بتطبيقها؛ حيث اتّجه بخطا حذرة متفادياً السيارات
 نحو عربة الفول القابعة بالرّصيف المقابل للمبنى، عندما وصل
 إليها استطاع - بشقّ الأنفس - اختراق الزحام ليصبح في مسعود:

- هل طلبني جاهز؟

من وسطِ قِدْرةِ الفول يصيح مسعود:

- طلبُكْ جاهز يا ريس، لحظة واحدة.

أنهى جُمْلَتَه صائحاً في الصبي القابع بجواره والمنهمِك بلفّ الشطائر:

- ناولني من عندك شطائر الرئيس إسماعيل.

يقومُ الصبيّ بتنفيذ الأمر باليَّة تامَّة، مناوِلاً مسعود لَفَّة الشطائر،

الذي ما إنْ تلقَّفها حتى مرَّرها ليد إسماعيل الممدودة نحوه قابضةً

على ثمنها في أسرع عملية تبادلٍ قد تشاهدها على الإطلاق، والتي

لا بدَّ وأن يدرَّسها تجار المواد المخدَّرة!

بعد أن حصل إسماعيل على إفطاره توجَّه لقهوة المعلِّم غسل،

حينما دلفها ارتمى فوق أحد الطاولات، ثمَّ طلبَ من سيِّد القهوجي

أن يأتيه بكوبٍ من الشاي، لم يكذِّ ينهي جُمْلَتَه حتى وجد الكوبَ

فوق الطاولة، كما لو كان بانتظاره!

ينظرُ بتعجُّب لسيِّد الواقف أمامه، والذي ارتسمت على وجهه

ابتسامةٌ لزجةٌ غيرُ محبِّبة للنفس، يبادره مرحِّباً:

- صباحك خير يا عمَّ إسماعيل.

- يا فتّاح يا عليم.

قالها وهو يُخْرِج من جيِّبه النقود، عدّها جيِّداً، ثمَّ وضع بضعة

جنيهاً فوق المنضدة مكماً:

- ها هو ثمنُ كوبِ الشاي، تعلم جيداً أنّي لا أعطي بقشيشاً.

مسح سيّد على رأسه، ثمّ ردّد بحذر:

- لكنني لا أريد بقشيشاً، بل أريد خدمة.

تنهّد إسماعيل بنفادٍ صبر:

- تفضّل، أيّ خدمة تلك؟

تنحنح سيّد كمن سيلقي خطبة:

- تعلم أنّ عملي بالقهوة لا يدرّ الربح الكافي لأبدأ حياةً أسرية،

كما إنّه عملٌ غير دائم، بلا تأمين صحي أو معاش أرتكنُ إليه عندما

تذوي الصّحة ويعجز الجسدُ عن العمل، وأنا أراقبك كلّ يوم تأتي

للقهوة، يحيط بخصرِك حقيبةٌ سوداء صغيرة كمحصّلي الكهرباء أو

محصّلي الغاز، أعلم أنّكم تتفاوضون أجوراً جيّدة؛ لذا أتمنى أن تجد لي

طريقةً لألتحق بالعمل لديكم.

شعورٌ بالقلق اجتاح إسماعيل إثر حديثه، فالمراقبةُ هي آخرُ أمرٍ

قد يرغبه محصّلٌ للفواتير، خاصّة ممّن هم على شاكلةٍ سيّد ومرتادي

المقاهي؛ نظراً لما بحوذته من أموالٍ ماليةٍ جرّاء تحصيله اليومي،

والتي تُبقيه مطمئناً للصّوص والأشقياء؛ لذا قام بنفي ظنون سيّد

بقوّة وسرعة:

- من فيك لبابِ السّماء يا سيّد، للأسف ما تظنّه ليس صحيحاً،

فأنا أعملُ ساعي بريدٍ بين المصالح الحكوميّة، كلّ ما أحمله بحقيتي

عددٌ من الأوراق التي تحتاج لإمضاءات، أمّا بخصوص الأجر فأنا
أحصل على راتبٍ زهيدٍ جدًّا لا يتعدَّى الألف جنيه، انظر إليّ.. أهذه
هيئة رجلٍ يتقاضى راتبًا جيدًا؟!
بوجهٍ متشكِّكٍ ردّد سيد:

- أنت تقول هذا كي لا تساعدني، لا تظنّ أنّ معروفك سيذهب
سدّي، قد تجدني فقيرًا لكنني لست معدّمًا، ويمكنني تقديم ما جمعته
من مالٍ عبّر سنوات الشقاء لأشتري هذه الوظيفة، فقط ساعدني
وسأجزيك أجرَ صنيعةك.

- وكيف يُمكنني مساعدتك وأنا مجرد عامل بريدٍ بين المصالح
الحكومية؟

يحكّ سيد رأسه مفكرًا:

- إن كان ما تقوله صحيحًا، فمن المؤكّد أنّك تعرف بعضًا من
أصحاب النفوذ الذين بإمكانهم مساعدتي والتوسّط لي.
ينظرُ إسماعيل لساعته بضيقٍ؛ فقد استهلك هذا السيّد الكثيرَ
من وقته، لذا جاوبه منهياً الحديثَ لينعمَ بإفطاره وبكوبِ الشاي
الذي أثلج جرّاء الانتظار:

- حسنًا، امنحني بعضَ الوقت كي أجدَ مَنْ يمكنه مساعدتك.
- وأنا عند وعدي، سأجزيك جيدًا.
- حسنًا.

قالها إسماعيل بتأففٍ واضحٍ ممّا دفع «سيد» ليهمّ بالابتعاد سائلاً
إيّاها:

- أتأمرُ بشيءٍ آخر؟
- فقط أن تتركني أنعمَ بشطائري، خاصّة بعد أن أثلج كوبُ
الشاي وذهبتُ متعتّه.
- إذا دعني أعوضك بكوبٍ غيره.
- أتبعها سيدٌ حاملاً كوبَ الشاي البارد وهو في طريقه للمغادرة.
- يهمّ إسماعيل بقضم شطيرة الفلافل وهو يردّد بغیظ:
- اللعنة على البشرِ وفصولهم.

* * *

بأحدِ الأزقة التي تمّ بناؤها بشكلٍ منزوٍ كي لا تلحظه الأعين،
أو ربّما هي يدُ الزمن التي تلاعبت به فجعلته على هذه الشاكلة، حقاً
لا أحدٌ يدري!

- بدموعٍ متساقطة وقلبٍ متوجّع، تصرخ فيه بقهْر:
- وما العملُ يا سالم إن كنت ستّخذ مقعدَ المشاهدين أمام
ما يحدث؟ ماذا بقي بجعبتي إن رفضت أنت مساعدتي!!؟ تعلمُ
مصيري جيداً إن علمَ أبي بمُصابي.
- لا داعٍ لكلماتك هذه؛ فهي لن تغیر من الحقيقة شيئاً، أنا لا أملك
مალأً لأتزوّجك، شبحُ إنسان خالي الوفاض تماماً كما خلا قلبي منك.

تنحني مقبلة يده، دموعٌ كالأنهار تسكبها عيناها بلا انقطاع:
 - تزوجني يا سالم.. ومن بعدها طلقني، لا أريد منك سوى
 اسمًا أمنحه لمن سكن أحشائي، حلفتك بالله ألا تبخل عليه باسمٍ
 يجعل رأسه فوق كتفيه لا أسفل أقدام الناس.
 ينظرُ لعمق عينيها بشُروء، يتلمس وجهها بيده فيزهر الأملُ
 بقلبها، يسحبُ يده جانبه بينما تتساقط الثلوج من بين شفثيه:
 - يمكنك التخلّص منه، عندها لن تكون هناك معضلة.
 تنظرُ إليه والصدمةُ تكلل وجهها:
 - أتخلّص منه فتنتهي مُعضلتك!! ماذا عني يا سالم! ألم تفكر بي؟
 - وأيِّ مُعضلةٍ ستبقى إن انتفى حملك؟! حينها لن تحملي سوى
 همّ النسيان، وما أسهله!
 - ما أسهله! كيف هذا والنسيان تاجرٌ مُرابٍ، لا يمنحنا بضاعته
 إلّا واقتصص أضعافها من أعمارنا!
 - رحمة، هذا الحديث لن يفضي بنا لشيء، نهاية القول أنا مُعدم
 ولا قدرةً لديّ على تحمّل مسؤولية كهذه.
 تمسكُ ذراعَه برجاء:
 - حلفتك بالله ألا تتركني، ألا تجعلني علكةً يلوكها الجميع،
 أبي لن يرحمني، سيرميني بعرض الطريق، وحينها سأكون عرضةً
 لكِلاب البشر.

- عاجزٌ أنا عن مساعدتك، ألا تفهمين؟

- سيساعدنا أبي إن تقدّمت إليّ، بإمكاننا أن نتزوَّج ونحيا معه بمسكنه، تعلمُ أنّ والدي متوفّة منذ زمن ولا يوجد سواي أنا وهو.
- وهل سيطعُمنا؟ كما تريّ لا عملَ لديّ، لا إرث أتكلّي عليه،

فرعٌ بُترَ من شجرة، فهل سيزوّجك والدك لشخصٍ مثلي؟

- سالم، كلّ ما أرجوه منك هو ورقةٌ بائسة أنقذُ بها الحياة التي سكنتُ أحشائي؛ لذا لا يعنيني إن بقيتَ معي أو رحلتُ، فقط تزوّجني ولن أطلبك بقرشٍ واحد.

يتنهد بنفادٍ صبر:

- حسنًا، سأترك أمرَ إقناع والدك بزواجنا على عاتقك، لكن اعلمي بأنني لن أقبله حتى يوافقَ على تمويل هذا الزّواج من البداية للنهاية.

أنهى جملته مغادرًا غير مُدركٍ بأن موافقته المشروطة هذه قد زادتْها حملاً أضعافَ حملها.

داخلُ بهو منزل (عائلة المسلماني) أعرق عائلةٍ بنجّع ولاد مسلماني التابع لإحدى قرى محافظة سوهاج، والذي سمّي تيمناً باسمها، يقتحمُ صالح مجلس والدته صائحاً في النسوة بغضب:
- جميعكنّ إلى الخارج، هيّا.

تتفاضل النسوة من مقاعدهنّ كأرانب مذعورة تخشى فتك الذئب
بها إنّ لم يطلقن سيقانهنّ للريح!
يغلق الباب ورائهنّ في عنف، ثمّ يلتفت لوالدته المتعجبة
صارخاً:

- متى ستنتهي ابتك من ههنا! تليدُ تمادي كثيراً في سخريته،
وصارت تعليقاته أمام أبناء العمومة كسياطٍ حادة، وأنا ما عدتُ
بقادرٍ على ارتداء عباءة ضبط النفس أكثر ممّا فعلت.

يترجل التعجب من ملاحظها فتحتلّ الرزّانة مكانه:

- لا داعي لصراخك هذا يا ولدي، فات الكثير ولم يبقَ أمامها
سوى عامٍ واحدٍ لتنتهي من دراستها، حينها لن يكون هناك أيّ
عارض لزواجهما.

يتحرّك جيئةً وذهاباً بغضب:

- صدقاً، لم أجد عارضاً بأيّ وقت، لا الأمس ولا اليوم.
- اهدأ بني، لا أجد مبرراً لتلك الضجة، فزهراء زوجةٌ تليد
بالفعل، تدرك جيداً أنّ والدك، رحمه الله، قد أبرم العقد مع عمك
منذ أن بلغت الثامنة عشر من العمر، صحيح أنّ الأمر مازال حبراً
على ورق؛ لكنّه زواج رسميٍّ ومُكتمل الأركان بموافقة الوكيل
وبتواجد الشهود، والجميع على علم به.
يتوقّف بعنفٍ أمامها صارخاً:

- كان ليصبح زواجاً فعلياً لولا تدخلك وتسميمك لأفكارِ
والدي لينصاع لك في النهاية ويوافقك على هذا العبث، اللعنة على
النساء وطنينهنّ المستمرّ.

تلتقطُ نفساً عميقاً، ومن ثمّ تزفره ناهضةً من مقعدها لتقف
أمامه ناظرةً في عمق عينيه:

- يا ولدي، لم نسمح لأختك بتقرير أيّ شيء منذ ولادتها؛ قمنا
برسم حياتها دون سؤال عن رأيها، عاملناها كجدارٍ آخرس، صممتُها
عفويّ، وخضوعُها أمرٌ بديهي، حتّى في مسألة الزواج لم نأخذ برأيها،
بل أخذنا بناصيتها كأيّ بهيمةٍ تُساق للذّبح، ليس كثيراً أن نترك لها
شيئاً يُشعرها بأنّها آدمية، وبأنّها مميّزة عن سائر فتيات النّجع؛ يحفظ
لها ماء وجهها أمامهنّ، ويرفع هامتها بين تقزّمهنّ، فابنةُ فاطمة
لن تتساوى مع فتيات عائلتك الجاهلات، أو مع واحدةٍ من بنات
النّجع، وبالتأكيد لن أفعلَ بها ما فعلته بي أمّي وأجعلها تتزوّج قبل
أن تكملَ تعليمها.

ينظرُ لوالدته بغضب، الاستنكارُ يلوّن محيّاها:

- لكنّك لم تخسري شيئاً بزواجك من أبي، بل زادَ ذلك من
قيمتك.

تنفرجُ شفطيها مشدوهةً من بشاعةِ كلماته، وحينها طالَ به
الصمتُ لم تجذّ أمامها سوى أن تزمّها بامتعاوض:

- حقاً ابنُ أبيك!

- أتُنكرين.. كنتِ إحدى فتيات النَّجع، بلا نسبٍ يركن إليه أو مُمتلكاتٍ تدرّ دخلاً، جلّ ما كانت تمتلكه عائلتك هو بضعةُ أسهمٍ لأرضٍ بور، ونبوءة عرّافة بأنّ الولد سيأتي من رحمِ ابنتهم شاميّة الملامح.

تبتلعُ كلماته المؤذية بهاء الصّبر مرّدةً بهدوء:

- لن أنكرَ فضلَ أبيك عليّ وعلى عائلتي، نعم كنتِ إحدى فتيات النَّجع، مهمّشة من عائلةٍ مستورةٍ الحال، لكنني كنت أجملهنّ، إضافة إلى تميّزي عنهنّ كوني جامعية، ولا تنسَ فارقَ العمر، فقد كنت بالعشرين من العمر، بينما كان والدك يكبرني بثلاثين عاماً، وسبق له الزّواج بامرأتين من قبل، كانت إحداهنّ مازال في عصمته حينما تزوّجني، نعم زادت قيمتي بزواجي من أبيك، لكنني أعطيته ثمنَ ذلك مسبقاً، أعطيته شبابي وجمالي ومنحته الولد الذي تمنّى، والذي بالمناسبة يقف أمامي الآن ويجادلني في قيمتي!

يزفرُ نفساً عميقاً فقد ضاقَ صدره بكلماتها التي لا تمثّل له أيّ أهمية، بمعياره هو تحدّد قيمة النّساء، وربّما البشرُ جميعاً بقيمة العائلة ومدى نفوذها؛ لذا ردّد بغضب:

- صدقاً، لا تهمني تبريراتك، ولم يكن هذا ما جئت من أجله، فقط أعلمني أنّي لست راضياً، ولم أكن يوماً راضياً عن هذا الوضع،

ولتعلم ابتُك أن أيّ خطأ سيصدر منها، كالرّسوب مثلاً، أو عدم سماعها لأوامري، قسمًا بالله سأودّعها بيتَ تليد في الحال، ولن أكثرَ لك أمّي.

أنهى جملته مغادرًا الغرفة كقطارٍ مُسرّع مَخلفًا وراءه سحبٌ من توترٍ.

كان سالم - كعادته - جالسًا بمقهى السّعادة، المقهى الوحيد بالحارة، والذي ضمّ بين جنباته أشخاصًا خلتْ وجوههم من اسمه، ينظرُ للمارّة بلا نظرٍ، يتعجّب بينه وبين نفسه من حاله الذي يعارض معنى اسمه!

(هذه الحياة كسّيرٍ يؤرّقه الواقع، كلّما أدارتِ الخمر رأسه؛ رشقَ العابرين بنكاته السّاخرة! اسمي سالم، وكم يبدو هذا آمنًا! لكنّ السّلامة لم تكن رفيقتي يومًا، وما كان السّلام طريقي بالحياة، لا أذكرُ حياتي قبل تواجدي بحارة السّعادة، لكنني لن أنسى أبدًا كيف تربّيت بها؛ حيث الأكل القليل والضّرب الوفير والسّرقات التي لا تسدّ رمق السارق، لم أدرس الحياة بين دفّتي كتاب لكنني درستها جيدًا بين جنبات الحارة! لم أشعرُ يومًا بحاجتي لمراجعة النفس أو ملامتها، أو لتبرير تصرّفاتي؛ فالواقع صار بشعًا لدرجة أنّ مساحيق التجميل ما عادت تُجديه نفعًا، بل تزيده قبحًا، ولا

معضلة في ذلك؛ فالنبتُ الشَّيطاني مثلي لا مشكلةَ لديه مع القبح، بل أعتبرُهُ أمرًا عاديًّا، فنحن أبناءُ الحياة الحقيقيِّون، أولادها المتعبون غير المتعبين، لم نطلب منها شيئًا، ولم ننتظر منها شيئًا سوى القسوة وتسديد الضربات المتتالية وغير المبررة أيضًا! منها تعلَّمت أنَّ البشرَ فريقان، غالبٌ ومغلوب، آمنٌ يرتضون المنتصفَ فهؤلاء حطُّبُ المعارك الطاحنة، لذا كان عليَّ أن أهزم كلَّ ما يقابلني، أنْ أهزم يُتمي وضعفي وسجنَ التشرُّد المليء بحيواناتٍ تشبه البشر، لم أعرف مَنْ هما والداي ولم يشغلْ بالي معرفتهما يومًا، لم أدركْ من أطلال الحياة سوى أمِّ مينا وابنتها، تلك هي العائلة التي عرفتها يومًا وبيتها، تلك الجُدُرُ الحُرْبَةُ التي أركنُ إليها كلِّما هدَّني التعب وضاقَتْ بي السَّبل، كانت والدَةُ مينا أمًّا لي بقدر ما أهتمَّتْها عاطفتُها، وبقدر ما أسعفها الزمن، مَنْ أنا لأتدمَّر أو لأشكو؟! أأشكو قسوةَ الغريب وقد كان أحنَّ عليَّ ممَّن أتيا بي لهذا العالم الأسود!

- سالم، أين شردت؟

يعود سالم لشاطئ الواقع تاركًا بحرَ ذكرياته الهائج:

- لا شيء يا مينا.

- تعالَ معي.

- إلى أين؟

ينظر إليه مينا باستنكار:

- ومنذ متى بتّ تسأل إلى أين؟! سنبحث عن قوتِ يومنا، هيا.
- حسناً.

قالها ناهضاً ليمضيًا معاً باتجاه الطريق العام.

- ما الذي ستفعله بخصوصِ رحمة؟

يرفعُ سالمُ كتفيه بلا مبالاة:

- أحاول التملّص منها، لكنّها كالعلقة تأبى أن تتركني وشأني.

- إذا ستزوّجها؟

- لستُ من هواة الزّواج، لكن إن كان مقدّماً على طبقٍ مجّاني

فلا بأس بذلك، حتى أجدَ طبقاً ترضاه نفسي. (قالها غامزاً)

يقهقه مينا عاليًا:

- الأطباقُ باتت شحيحةً يا صديقي، فقط أتمنى أن يكون

طبقُك شهياً.

- لم يعدْ شهياً بالطبع، فقد سبق ونهلتُ منه حتى امتلأتُ

فزهّدته نفسي، لكن إن كان والدها سيتكفّل بنا فلا بأس! مرحباً

بماؤى لم أتصبّب من أجله عرقاً، ولم تكلفني سكّناه قرشاً.

استمرّ صمتُ مينا ممّا دفع «سالم» لينظر حيث يسدّد بصره،

ليسأله بعد برهة:

- ما بك!! هل تعرفهما؟

من دون أن ينظرَ إليه جاوبه:

- انظر جيداً وستفهم وحدك.

يمعنُ نظره في المشهد مرّة أخرى، فإذا به يجدُ شابًا عشرينيًا نحيلًا، يحاول إخراج والدته من المقعد الأمامي للسيارة، لكنّه لا يستطيع حملها وتثبيت الكرسي المتحرّك في آنٍ واحد.

- هيا.

قالها مينا لاكرًا «سالم».

يسأله شاخرًا:

- منذ متى أصبحت من الأخيار؟!!

ينظرُ إليه مينا بنظرة ذات مغزى:

- نحنُ أخيار على الدوام، إلحقُ بي بعد برهة.

قالها ومن ثمّ اتّجه مسرعًا ناحية الشابّ صائحًا:

- دعني أساعدك، اسندُ أنت الكرسي وسأقوم أنا بإخراج والدتك.

تنحّى الشابّ أمام ضخامة مينا شاكرًا، ثمّ شرع في تنفيذ أوامره. كانت هذه إشارة البدء لسالم كي يقتربَ منهما عارضًا المساعدة أيضًا، لكنّ مينا أشار إليهما بيده علامة من يسيطر على الوضع، ممّا أتاح الفرصة أمام سالم ليقف خلف الشاب الذي لم يعِ ما يحدث، فقد كان تركيزه منصبًّا على مينا وهو يُخرج والدته من قلب السيارة! بعد أن أتمّا مهمّتهما غادر كلّ منهما بطريقٍ مختلف، بعد أن

- شكرهما الشاب، وشيَّعتهما والدته بسيلٍ من الدَّعوات.
- بعد عشرِ دقائقَ التقيا في شارعٍ جانبيٍّ، فبادره مينا مستفسراً:
- هل استطعت الحصولَ على محفظتي؟
- فيجاوبه سالم بضحكةٍ هازئة:
- هل بحوزتك قلادةُ والدته؟
- يقهقه مينا عالياً:
- لا شيء يفوتك.
- تلميذكُ أستاذي، أتمنى أن يكون بحافظته ما يشرحُ الصدر
- أيضاً.
- لنعودَ للمنزل، وعندها سنكتشف حجمَ غيبتنا.
- أتبعَ مينا جملته مشيراً لعربةٍ تشبه العلبة، ذاتِ ثلاثةِ إطارات
- تسمّى (توكتوك)، ليتوقّف سائقها في التوّ بجانبه، شرعَ كلاهما
- بالركوب دون أن يزيدا كلمة، فقد كانت رائحة الأموال تسدّ شهية
- أفكارهما.

الفصل الثالث

وقفت زهرة أمام غرفة أم بسيل كسجين يقف على أعتاب غرفة مدير السجن، يتملكها الخوف والتردد والكثير من الاضطراب، تتأهبها رغبة في العودة لغرفتها ونسيان الأمر وليحدث ما يحدث، فأم بسيل امرأة صعيدية لا تعرف سوى ما لقنوها بالنّجع، ولا تؤمن إلا بما توراثته عن الأجداد، امرأة من طين وماء، كأرض عجوز لا تعترف بالآلات الحديثة وطرق الري المتطورة، بل تعشق صدأ الفأس العتيق، ويشتاق تراها لعرق الفلاح المتصبّب، ولظلّ الفزاعة الحزين.

تستنشق نفساً عميقاً، ومن ثمّ تزفره ببطء علّ التوتر يفارقها، فأم بسيل بالرغم من أميتها، إلا أنّها تمتلك من الحكمة والذكاء ما يجعلها صعبة الاقتناع، فهي لا تتخلّى عن أعمال فكرها، تهتمّ بالتفاصيل، وتقف على هامات الأمور غير آبهة بما تقدّمه لها من توضيح، أسألتها كثيرة ولا طاقة لديها بإجابتها، فهي حقاً لا تكثرُ لحضور تلك الحفلة، إذ ما حاجتها للبقاء بمكانٍ لا يشبهها؟ صحيحٌ أنّها تشوّق للانفتاح على حياة المدينة، ويُغريها - أحياناً - تحرّره، لكن ما فائدة التطلّع والانفتاح واكتساب الخبرات إن لم تجعل منّا أشخاصاً أفضل!

بل ما فائدة الشهادة الجامعية إن كانت في النهاية ستزج بسجن الزواج
المكمل بأصفاد الجهل والموروثات الخاطئة! لا طائل من امتلاك سفينة
وأنت قابع بقلب الصحراء، فلا نوح آخر سير سل للعالمين، ولا فيضان
آخر سيذهب بقبائل الجهل التي تحيط بنا!

تطرق باب الغرفة:

- أيمكنني الدخول؟

تفتح أم بسيل باب غرفتها مستغربة:

- أتستأذنين حبيبتي! تحت أمرك سيدي، تفضلي.

- كفي عن قول هذا، لست سيدة أحد.

قالت لها زهراء بضيق، ثم أكلمت مُعْتذرة:

- آسفة، هل أيقظتك؟

- أنا هنا لخدمتك بأي وقت.

قالت لها، ومن ثم اتجهت لتجلس فوق الأريكة الخشبية القابعة

أسفل نافذة الغرفة، ثم أردفت:

- أعذريني ابنتي؛ فساقاي ما عادتا تحتملان ثقل جسدي.

تتململ زهرة بتوتر:

- جيد أنك فعلت؛ فحديثنا سيحتاج لبعض الوقت.

- إذا اقتربي وأخبريني ما بك؟

فضّلت زهرة أن تقف على أعتاب الغرفة متجاهلة دعوتها،

شيء ما يدعوها للهروب، أهو خوف..؟ أهو ضيقُ بتلك الحياة الهزليّة التي تحياها؟ لا تعلم، كلّ ما تدركه أنّها لا تستطيع الارتقاء بأحضان والدتها والتحدّث إليها وجهاً لوجه كأَيّ فتاة طبيعيّة، بل عليها أن تجدَ طرفاً آخرَ ليتوسّط لها! وإفراطاً في السخرية فإنّ هذا الطرف هو خادمتهم أمّ بسيل، ولا يعني استنكارها هذا أنّها تحتقر المرأة أو تقلّل من شأنها، على العكس، إنّها تكمن السخرية في كونها لا ترتقي عند أهلها لقدريها!

عند هذا الحدّ، أوقفت سيلَ أفكارها، ومن ثمّ أخذت نفساً عميقاً كمحامي دفاعٍ لقضية سائكة:

- الدكتور راشد الذي يدرّس لي مادّة التحليل الكيميائي سيقم حفل خطبته الجمعة القادمة، وقد قام بدعوة جميع طلاب القسم؛ لذا أريد منك إقناع والدتي كي تأذن لي بالحضور.

تنظرُ إليها أمّ بسيل بهدوءٍ حذر، ملامحها كبحرٍ ساكن لا أحد يدرك الدّوامات التي تدور بأعماقه:

- وهل ستوقّف الخطبة إن لم تذهبي؟

بامتعاضٍ جاوبتها:

- لا لن توقّف، لكن تقدّمي بتلك المادّة قد يتوقّف، وربّما أخفق بها؛ لذا ذهابي مهمّ بالنسبة إليّ.

- مازلتُ لا أفهم، ما علاقتك بأمر الخطبة؟

يتملك زهرة الحنق، فتجاوبها بضيق:

- خالتي، أفنعيها فحسب.

- لكنني لكي أفنعيها لا بدّ وأن أقنع!

تتنهد زهراء بيّاس، ومن ثمّ تتقدّم للجلوس بجانبها، تجاوبها
بمرارة لا حدّ لها:

- كيف لي أن أفنّعك وأنا مثلك! فتاة قروية لم تختبر الكثير من
الأمور، ولم تثقلها التجارب مثل من هنّ بعمرها، حتى أنت خالتي
بالرغم من سنواتك العديدة مازلت امرأةً فاتها الكثير مقارنةً بهنّ،
في المدينة لا يتقبّلون الرشوة لكنهم يغلفونها بورق الهدايا المفصّض
بالنوايا المستترة، بنجعنا الناس تتهادى حبّاً وتقديرًا لبعضهم البعض
بنية خالصة لا شية فيها، لكنّ بالمدن الناس تتهادى تبادلًا للمنفعة،
إن لم أذهب لن يفتقدني أحدٌ حتّى الدكتور راشد نفسه لن يلحظ
غيابي، لكنه سيفتقد هديتي بالتأكيد.

- إن كان الأمر متعلّقًا بالهدية فيمكنني إرسالها له، اختاري
الهدية التي ترتين وسأرسل «بسيل» بها، حينها يصبح ذهابك لا
داعي له.

- وهل هو متسوّل يحتاج لشفقة! هل نرسل الهدايا للآخرين
دون أن نكلّف أنفسنا عناء تقديمها، من سيتقبّل فعلاً كهذا؟ إنّه
دكتور بالجامعة وله مكانته وقدره، ليس عاملاً بأرض المسلماني

لنتصدّق عليه، سيُعتبرها إهانةً، وحينها سيردّها لي بأشنع الصور.
- لا بأس، يمكنك تقديمها بنفسك في الجامعة بعد انتهاء
المحاضرات.

تهزّ زهراء رأسها بيأس:

- ألم أخبرك بأنك امرأةٌ فاتها الكثير! إنّ أعطيتَه الهديةَ بالجامعة
هل تعتقدين أنه سيقبلها؟ بالتأكيد لا، سيرفضها مدّعياً أمام الجميع
أنّه صاحبُ اليد الطاهرة، وقد يتّهمني حينها بأنني جئتُ لأرشيهِ،
وقد يصعّد الأمرَ لأجديني في النهاية مُحالةً للتأديب من قبل الجامعة،
وقد أحرم من إكمال دراستي.

- تضخّمين الأمور كعادتك!

- بل أطرّحها من جميع الزوايا لأنني لا أريد ارتكابَ أخطاء
تودي بي لسجن الزواج.

ترفع أم بسيل حاجبيها بامتعاض:

- سيحدث الزواج في جميع الأحوال يا زهرة، لا مفرّ من ذلك.
تجاوبها بضيق:

- إذاً لنتركه حتى يحين وقته، ولتهتمّي بموضوعنا الحالي، أتمنّى
حقاً أن تقدّري موقعي.

قالتّها ناهضةً من جانبها في نيّة واضحةٍ للمغادرة، فقد فرغ ما
لديها من كلمات، لكنّ قبل أن تغادر الغرفة التفتت إليها راجية:

- اعلمي خالتي أنّ مستقبلي يتوقّف عليك، أتمنّى أن تضعي هذا نصبَ عينيك وأنت تُقنعين والدتي، تُصبحين على خير.
قالتُها غالقةً البابَ خلفها، وشعورٌ بالإنهاك يتملّكها، كمحامٍ حاول الدفاعَ عن موكله بكلّ ما لديه من دلائل لكنّه لا يدري هل سيحصلُ موكله على البراءة أم الإعدام!

* * *

- مرحباً أبي، كيف حالك؟
ينظر إليها بتعجّب، الأسئلة تتقاذفُ فوق شفّتيه:
- منذ متى هذا الاستقبالُ الحافل يا رحمة؟ لسنين عدّة كنت أخرجُ وأعود للمنزل دون أن تشعري بي، لم أتعرفك صدقاً.
تنظرُ إليه بتوتر:
- أعرّفُ بتقصيري سابقاً، لكن لا بأس في تدارك الأمر، ألا تعتقد ذلك؟

- وما الذي حدثَ وغيرَ مفاهيمك؟
- على المرء أن ينضجَ يا أبي، وأنا ما عدتُ طفلة.
قالتُها بابتسامة خجلى.
يتنهد كمن يحمل ثقلًا ما عادَ يستطيعُ حمّله:
- ومتى حدث هذا؟
تنكّس وجهها بخجلٍ، وتلوذ بالصّمت!

- كل ما فيك اليوم مختلف، أتمنى أن يكون هذا نذير خير.
حسنًا، دعيني أذهب لأنال حمامًا دافئًا يزيح عناء اليوم عن كاهلي.
تفسح له المجال للمرور:
- جيد، خذ حمامك ريثما أعد الطاولة؛ فقد طبخت اليوم
طعامك المفضل.

يلتفت إليها والتعجب يكلل محياها:
- وطبخت أيضًا! أمتأكدة أنك بخير؟!
تبسم ابتسامة باهتة:
- هيا أبي، اذهب ودعني أرتب الطاولة.
يتركها متجهًا لغرفته، بينما الشكوك تهاجم عقله، ثمّة شيء
لا يهضمه أو يستطيع التّغاضي عنه، أمرها يحيرُه، ويقض مضجع
الرّاحة بصدرة، يسأل نفسه بشكّ:

«منذ متى صارت ابنتي ودودة هكذا! لم تكن هذه طبيعتها.. أين
الفتاة الكسولة المتأففة دائمًا من تواضع شقّتنا وشظف معيشتنا! من
الحارة وقاطنيها وكلّ ما يُحيط بحياتنا، التي تنام نهارها وتنفّق ليلها
أمام شاشة التلفاز، ما الذي أحال صراخها لهدوء حذر؟ ولا مبالاتها
إلى اهتمامٍ مثيرٍ للرّيبة؟ ولا يخبرني أحدكم أنّها الهداية؛ فلم أدعو الله
بها يومًا، ولا أحدٌ يهتدي هكذا بين عشية وضحاها! أيعقل أنّها تخفي
شيئًا؟ أيتعلّق الأمرُ بذلك اليوم حينما رأيْتُها صباحًا بالشّارع؟ اللّعة

على خلفِ الفتيات، مَنْ قال إنني كنتُ أريد طفلاً من الأساس، أنا رجلٌ لا يملك مشاعرَ ليهبها، ولا يعرف كيف يفني حياته من أجل أحدٍ، لكنّها زوجتي التي أصرت على الإنجاب، ليتني عارضتها أو هدّدتها بالطلاق، ليتني تنكّرت لما في رحمها كما تنكّرت لما في رحم فاطمة، آه يا فاطمة، أين أنتِ الآن، وماذا حلّ بك؟ أمازلتِ بين الأحياء، أم واركِ الثرى وسكنتِ القبور مع الأموات؟»

ينفضُ رأسه بعنف وكأنّه بذلك يتخلّص من طيور الذكري التي حلّقت فوقها، اختار ثيابه، ومن ثمّ توجه إلى الحمام لينعم بدش ساخن، ربّما أذاب صورة فاطمة التي ارتسمت أمام ناظره بعيونها الجميلة الباكية، والتي ما استطاعت السّنون أن تحوّها من مخيلته.. «اللّعة على الذكريات، كيف لها أن تظلّ نابضةً هكذا ولا يُميّتها النسيان؟!»

هكذا ردّد لسان حاله، بينما ينساب الماء على جسده.

بعد أن ذهب إسماعيل لينعم بحمام ساخن، اتّجهت رحمة إلى المطبخ كي تسكب الطّعام بالأطباق، بينما تنسكب أفكارها خارج وعاء عقلها.

رحمة إسماعيل الشّناوي، هذا هو اسمها كاملاً، لكنّ القدر لم يكن بها رحيماً؛ فجعل الفرح بحياتها مبتسراً، فقد حرّمها والدتها

وتركها تحيا اليتيم والعزلة بجوار أبٍ متحجّر الفكر والمشاعر، فلا هو أسكنها جنان أبوتّه ولا أغدقها بحنانِه منذ أن فقدت والدتها، فكان طبيعياً أن تشبّ على الجمود والتّباعد، عنه وعن الجيران وعن محيطها، أمّا عن الأقارب فيبدو أنّ عائلتها ثمرة لشجرة لم تعرّس بأيّ أرض! تبلغ من العمر السابعة عشر، تلقت تعليمها حتى الشهادة الإعدادية، ومن ثمّ أعلنت اكتفاءها ولم يمانع والدها ذلك، فهو يرى أنّ الفتيات قنابل موقوتة وجب عزلها عن المجتمع منعاً لحدوث ضرر، بينما لم تعارض والدتها، فقد كانت متوفّة منذ زمن فلم يسمع لها رأياً! تحيا عالمها الخاص ما بين الخواء وسالم، عشقها الأوّل، أوّل من خاطبها بلغة المشاعر، وفتحت على يده أنوثتها، وكم تخشى أن تكون بيده نهايتها، اليتيم يفعل بنا الأعاجيب، اليتيم يترك بقلوبنا ثقباً أسود يحتاج للارتواء كأرض عطشى لا تدرك شبعاً، ولم يكن أمامها سوى سالم لتنهّل من بئر عشقه الخادع، لكنّ بالنهاية الأشياء تتبدّل، وتنطفئ لمعتها؛ فيظهر وجهها المشوّه، لذا تبدّل الحبّ وامتنطى الشهوة، فصارت متطلّبات سالم أكثر جرأة وقسوة، وإن امتنعت عن تليّتها يوماً، كان يعاقبها بالغياب، ولم تكن هي لتقوى على العودة وحيدة كما كانت، فالوحدة وفيّة لأحبابها، لكنّ لديها عيبٌ قاتل؛ فهي أبيّة ذات ذاكرة فولاذية، لا تنسى إساءتك أبداً، وعندما تخونها مع غيرها لا تسمح لك بالعودة لأحضانها مرّة أخرى؛ لذا لم

يكنْ أمامها سوى الانصياعِ لسالم، فلم يكنْ لديها واعظٌ مرشد، ولم تمتلكْ من الخبرة ما يكفي، كلّها مبرّرات والنّهاية واحدة، سقطت بيئر الدّنس، وامتلاّت أحشاؤها بمائه؛ فنبّتْ بها بذرةُ الخطيئة لتحيّا شهرها الثالث لتبدأ دَوامةٌ موحشة يقودُها سالم، وتدور هي داخلها مغمضة العين، زائغة العقل، مثقلة الخطى لا تملكْ أمامها حيلةً أو كتفًا تتكى عليه، حتّى سالم الذي تخيلتْ - واهمة - أنه متكوّنها بتلك الحياة، ألقي الكرة بملعبها، وترك على عاتقها تسديدَ الهدف!

- فيم أنت شاردة؟

أجفلها صوتٌ والدها حدّ أنّها كادت تسقطُ الطبقَ من يدها، تلملمْ شتاتها بشقّ الأنفس فتسأله:

- هل انتهيتَ من حمّامك؟

- أنتهيت منذ برهةٍ وأتصوّر جوعاً، أين الطعام؟

- سأضعه حالاً.

- على أساس أنّك كنتِ تعدّين الطاولة!

- دقيقة واحدة وأنتهي.

قالَتْها وهي تضع الأطباقَ أمامه في سرعةٍ وحذر، ما إنْ انتهت حتى اتّخذت مجلسها أمامه.

أمسكَ إسماعيل بملعقته، وشرع في صبّ الطعام بجوفه دون أن ينبسَ بكلمة، تشاهده وهو يأكلُ كدُبّ نهم لا تشبعه فريسته،

تبادره بالسؤال ملطّفة الأجواء:

- كيف حالك أبي؟

يرفع رأسه عن طبقه ناظرًا لعمق عينيها بريّة، بينما يسألها بصوتٍ متحشّج جرّاء امتلاء فمه بالطعام:

- هذه ثاني مرّة تسألين فيها عن حالي بأقلّ من ساعة زمنية، ما خطبك؟

تتململ في جلستها، تشابك أصابعها في توتّر بالغ:

- أبي، أريد أن أخبرك شيئًا.

يعودُ لإكمال طعامه متّخذًا من الصّمت إجابة.

- هناك مَنْ يودّ رؤيتك واحتساء فنجان من القهوة معك.

يتركُ ملعقته، ويعتدل في جلسته سائلًا بحذر:

- مَنْ هو؟

تتوتّر كمنذب يتمّ استجوابه، تسدّد بصرها في البعيد مُجابهة:

- اسمه سالم، ويريد مقابلتك.

- لم؟

- تعلم أنّي ما عدتُ طفلة؛ لذا من الطّبيعي أن يطلبني أحدهم

للزواج.

يرخي ظهره للخلف ضامًا ذراعيه أمام صدره:

- وماذا يعمل سالمك هذا؟

- يعمل بأشياء عدّة، ففي أيّامنا هذه بات من الصعب إيجاد عملٍ مستمرّ.

- أيّ الله عاطل!

- ليس لفترةٍ طويلة؛ فالظروفُ تتبدّل، ولا شيء يبقى على حاله.

- إذا كلّ هذا الكرم كان من أجل سالم! (قالها مشيراً للطعام).

تنهّض من مقعدها، ومن ثمّ تقتربُ منه، تتعلّق بذراعه في رجاء:

- أرجوك أبي وافق عليه إن كانت سعادتي تعني لك شيئاً.

- كيف أوافق على مُعْدَم مثله، ما الذي يدفعني لاحتِمَال وضع

كهذا، صحيحٌ أنّي أودّ تزويجك لأرتاح من ثقلِ مسؤوليّتك، لكنّ

هذا لا يعني أنّ أرميك لحثالة البشر، هل يمكنكُ أن تخبريني من أين

سيأتي بنفقات الزّواج؟ أين ستسكنان؟

- يمكننا المكوّث معك ريثما نجدُ مسكننا الخاص.

- ومن أين ستنفقان؟

- أعدك بأننا لن نثقلَ عليك في شيء، سأتقاسم وجباتي معه

حتى يأذن الله بعملٍ يدّر عليه دخلاً، أعدك، لن تشعرَ بتواجدنا من

الأساس.

ينفضُ ذراعه بعنفٍ كمرجلٍ على وشك الانفجار، يتكلّم وكأنّه

يخاطب نفسه:

- يبدو أنّكم أعددتُمَا الخطّة كاملة، وجهّزتما أجوبتكم مسبقاً!

يهزّ رأسه بهدوءٍ مثيرٍ للرعب، بينما يردف:

- حسنًا لنضع الأوراق على الطاولة؛ عاطل، مُعَدَم، لا يملك قوتَ يومه، بلا مأوى،.. يبتزّ حديثه سائلًا:

- هل يملكُ عائلة؟!

تهمّ بالابتعاد خوفًا:

- سالم يتيمٌ يا أبي، توفي والداه منذ أن كان صغيرًا.

ينقُرُ على الطاولة بسبّابه:

- أيّ أنّه نكرة، أليس كذلك؟

يهزّ رأسه عدّة مرّات، وتزداد حدّة النّقر على الطاولة:

- أخبريني برّبك، ما الذي يدفعني للموافقة على شاب كهذا؟

ما الذي لديه واحتاجه بشدّة لأشعر له ذراعي مرحّبًا، ممهدًا له الطريقَ لزواجك؟ إلّا إذا..

تنظرُ اليه بخوف:

- إلّا إذا ماذا؟!

لم تكذّ تنهي عبارتها حتى وجدته ينقضّ عليها كعاصفةٍ عاتية

مُمسكًا بشعرها بكلّ قسوة:

- إلّا إذا قرطتِ ابنتي في شرفها، وجعلته يطاءً جسدها كأبي عاهرة.

تصرخُ باكية من فرط الألم، تنفي كلماته كاذبة:

- كيف تفكر بي هكذا؟ أنا ابتكت، ولن أفعل هذا بك أو بنفسي.
من دون أن يترك شعرها:

- إذا أخبريني لم كل هذه الضجة حول ذاك النكرة؟!
من وسط صُراخها ونحيبها:

- لأنني أحبه أبي، كُون أنك لا تدرك معنى الحب فهذا لا يعني
عدم تواجده.

يترك شعرها أخيراً، فتسقطُ رحمة أرضاً:

- إن كان كما تدعين فأنا غيرُ موافق.

أنهى جملته عائداً لمقعده أمام الطاولة، ومن ثم أكمل:

- أخبرني ذلك البائس أنني لست بجمعية خيرية تأوي المشردين
أمثاله، أما أنت فمن اليوم لن تخطو قدماك خارج عتبة هذا المنزل،
هيا اذهبي لغرفتك لأن وجهك هو آخر ما أريد رؤيته الآن.

قالها ومن ثم هم بإكمال طعامه.

تحاول النهوض لكن جسدها يأبى، الدموع تنهمر من عينيها جرأ
القسوة والرفض، غثيانٌ يملأها، دوار يلف رأسها، تنقلص أمعاؤها
جرأ إدراكها أن كل يوم يمر عليها يدفع الحقيقة لتفنن في الإعلان عن
نفسها «لقد حشرت بالزاوية، ولم يعد أمامي الكثير لأفعله»

هكذا ردّدت لنفسها وهي تنهض بتهالُك متجهة لغرفتها، بينما
جسدها ينزّ أماً وخوفاً.

بجيين يتصبّب عرقًا، وبملاح كحلّها الرّجاء، تقترب منه
باستجداء:

- أتنطق الكلمات سدّى! أتنفي الوعود من تلقاء نفسها؟
أنا أبديتك أكان قولك كذبًا؟ أنا أمك وأختك وجميع ما لديك،
أنسيتني؟ كيف أمّنتي هكذا يا إسماعيل؟ وكيف تتركّني بعد أن
اختلط مائي بمائك وثقلت أحشائي ببذرتك؟
تنهي كلماتها مُنحنية لتقبّل يده:

- حلفتك بالله ألا تتركّني، من سيقف بجانبني إن تخلّيت أنت
عني؟ أتركّني لذئاب البشر كي ينهشوا ما بقي مني!
يسحبُ يده بعنفٍ كمن لدغه عقرب:

- ليس خطئي أن كنت بلهاء عقيمة الفكر، ولم تنتهي للتأبج
الحتمية لعلاقة كاملة بين رجل وأنثى، أحسبت بغباك هذا أنك
ستوقعين بي؟ أظننت أنني سأقع بشركٍ ساذج كهذا؟ لست غرًا
عديم الفهم لينتهي بي المطاف زوجًا لعاهرة.

تصدّمها كلماته كقطارٍ مُسرّع، تردّد الكلمة غير مصدّقة:
- عاهرة! ساحكك الله يا إسماعيل، كيف تقول هذا وأنت من
فضضت بكارتي، فكنت بذلك أوّل من سلك دروب جسدي، تعلم
جيدًا أنني لست كذلك، لكنك تحطّ من قدرّي كي تمنح هوى نفسك
عذرًا تُخرس به ضميرك.

- وأنت! ماذا عن ضميرك! لم التزم الصمتَ حينما خُنتِ أهلُك
وارْتَضَيْتِ أن تسكني أحضاني!
تبكي بحرقة:

- تعرف أنني لست فتاةً مدَيِّنةً لأدرك الكثيرَ من الأمور، تربيت
على الصمت وعدم الإسراف في الأسئلة، الناس بنَجَعنا كلمتهم
ميثاق، لا نتخذ عهودًا مكتوبة لنضمن الحقوق، يكفينا العهودُ
المزيلة بقسم الله، كما أخذتني بقسم الله، كنتُ كمعتقلٍ منحوه الحرية
بعد أن حُرِم منها لعهود عدّة، أتيتُ للقاهرة كي أنهي دراستي بكلية
الآداب فنهيتني يا إسماعيل، لم أدركُ أنَّ أهل المدينة معسولو الكلام
ناكثو الوعود، قليلو الشرف.

يصيحُ بها غاضبًا:

- قليلو الشرف! وماذا عنك يا ابنة الأشراف!؟ هل اغتصبْتِك؟
هل أرغمتُك على فعل ذلك يا سليلَةَ الحسب والنسب؟!
من وسط دموعها تردّد:

- لم تغتصبني ولم تُرغمني، ظاهريًا، لكنك اغتصبت قلبي
وأرغمت مشاعري على سلْك شراكك باسم الحب، علّتي أنني كنت
جاهلةً يا إسماعيل؛ فماذا كانت علَّتُك؟
ينظرُ في البعيد بجمود:

- فاطمة، لن يقودنا هذا الحديث لشيء، نهاية القول.. يجب

عليك نسياني تمامًا، فلا شيء بإمكانني فعله.

تصرخُ بتصرّع:

- بل يمكنك يا إسماعيل، لديك الكثير لتقدّمه لي، على الأقلّ تزوّجني كي تردّ إليّ شرفي المُهدر، ومن بعدها أنتَ في حلٍّ من رباطنا، افعلها.. ليس من أجلي؛ بل من أجل تلك النّبتة التي تنمو بأحشائي.
- كيفَ وأنا مُعدَم لا أجدُ ما يسدّ رمقي، وليس لي مأوى سوى تلك الأطلال الحُرْبة التي كنّا نتقابل أسفلها! آسف، لا يمكنني أن أحمّل نفسي بما يفوق استطاعتها، من الأفضل لكليّنا أن نتخلّصيّ ممّا ينمو بأحشائك وتنسيني، وتنسي أنّ القدر قد جمعنا يومًا.

- كيف أتخلّص منه يا إسماعيل وأنا وحدي، بلا أهل أو كتفٍ أستند عليه، دون ظلّ أتوارى خلفه حينما تحيط بي العيونُ اللائمة والألسنُ اللاعنة، كيف تخيّري ما بين الموت والموت يا إسماعيل!!
- قلتِ بنفسك أنّي ظلّ، والظلال من شأنها أن تحتفي ما إنّ تشتدّ العتمة؛ لذا أعذريني إن بدّدت وجودي تلك المحنة، كلّ ما أستطيع فعله هو أن أعرفك بقبالة الحيّ لدينا؛ فهي امرأةٌ مُحَنكة، وستجدين لديها حلاً يزيع ثقلك، ويمنع افتضاح أمرك.

- ماذا عن أهلي؟ كيف أفسّر لهم أنّ ابنتهم أصبحت امرأةً لا بكرًا؟
- تلك مُعضلتك، كان عليك التّفكير بها قبل أن تنساقني خلف

مشاعرك.

- سيسعون خلفك بعد أن يقضوا عليّ، لا شيء من شأنه حقن الدماء سوى زواجنا.

- تلك أوثانُ مخاوفك، تعبدي إليها وطوفي حولها ما شئت، لكنك لن تدفعيني أبداً للإيمان بها، خاصة وأنّ الحلول أمامك؛ لكنك تأبين ارتضاءها.

يلوذ بالصّمت لبرهة سانحاً للفراق أن يُعبّد الطريق بينهما، ثمّ أردف بعدها:

- لا تجعليني أراك مرةً أخرى.

أتبع كلماته مغادراً، تاركاً إيّاها ترتجف كورقة خريف. تركّض خلفه، تمسك بذراعه في محاولةٍ لإيقافه، تركعُ أمامه في ذلّ وانكسار:

- لا تتركني يا إسماعيل، حلفتك بالله ألاّ تخذلني، سأكون خادمةً تحت قدميك، فقط لا تجعلني أكابدُ مصيراً كهذا، بعدلك وبعدلِ العالم أجمع، كيف لك أن تفعل بي هذا وأنا التي كذّبت مبادئها من أجلك؟

ينفضّ ذراعه بقوة، ومن ثمّ يكمل طريقه تاركاً وراءه بقايا امرأةٍ تستعدّ لملاقاة الموت.....

منذ أن ذهب رحمة إلى غرفتها، وإسماعيل في رحلةٍ مُضنية

داخل خزائن الذاكرة العامرة، مئات الذكريات تنساب على عقله
كشريط سينمائي لا يتوقف!

هل قابلت الماضي يوماً؟ بوجهه الشاحب المتعب، بشبابه الرثة
ذات الرائحة العطنة، تعلو شفاهه ابتسامة متشفية مُتَشِيَّة، عيناه
لا تكفّ عن ثقبك بنظرة ذات مغزى، تخبرك أنّه ما جاء إلّا ليعكّر
صفوك ويسلب الراحة من أيامك، فيرتعش إثرها قلبك خوفاً،
وتتصبّب أفكارك جرّاءها رعباً! ومهما غضضت الطرف عن نواياه
المُستترة وغاليت في إكرامه وحسن ضيافته؛ لم يمنعه هذا من رصّدك
كشمس صيفٍ حارقة، وهجّها يلهبُ روحك، وسطوعها يكشفُ
خبايا نفسك، ولا يسعك أمام حرارتها سوى الاكتواء باستسلامٍ
تام! هكذا كان حال إسماعيل الذي ارتفع داخله صوتٌ مؤنّب:

«ابنتك زانية، إنّهُ ذنب فاطمة»

يبتلعُ ريقه بصعوبة، يحاول جاهداً أن ينفّض مخاوفه التي تعيث
بقلبه فساداً، يهزّ رأسه بقوةً مكذباً:

- ابنتي لن تفرّط في شرفها، لن تفعل بي هذا، ابنتي مجرد عاشقة.
صوتٌ كالفحيح يهمسُ بأذنه:

- لا تعتمد كثيراً على ثقتك بها، فالشيطانُ لاعبٌ محترف،
والوحدةُ ملعبةٌ، وابنتك وحيدةٌ منذ وفاة والدتها.
يصيحُ بغضب:

- لا.. لا يمكن أن يحدث هذا، ابنتي ليست زانية، ابنتي ليست كفاطمة، أنا لم أخطئ بحق فاطمة، فهي لم تكن ساذجة أو جاهلة، بل كانت فتاةً متعلّمة، ذات فكرٍ وإرادة، وإلاّ ما سمح لها أهلها بالسفر للدراسة ومواجهة العالم الخارجي وحدها.

ما زال صوتُ الفحيح يطنّ بعقله:

- ألم تكن فاطمة عاشقةً كابنتك؟ ألا يُسقى كلّ امرؤٍ بما سقى؟!
- أنا لم أقترف ذنباً، كنت واضحاً أمامها، لم أدّعي أنّي ذو نسبٍ وثروة، لم أرود قلبها عن نفسه، لم أعدّها بحياةٍ زوجية، أخبرتها بأنّي معدم، لكنّها أصرّت على المضي معي بطريق الحبّ، ما ذنبي إن كانت تصدّق أوهام العشق والنّهيات السعيدة؟ صحيح أنّ العشق حقّ مشروعٌ للقلوب، لكن عليه ألاّ يعمي أعيننا عن رؤية الحقائق.

- تلك هي زاويتك لرؤية الماضي، لكنّ للقدر أيضاً زاويته التي يرى بها الأمور، وعلى أساسها يحاسب البشر ويقتصّ منهم، إن كان ما تقوله صحيحاً فمِمّ أنت خائف؟!

ينهض بغضبٍ قلباً الطاولة التي أمامه رأساً على عقب، صارخاً بعزم ما فيه:

- اللّعة على النساء جميعاً، اللّعة على فاطمة، لم لا يرحل شبّح وجهها من أيامي؟

ينهي صراخه، وشيطانٌ أسود يتملّك فكره، فيسأل نفسه

بتشكّك: «هل فرّطت ابنتي في شرفها أم لا؟»
يضحك الصوتُ عاليًا، كعاهرةٍ ألقى على مسامعها مزحةٌ سيئة،
ثم ردّد منتشياً:

- وماذا ستفعل إن كانت الحقيقة ضدّك، قاسمةً لظهر شرفك،
ملطّخةً لاسمك؟

تنقشُ سحبُ الغضبِ بسماءِ عقله، فتسطعُ شمسُ التعقّل،
ليردّد بهلّج:

- ربّاه، ماذا سأفعل؟ هل سأرّميها بالطّرقات متنكّراً لها، أم
سأرضخُ لذاك الكلب؟

بدتِ التّساؤلات كلبّلابٍ زحفَ على عقله، فحجبَ عنه نورَ
الإدراك والفهم، شعورٌ بالعجز وقلةُ الحيلة لفّه فأسقطه على كرسيّه
مرّةً أخرى، صداغٌ يحتاج رأسه فيئنّ بيأس:
- لعنةُ الله على الخطايا التي تضعُ حياتنا أسفلَ مقصلةِ القدر!

عندما ذهبتُ رحمةً إلى غرفتها، ارتمت على الفراش محطّمة
الرّوح، مثقلةً بالخيبة والانهزام، فلم يترك لها والدّها حلاً آخر سوى
اللجوءِ لسالم والارتواء بأحضانه، أن تتدّلّ له مرّةً أخرى كي يقفَ
بجانبها، ليتفنّن في إذلالها كما فعل من قبلَ بتهرّبهِ منها ونكرانه
لما بينهما، لا شيء أسوأ من التدلّل لمن لا يبالي بتهشّمك ولا يهتمّ

بدمعك ولا يوخز قلبه أنينك.

«يا الله! لم لا أموت فأنتهي وينتهي معي ما أحمله بأحشائي؟ لم لا يمكنني اقتلاع قلبي فيموت سالم داخلي وأموت معه، وتنتهي قصتي؟ بل لم لا يموت أبي كما ماتت أمي منذ زمن وتركتني أحيًا معذبة محرومة من الحنان طيلة حياتي! ربّما حينها سأُخلّص من كهلٍ شبح لا يشعر بي ولا يهتم بمشاعري، وعليّ في النهاية أن أدعوه أبي، ربّما حينها قد تحلّ مُعضلتي»

هكذا ردّدت رحمةً بينها وبين نفسها، فهي تعي أن والدها يعمل كمحصّل لفواتير الكهرباء، لكنّها لا تعلم بأيّ قطاع يعمل.. وكم يبلغ راتبه؟! ولأنّها تدرك مدى بخله فهي على يقينٍ بأنه يمتلك مدّخراتٍ جيدة حصيلة عمله بالشركة طوال هذه السنوات، وفي حالة وفاته سترثه بالتأكيد، وعندها سيُمكنها الاقتراض بسالم حبّ حياتها وأبو النّبتة التي تنمو بأحشائها!

عند تلك اللحظة، وكأنّ شمسًا أضاءت سماء فكرها، ثمّة صوت هامس اقترّب من أذنها فضخّ بها سمّا:

- ولم لا؟

تنفّض رأسها بقوة علّ أفكارها تتبدّد، تتقلّب على جانبها ومعها تتقلّب آلامها، تضغط بالوسادة على أذنها ربّما تركها الصوت ورحل، لكنّ الصوت يسكنها حتى خيل إليها أنّه يبثّ من داخلها!

يعاود الهمسَ بصوتٍ مغوي، يعرض أمامها صورًا، وفاة والدها، الشّقة خالية، مدّخراته البنكية، مكافأة نهاية الخدمة، لا ورثة غيرها، تستمرّ الصور أمام عينها، بينما يردّد:

- تتسلّمين إرثك، سالم حبييك، فستان أبيض وزفاف، بضعة أشهر ويأتي المولود، السّعادة تكلّل ثلاثك، صورتكما في إطار ذهبي على هيئة قلب!

يُبترّ الصوتُ الهامس فجأة فتتبخّر الصور دفعةً واحدة، لكنّ عطر الأمانى مازال يراود روحها! تسكن الأشياء من حولها، ولا يبقى سوى صوت أنفاسها المتقطّع، كم هي شهية طيور الأمانى حينما تكون بهذه الرّوعة! إن كانت قادرةً على تحريرنا من قيودنا ومنحنّا أجنحةً نحلق بها في سماء السعادة.

تنفّض رأسها مرّة أخرى، تستغفر وتعوّذ، تردّد لنفسها بكذبٍ متكلف:

- لا يمكنني فعلها.

فيجاوبها الصوت الهامس:

- لكنّ غيرك يُمكنه فعلها!

تسأله بشكّ، والإجابة أمامها جليّة:

- مَنْ تقصد؟! سالم؟!

يضحك الصوتُ الهامس بغوايةٍ كشيطانٍ مختبئ بين تلايف مخّها:

- ولم لا! فسالم قادرٌ على سرقة العين من محجرها، وبيع النجوم
للساذجين على أنها لآلئ.
- لكنه ليس بقاتل.
يضحكُ الصوتُ عاليًا، ثم يجاوبها مستهزئًا:
- هل أنت واثقة! حسنًا.. الأمرُ لا يعني، كنتُ أحاول إيجادَ
انفراجةٍ لمأزقك، لكن يبقى القرارُ قرارك بالنهاية.
ينهي الصوتُ جملته ضاحكًا متشيا كشیطانٍ يستمتع بهدمِ
ثوابتِ عابدٍ زاهد.

الفصل الرابع

- السلام عليكم سيدي.
- وعليكم السلام ورحمة الله، كيف حالك رئيسة؟ هل جميعكم بخير؟
- بأحسن حالٍ والحمد لله، كيف الحال لديكم؟ اشتقت للنّجّع كثيرًا.
- مازال النّجّع على حاله، حينما تنتهي مهمّتكِ على خير، وتعودين إليه لن تجدي شيئاً ذا قيمة قد فاتك، أمّا حالي فهو ليس بالجد.
- كفى الله الشرّ عنك سيدي، ماذا حدث؟ يمكنك إخباري، لطالما كنت كاتمة أسرارك.
- كنت بمثابة أختٍ لي ومازلت، ولولا ما حدث بالماضي لكنت مثلك تمامًا، أحياناً بالبيت المجاور لك، لكنها أقدارٌ وعلينا تقبّلها.
- لا تهمني الصفات سيدي، كلّ ما يهمني هو البقاء بجوارك، والاعتناء بك كما وعدت والدتك رحمها الله.
- رحمها الله.
- تصمتُ لبرهة، ومن ثمّ تتنهد بأسى:
- صالح يا رئيسة غاضبٌ كقنبلةٍ موقوتة على وشك الانفجار، وتليد لا يكفّ عن الاصطدام بها، أخشى يوماً أن ينفجر بوجهنا

جميعاً ويدمر العائلة.

- سيدي، صالح ليس شاباً طائشاً ليفعل هذا، فأنا أثق كثيراً
برزانته، لكن ما الذي يغضبه لهذا الحد؟!

- تعلمين مَوَالٍ تليد المتكرر، والذي ما ترك مناسبةً إلا وأنشده،
جاعلاً منه وتدّاً يصلب عليه رجولة صالح، راجعاً إياه بسمّ كلماته
أمام الجميع، ما كان ليَجْرؤُ على فعل ذلك وعمّه على قيد الحياة،
صدق مَنْ قال (لا يعلو صوتُ الضباع إلا بموت السباع).

- فات الكثير ولم يبقَ سوى عام دراسي واحد، إلا يمكنه الصبر
قليلاً! من الجنون أن نحرق الحقلَ بعد أن أثمرَ الزرع ودنا حصاؤه،
حاولي أن تهدئي من روع سيدي صالح، ويأذن الله ستكون الأمور بخير.
- كم أتمنى ذلك حقاً.

تصمت برهة، ومن ثم تكملُ مستفسرة:

- ما الذي دفعك للاتّصال بي! هل زهرة بخير؟ هل هناك ما
ينقصكم؟

- في حقيقة الأمر لدي أمرٌ أودّ عرضه عليك.

- ما هو؟

تسحبُ رئيسة نفساً عميقاً، ومن ثم تجاوبها:

- هناك دكتور يُدعى راشد، يدرّس لزهرة مادّة التّحليل
الكيميائي، هذا الدّكتور سيقوم حفلُ خطبته الجمعة القادمة؛ لذا

وجّه الدّعوة لطلاب القسم الذي تنتمي إليه زهرة، وإن لم تذهب
قد يؤثّر ذلك على نتيّجتها بتلك المادّة.

- كيف ذلك!! ما دخلُ هذا بذاك؟

- الأمر لا يتعدّى كونه مجاملاتٍ ماديّة بصورة منمّقة.

- رشوة مقنّعة، أليس كذلك؟

- هو كما فهمتِ سيّدي، ما قولك؟

تتنهّد بعمق:

- لا بأس بذهابها، طالما أنّك و«بسيل» ستصحبانها.

- أنا وبسيل! كيف هذا؟! فكلانا لا يليقُ بأماكن كهذه، أخشى

أن نسبّب لها حرجاً.

- أن تصاب بالحرّج خيرٌ لها ولنا من أن تصاب بسوء لا قدر

الله، هذا هو شرطي الوحيد.

- ألا يكفي وجود بسيل بصحبته؟

تصيحُ بنفادٍ صبر:

- رئيسة، إمّا ثلاثتكما وإمّا لا شيء، ولا يهمني إن سقطت بتلك

المادّة أو غيرها، فأنا ماعدتُ أطيق كلّ هذا الضغط.

- حسناً سيّدي، سأخبرها بذلك.

- سأذهب الآن.

- الاتصال بالقاهرة كابينة رقم واحد.
- كان هذا صوتَ الموظف بمكتب الهاتف.
- تلتقطُ رئيسة سّاعة الهاتف فيصلها صوتُ فاطمة:
- رئيسة؟
- استلمت خطابك، ما بك؟
- وكانَّ صوت رئيسة أطلق دموعها الحبيسة، أخذت تبكي حتى ضاع صوتها بين نحييها.
- فاطمة، أنا لا أفهم شيئاً، فهلاً توقّفت لحظةً عن البكاء وأخبرتني ما بك؟
- ردّدت رئيسة بقلق.
- من وسط دموعها أجابت فاطمة:
- لقد فعلتُ شيئاً شنيعاً، لا أعرف كيف فعلتُ هذا؟ لا أعرف..
- قالتها، ومن ثمّ اختفى صوتها مرّة أخرى وسط صرخاتها المكتومة.
- اهدئي فاطمة، وأخبريني ماذا حدث حتى يمكنني مساعدتك!!
- ستركهيني وتلعيني.
- ربّما سأفعل، لكنّ بالنهاية سينتصرُ حبيّ لك، هيّا أخبريني.
- بصوتٍ مُذنبٍ ردّدت:
- أنا حامل.

- آسفة لم أنتبه، ماذا قلت؟!
بأنفاسٍ متقطعة أثر البكاء كرّرت:
- لقد أخطأت ونسيتُ من أنا، أحببت أحدهم، والآن أحمل طفله.
تعقد رئيسة حاجبيها باستنكار:
- أنت فاطمة؟ أهذه مزحة؟ ما الذي تقولينه؟
- أرجوك رئيسة ساعديني، أنا ضائعة ولا أعرف ماذا أفعل.
العالم يدورُ من حول رئيسة، تستندُ على الحائط متشبّثة بسماعة
الهاتف:

- ما تقولينه يُرعبني يا فاطمة، لكنني أستطيع أن أُميّز هزلك، أنت
تدّعين ذلك لتثيري الرّعب فيّ وأنا لا أصدّقك؛ لأنّ فاطمة لن تفعل
هذا بوالدتها، والدتها التي تحمّلت الصعاب وكابدت سنينَ عجافاً
لتصنع منها شيئاً، والدتها التي عابها أهل النّجع واستنكروا سماحها
لابنتها بالسفر لإكمال دراستها فتجاهلتهم ثقةً وفخراً، ابنتها التي لم
تشهد صمودها وبأسها حينما كانوا يصبّون المخاوف بقلبها صبّاً:

«أترسلين ابتك لطريق الضّلال يا أمّ يونس» فتجيبهم بيقين:
«بل الضّلالة بعقولكم الحربة»

فاطمة لن تحذلها إثر فورة عشق، لن تهدمها بمعول أنانيتها
هكذا.

يرتفعُ نشيج فاطمة مرّة أخرى:

- آسفة حقًا، آسفة.

تحتشدُ الدَّموعُ بعيني رئيسة، بينما يرتعشُ صوتها رهبة:

- أيّ أسفٍ هذا يا فاطمة، أيّ أسفٍ! كيف تفعلين بها هذا؟!!

وهي التي راهنتُ بحياتها عليك وحدك! ماذا عن يونس سيّد الرجال وزينة الشّباب؟! ألم يؤرّقك ظلّه المنكسر وأنت بأحضانٍ أخرى! ألم تترأى لك صورةٌ كتفه الفزع وهو يبحثُ عن رأسه مطوّلاً بينما تركلها أقدامُ أهلِ النّجع! ألم يؤثّبك ضميرك لكونك الحجارة التي هسّمت رجولته وجعلته مطيّة نظراتهم المهينة وتلمّزهم! ألم تنزفُ روحك وأنت تلحقين الدّنس باسمه؟! كيف طاوَعك قلبُك لتحاصريه ما بينَ جاهلية أفكارنا وتعاليم ديننا، وهو رجل الدّين الحاملُ لكتاب الله؟ كيف استحللتِ شرفَها هكذا يا فاطمة؟!

ماذا عني.. ألم تفكرّ بي وأنت تسقطين نفسك من عليائك؟!

كيف فعلتِ هذا وقد كنتِ بداخلي صرّخًا؟

- كفى يا رئيسة، كفى، كلمّا تُك تقتلني، وليتها تُميتني حقًا، والله

إنّ الانتحار لبيتسمُ لي منادياً لولا خشية أن ألاقى ربّي وأنا محمّلة بكلّ هذا الدّنس.

- يبقى الموتُ هينًا يا فاطمة، يبقى الموت هينًا إزاء فعلتك.

- أنا غارقة وليس لي أحدٌ ليتشلني سواك، بعد أن تحلّى عني

زوجي.

وكانَّ أملاً بزغ بسماٍ رئيسة فاضاء عتمةً روحها:

- هل تزوّجتما؟

- لقد أقسمَ أنّي زوجته أمام الله ورسوله، أليست العهودُ تعدّ

ميثاقاً يا رئيسة؟

تحتشدُ دموعُها قهراً:

- لمن يتّقي الله يا ابنة المدارس، لمن بقلبه شيء من الله.

- أخبريني رئيسة، ماذا عليّ أن أفعل وتلك النبتة تنمو

بأحشائي؟ أنا ضائعة وليس لي غيرك ألجأ إليه.

- لن أتخلّى عنك، لكنني لا أعلم حقّاً أيّ فعل يتوجّب، مثلك

أنا ضائعة، توقّف عقلي عن التفكير.

يخيّم الصمتُ عليهما لبرهة، فتقطعه فاطمة بصوتٍ باردٍ كآلة

معدنية:

- لن أعود للنّجع مرّة أخرى، لا تخبري أمّي بأمرٍ فيكفيها

عذابٌ فقدي.

- ماذا ستفعلين؟

- لا شيء، سأظلّ بدار الطّالبات حتى تتنفخَ بطني ويفتضح

أمرّي، وعندها سيطرّدونني منه، و ربما تتملّكني الشّجاعة قبلها

فأسلمَ جيدي للموت، سأذهبُ الآن، لا تكرهيني يا رئيسة،

وادّعي لي كثيراً.

كانت الدموع تنساب من عينيها إثر مباحثة إحدى الذكريات
لفكرها، ممّا دفعها لتمسح عينيها بطرف وشاحها وليتها تستطيع
مسح ذكرياتها التي تطمسُ الهناء من أيامها، ثمّة ذكريات لا يمكنكُ
الفرار منها، كالطود تظلّ مُنتصبةً بلغائف عقلك، لا تدكّها يد النسيان
ولا تحجبها غيومُ التناسي! الدائرة تضيق حولها، العاصفة تقترب،
تشعر بدنوّها، بالريح المغبرة التي تسبقها مُنذرة، بالاضطراب الذي
يصيب النفوس جرّاء دبيبها، الجميع في غفلة، ووحدها من عليه
التّصدي لها، الأيام بطيئة كئيبة تأبى التّرحيح كعادتها كلّما ترقّبتنا
حدوث أمرٍ طال فيه التّمني، الجميعُ يركض، يبحثُ عن مأوى،
يضعُ صغاره بين ساقيه خشيةً فقْدانهم، إلّا هي، فقد كتبتُ عليها أن
تقفَ بوجهها كي لا تُسرق منها أطفالها..

«يا الله، ماذا عليّ أن أفعل كي أكفر عن أفعالي الماضية!» هكذا
ردّدت لنفسها بينما ترفرفُ بعمق.

- تستطيعين إحراق النّجع بتهديدتك هذه!
تستيقظُ من أفكارها على صوت الشيخ - أو بالأحرى أخيها -
يونس الواقف أمامها!

كعادته يسدّد إليها نظراتٍ ثاقبة، تحمل عتاباً لا ينتهي.. والكثير
من اللوم، نظراته تخترق روحها فتجلدها بسياطِ الذّنب وكأنّها مُدّنبه

فَارَّةٌ مِنْ قَصَاصٍ لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تَحْيَا مَطْمَئِنَّةً هَانئةً!

تَقْطَعُ سَبِيلَ أَفْكَارِهَا مَرَحَّةً:

- أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ يَا شَيْخَ يُونُسَ، أَنْرَتْ مَجْلِسِي.

- كَيْفَ حَالُكَ يَا فَاطِمَةُ؟ وَكَيْفَ حَالُ ابْنَتِكَ؟

- بِخَيْرٍ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، فِي نِعْمَةٍ وَفَضْلٍ مِنَ اللَّهِ، تَفَضَّلْ.

يَتَّخِذُ مَقْعَدَهُ أَمَامَهَا مَتَكِّنًا عَلَى عَصَاهُ:

- آسَفُ إِنْ جِئْتُكَ بِلَا مَوْعِدٍ، لَكِنْ مَا بِالْيَدِ حِيلَةٌ، خَاصَّةً أَنْ

سَبَبَ مَجِيئِي لِدَارِكَ هُوَ وَلَدُكَ.

- وَلَدِي؟!

- جَاءَنِي الْأَمْسُ مَدَجَّجًا بِغَضَبٍ أَعْمَى وَقَدْ نَفَدْتُ مِنْهُ ذَخِيرَةً

الصَّبْرِ، وَلَا يُمْكِنُنِي لَوْمُهُ فِي ذَلِكَ أَوْ دَخْضُ مَخَافِهِ، الْمَاضِي لَا يَمُوتُ

يَا فَاطِمَةُ، أَشْبَاهُهُ تَتَرَصَّدُنَا، تَعْوِي كُلَّ لَيْلَةٍ بِفَضَاءٍ حَاضِرْنَا، تَنَادِي

عَلَيْنَا كَمَا تَنَادِي النَّدَاهَةُ مَنْ يَعْمَلُ بِالْبَحْرِ.

- خَاسِرٌ مَنْ يَنْظُرُ لِلْمَاضِي وَلَا يَنْتَبِهَ لِلْحَاضِرِ يَا شَيْخَ يُونُسَ،

أَعْتَقْدُ أَنَّكَ تَضَخَّمُ الْأَمْرَ.

يَهْزُ رَأْسَهُ بِأَسْفٍ:

- وَكَأَنَّ السَّنِينَ لَمْ تَغَيِّرْ فِيكَ شَيْئًا، مَازَلْتُ عَلَى غُرُورِكَ وَعِنَادِكَ،

مَازَلْتُ تَعْتَقِدِينَ أَنَّ الْحَيَاةَ سَتَحْتَضِنُكَ كَأَمِّ رَوْمٍ غَافِرَةٌ لَكَ الْأَخْطَاءَ

فِي كُلِّ مَرَّةٍ.

- ما الذي تلمّح إليه؟

يتنهد عميقًا، بينما يهزّ رأسه علامة اللّا أمل:

- الماضي ليس جذرًا خرّساء تنصتُ ولا تبوح، تشترب الأسرار
ولا تعيها! الماضي قنّاصٌ ماهر، بندقيته في تأهب دائم، ينتظر إشارة
الحاضر ليسدّد طلقاته نحو صدورنا بمُنتهى البراعة، بحقّ الله يا
فاطمة، ما الذي كنتِ تفكرين فيه وأنتِ تُرسلين ابتك إلى الجحيم
الذي عدت منه! ألم تتعلّمي شيئًا مما حدث بالماضي؟

تصيحُ فيه بغضب:

- وما شأنُ ابنتي بالماضي يا يونس، ألا يقول الحقّ في كتابه
الكريم (ولا تذرْ وازرةً وزرَ أخرى)

- ونعم بالله، لكن الحقّ يقول أيضًا (مَنْ يعمل سوءًا يجز به)
- إلّا الذين تابوا وأصلحوا يا شيخنا، الحمد لله الذي جعل
حسابنا بيده لا بيد البشر.

- الظلم ظلماتٌ يا فاطمة، وما فعلته أنتِ وأمّي كان ظلمًا فادحًا،
أخشى أن تضيعِ ابتك بما قدّمت يداك.

تشيحُ ببصرها عنه خشيةً أن ينفلت عقلُ دموعها، تجاوبه
بمرارة:

- أنا لم أظلم أحدًا، إلى متى ستّهمني وتؤنّبني على ما حدث؟
متى ستنظر لأختك الوحيدة بعين الشفقة وتعتبرها ضحية لا مجرمة؟

يبتلعُ غَصَّةَ تَكَوَّنَتْ بِحَلْقِهِ لِيَجِيئَهَا بِتَحَسَّرٍ:

- وَفِيمَ تَجْدِي نَظْرِي وَقَدْ أَحَالَنِي كَلَاكُمَا لِشَيْطَانٍ آخِرْس!
أَطَالُ فَعَلْتَكُمَا بَضْمِيرٍ مَكْبَلٍ، فَصَرْتُ مُنَافِقًا وَأَنَا الشَّيْخُ الْأَزْهَرِي
الْحَافِظُ لَكِتَابِ اللَّهِ، وَضَعْتُهَا كِرَامَتِي عَلَى الْمَحَكِّ، فَلَمْ يَكُنْ أَمَامِي
سِوَى اعْتِرَالِكُمْ وَخَسَارَةِ رِئِيسَةٍ.. حَبِّ حَيَاتِي مُشَارِكًا بِذَلِكَ فِي
الْجَرَمِ مَعَكُمْ.

يَبْتَرُ كَلِمَاتِهِ نَاهِضًا، وَمِنْ ثَمَّ يَكْمَلُ:

- فَلَيْسَا مَحْنَا اللَّهُ جَمِيعًا يَا فَاطِمَةَ.

مَا إِنْ أَنْهَى جُمْلَتَهُ حَتَّى وَلَّاهَا ظَهْرَهُ لِيَهْمَ بِالْمَغَادِرَةِ.

تَصْرُخُ بِانْفِعَالٍ وَقَدْ هَزَّتْهَا كَلِمَاتُهُ:

- اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ يَا شَيْخَنَا، اللَّهُ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبَةِ.

مَنْ دُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهَا، رَدَّدَ:

- اسْتَمْعِي لَصَوْتِ الْعَقْلِ، وَزَوْجِي ابْنَتُكَ وَارْتَا حِي وَرِيحِي

قُلُوبِنَا؛ لِنُظْمِنَ عَلَيْهَا أَوَّلًا، وَمِنْ ثَمَّ تَكْمَلُ تَعْلِيمَهَا.

أَنْهَى جُمْلَتَهُ غَالِقًا بَابَ الْمَجْلِسِ خَلْفَهُ، تَارِكًا وَرَاءَهُ حَرِيقًا يَعْتَمَلُ

بَصْدْرَهَا، وَدَمْعٌ مُحْتَشِدٌ بَعَيْنَهَا حَسْرَةً وَنَدَمًا وَخَزْيًا، فَكَمْ هُوَ مُؤَلِّمٌ أَنْ

نَرَى الْإِحْتِقَارَ بِأَعْيُنِ أَقْرَبِ الْأَشْخَاصِ لَنَا!

- هَلْ تَشْمُ رَائِحَةُ الشَّارُومَا هَذِهِ، إِنَّهَا تُثِيرُ جَمِيعَ غَرَائِزِي.

يتأفف سالم من شره مينا، وطلبه الدائم للطعام؛ فهو لا يتوقف
عن الأكل ما بين عربة طعام وأخرى:

- مينا، التتود التي معنا شارفت على النفاد، كما أن جميع
السرقاات التي نقوم بها عائدُها لا يستحقّ المخاطرة، ذهب صيني،
حافظات فارغة أغلبها صورُ شخصية وكأنّ الناس أصبحت تعاني
الفقر المدقع، حتّى الهواتف التي نسرّقها يبتاعها أصحابُ المحلات
بشمنٍ بخسٍ، وذلك ليقينهم أنّها مسروقة.

يتأفف مينا من كلماته:

- تبا، لقد قامت كلمّاك بالواجب وأفسدت شهيتي، هيا بنا
لمقهى السعادة ربما رزقنا الله بصيدٍ ثمينٍ وسهل، لكنني لن أنازل
عن شطيرتين من الفول والفلفل، فوحوش معدّي مازالت تزار،
ولا يُمكنني تجاهل صوتها.

طريقته الطفولية ونهمه اللا محدود دفعاً «سالم» للضحك:

- موافق، كيف لي أن أحرّمك وأنت جميع ما أملك بالعالم!

يلفّ مينا ذراعَه حول كتفِ سالم:

- وأنت أخي الذي لم تلده والدتي، وما كنت لأقايضك بالعالم.

ينفضّ ذراعَه من حول كتفه في خشونة:

- أصبحت عاطفياً يا مينا، لا تخبرني أن تلك جينات مريم

لأنني لن أصدّق.

يضحكُ مينا عاليًا:

- تعلم جيدًا أنها لو استمعت لحديثنا هذا لأطلقت نحونا لفظًا
جارحًا لرجولتنا.

بيادله سالم الضحك:

- معك حقّ، فأَمْ مينا ترسانةُ أسلحةٍ متنقّلةٍ بدايةً من لسانها
انتهاً بحذائها.

تبادلًا الضحكات، وأقدامُهما تسوقُهما للمقهى، ما إن جلسا إلى
طاولةٍ شاغرة، حتى ارتفعَ رنينُ هاتفِ سالم الشخصيّ، ينظرُ لشاشةِ
الهاتف فيطالعه اسمُ رحمة! يتنهدُ بضيق، ثمّ يخاطبُ مينا:
- اطلبْ لي كوبًا من الشاي ريثما ألقَى هذه الاتصال.

ينظرُ إليه بتساؤل:

- مَنْ؟

يجابوه بلا اكتراث:

- رحمة.. مَنْ غيرها!

قالها متّجهاً خارجَ المقهى كي يتسنّى له التحدّث بحرية، ومن
ثمّ ضغطَ زرَّ الموافقة:

- هل وافقَ والدك؟

- الناس تقول مرحبًا يا سالم.

- هذا في الطّروف العادية لا التي نحنُ بصددِها، هل وافقَ والدك؟

تصمتُ لبرهة، ومن ثمّ تجاوبه بصوتٍ لا روح فيه:

- لا، لم يوافق.

- حسنًا، هذه نهايةُ القول بتلك المسألة، لقد فعلت ما بوسعي لمساعدتك، لكنّها إرادةُ القدر؛ لذا سأغلقُ الهاتف الآن متمنيًا لك السلامة، شريطة أن يمضي كلّ منّا بطريقه دون أن يعترض طريق الآخر.

تصيحُ بلهفة:

- انتظر يا سالم، اتّخلى عني بهذه السهولة؟

- وماذا عليّ أن أفعل بعد أن تخلى عنك أقربُ الناس إليك؟!

- لم يبقَ لي سواك.

- لم يبقَ لك أحد.

تعاوّد الصّمت مرّة أخرى، فيدفعه صمتُها لإنهاء المكالمة:

- إلى اللقاء.

تصرخُ بلوعة:

- انتظر، يمكننا أن نجد حلًّا لمعضلتنا.

- معضلتك وحدك.. تذكري ذلك، وأنا أحاول أن أجِد لك

مخرجًا، لكنّ جميع الطرق مغلقة أمامنا، لذا إن كان لديك واحدٌ تفضّلي وأخبريني.

باضطرابٍ تردّد:

- تعلم أنّي وريثة أبي الوحيدة إذ لا أقارب لنا.
 بعدم فهم سألها:
- وما الذي يعنيه هذا؟
- لا شيء، فقط أخبرك بأن لا ورثة لأبي سواي، وكل ما يملكه
 هو سيؤول إليّ بعد وفاته.
- وهل ما في أحشائك سيتنظر حتى حدوث ذلك؟ حقاً لا أفهمك.
- لا لن ينتظر، لكن الموت يتخطّف الأشخاص بكل لحظة ولا
 أحد فوق هيئته.
- كلماتها ترسم بمخيلته أفكاراً بعينها، حديثها المستتر تحت راية
 الانكسار يدفعه لطريق يعرفه جيداً؛ لذا كان عليه أن يوقف تدافع
 أفكاره التي صارت تتعاضم وتنمو كدخان قبله نووية:
- ما الذي تلمّحين إليه يا رحمة؟ أتمنّي الموت لو الدك؟
- على الأقلّ سأنتهي من تحجّر مشاعره وجمود فكره، وتُحلّ
 مُعضلتي، حقاً ليت الموت يزوره قريباً.
- وما الذي لديه ليورثك إياه!
- قالها مستهزئاً.
- معاشه، إلى جانب أمواله التي يدّخرها لأعوام جرّاء بخله
 معي، فهو يعمل محصّلاً بشركة الكهرباء، ولا بدّ أنه يتقاضى راتباً
 كبيراً كحال من يعمل بهذا القطاع.

- ألا تعلمين أنّ المعاش المزعوم هذا سينقطعُ عنك إن تزوّجت أنت.
- لكنّ مكافأة نهاية الخدمة ستكون من نصيبي وحدي وهي ليست بالهيّئة، كما أنّ هذا الأمر لا يقلقني لأنني واثقةٌ أنّ لكلّ مُعضلة حلاً لكن بوقتها، أمّا الآن فنحن نتحدّث عن فرضيّة موت أبي، والتي أتمنّى أن تتحوّل لحقيقة.

- إنّ كنتِ تتوهمين أنّني ذاك الشخص الذي سيحقّق أفكارك الشاذّة هذه، فأنت مجنونةٌ بلا شكّ، ولا شيء آخر لدي لأضيفه في هذه المحادثة الجنونية الخالية من الادمية، أتمنّى ألا أراك مجدداً.
تصرخُ بأسى:

- سالم، أنا أحاولُ إيجاد حلّ لنا فإذا بكِ تتركيني هكذا؟
- لا تهاتفيني مرّة أخرى رجاءً.
أنهى جملته مطفئاً الهاتف عن طريق زرّ إيقاف التّشغيل كي لا تتّصل به مرّة أخرى، ثمّ عاد إلى الطّاولة حيث يجلس مينا.

بعد أن ابتعد سالم ليحيب اتّصاله، جلس مينا يفكّر بحاله، وكيف جمعتّه الحياة بسالم، فهما أصدقاء منذ أن وعيا معنى الصّداقة، دائماً معاً ككيانٍ واحد، سواء في حروبهما الضّارية أمام الفقر والعوز، أو في تمرّدهما وعدم استكانتهما أمام الرّكّلات التي ما فتئت الحياة تسديدها بمهارةٍ منقطعة النظير، كان مينا وحيداً والدته بينما كان

سالم ثمرةً سقطت من العدم، مجهول الهوية والنسب وكأنّ شوارع الحارة انبثقت عنه في غفلةٍ من أهلها!

ومينا.. كأيّ طفلٍ وحيد، يفتقرُ الى قبيلة من الإخوة تهبّ للدّفاع عنه أمام بطش الآخرين به، عاش طفولته كأيّ مسيحي يركنُ إلى الاستكانة واتّخاذ طريق الصّمت أمام الإهانة، هكذا علّموه بالكنيسة، الصمت هو الحلّ، حتى في مسائل الزّواج العالقة، والتي كان ضحيّتها هو ووالدته، لم يقدّموا له سوى جُملةٍ فارغة «صليبك وعليك حمّله للنّهاية» لذا تعلّم تقبّل صنوف الإساءة بصدرٍ رحب، دون شجبٍ أو إبداء معارضة، كان ذلك قبل ظهورِ سالم، ذاك الفتى الذي يزيدُ عنه بعشر كيلوجرامات من الرّجولة والعضلات المنتشرة بطول جسده في تناسقٍ مثالي، أوّل من علّمه الصّمود والمقاومة، كان بداية تعارفهما عراكَ غير متكافئ، ما بين مينا فتى يكبره ببضعة أعوام، كعادته استقبلَ لكمة الفتى التي سدّدت لوجهه بافتراش الأرض رغبةً في إنهاء الصراع بوضع لكّمت، أو ربّما يحالفه الحظّ فينتهي بوابلٍ من الشّتائم دون المزيد من الأذى الجسدي، لكن سالم الذي تجنّبه مينا طوال الوقت كدأب أهل الحارة، وكأنّه ورقة قمامة قدرة مُلقاة بالطريق لكنّها تمتلك تقاسيم تشبههم؛ مدّ إليه يده لينهضه، بينما وقف بجانبه صائحًا «يمكنك أن تظلّ أرضًا فيدعسوك بأقدامهم، أو تكون كالأشجار فتموت منتصبًا!»

لن ينسى مينا- أبداً- نظرة القوة التي كحلت عينيه حينها، ولا صموده الصّاري أمام لكمات الفتى، حتى تملكه الإنهاك بالنهاية ليتركه رامياً إياه بأفطع الشتائم، منذ ذاك اليوم وكلّما هدّته الحياة تذكّر صمود سالم وعزيمته فيواجه الدنيا بقلب لا يخشى المخاطر، أحياناً يتمنى لو كان مثله؛ وسيماً، ذا جسد رياضي، تفتنُّ به الفتيات، بل أحياناً يتمنى لو كان لديه علاقة عاطفية كالتي جمعت «سالم» برحمة، بذلك التمسك والملاحقة من جانبها، ولا يعني هذا أنّه يشعر بالغيرة نحوه، فقط يجعله هذا الأمر ناقماً على ديانتته، فهو مسيحي كاثوليكي، مكبل بطائفته، وبأنّ زواجه لا يتمّ إلّا من يدينون بها، إضافةً الى أنّ أفراد مجتمعهم يعرفون بعضهم جيّداً، والفتيات المسيحيّات ذوات أنوفٍ تناطح السحاب.. لا يرضين الفئات كسائر الفتيات في أيّامنا هذه، لذا لن ترتضي واحدةً منهنّ فقره وعوزّه، ليته استطاع إيقاع إحداهنّ بشراكه كما فعل سالم، لكن كيف يمكنه ذلك بملاحه الحادّة وجسده الذي يشبه جسد إنسان الغاب قبل التّطور!

- فيمَ شردت؟

كان هذا «سالم»، قاطعاً انهمار أفكار مينا:

- لا شيء، هل من أخبار جديدة؟

- لم يوافق والدها كما توقّعت.

كان سالم يتكلّم بتباعد كأنّ حرباً تدور بداخله، ممّا دفع مينا

للتفرّس بملاحمه علّه يفهم شيئاً، لكنّ صمت سالم استمرّ بينها علت
جيبه تقطية، ممّا أثار حيرة مينا:

- ما الذي يشغل بالكَ هكذا؟ منذ متى تخفي أموركَ عني؟
- فكرةٌ تختمر بعقلي، مخاطرةٌ قد تصبح جنّة نعيم أو تنقلبُ
لجحيمٍ يحرقنا.

- لم تتكلّم بمواربة؟ لم لا تطرح فكرتك أمامي لأتمكّن من
قراءتها وفهم تلك الطلاسم التي تتفوّه بها.
ينهض سالم:

- لا يمكننا التحدّث هنا؛ لنذهب إلى منزلك فلا مكان آمنٌ سواه.
- وماذا عن المشروبات؟

يُخرجُ سالم من جيبه بضعة جنيهاً يضعها فوق الطاولة:
- لا يهمّ سنعوّضها لاحقاً، هيّا.

يستقيم مينا بدوره فينضمّ إليه، يمضيا والصمتُ ثالثهما، بينما
تنشبُ مخالب القلق بصدّره، فعندما يركنُ سالم للصّمت، هذا يعني
أنّ هناك أمراً جليلاً.

الفصل الخامس

- وبنهاية محاضرة اليوم، أكونُ انتهيت من تدريس آخر محاضرة من المادة، وهذا يعني أن الفصل الأول من العام الدراسي قد شارف على الانتهاء، وأن الامتحانات تدقُّ الأجراس معلنةً قدومها، أرجو التركيز على ما تمّ دراسته بالمحاضرات جيدًا، وأيّ استفسار أنا متواجد دائمًا، أتمنى لكم التوفيق.

قالها دكتور راشد وهو يجمعُ أغراضه بحقيقته السامسونيت الأنيقة، وقبل أن يغادر الطلاب أماكنهم، أردف:

- أكرّر دعوتكم لحفلٍ خطبتي يوم الجمعة القادم، أيّ بعد غدٍ إن شاء الله، سيسعدني تواجدكم ولتكنْ هي حفلة الوداع لهذا الفصل الدراسي.

أنهى جملته هامًا بمغادرة القاعة وسط مباركات الطلبة.

تلفت عير إلى زهرة سائلة:

- هل تمت الموافقة على ذهابك للحفل؟

تنهّد زهرة في ضيق:

- بلى، تمت الموافقة.

- إذًا، ما الذي يضايقك إلى هذا الحد؟
- وافقت والدتي على ذهابي للحفل، شريطة أن تصحبني أمّ بسيل وابنها.

تصيحُ عبير باستنكار:
- ماذا!! لا بدّ وأنتك تمزحين؟
تحتضنُ زهرة كتبها معلقة حقيبتها على كتفها استعدادًا لمغادرة المدرج:

- هل توحى لك ملاحي بالمزاح؟
- كان الله بعونك يا ابنة الأكابر.
تتنهّد بعمق، ثمّ تعلو عينيها نظرةً حاملة:
- لكن انظري للجانب المشرق من الأمر، أخيرًا سيجمعني القدرُ بأمّ سريع وتنهأ عيني برؤيتها، هل ابنها سريع وسيّم؟ أخشى أن أسقط صريعة طولهِ الفارع وعضلاته القوية، أخاف أن تأسرني عيناه اللوزية وابتسامته التي تضيء كشمسٍ مشرقة.
- عبير!! أولاً اسمها أمّ بسيل، واحفظي الاسمَ جيدًا كي لا تخطئيه أُمّامها، ثانيًا مَنْ كنتِ تصفين؟ بسيل! أجنونة أنت؟

تضيقُ عبير ما بين عينيها:
- حقودة ولن تتغيّري، أتبخلين عليّ بسيل؟
جديتها المزعومة تثير ضحك زهرة:

- ولم أبخلُ به؟ حلالٌ عليك، بالمناسبة هو ينتظرني خارج الجامعة، يمكنك الذهاب معنا للمنزل وخطبته من والدته.

تنظرُ إليها باستنكارٍ وجدية:

- ساحكُ الله يا زهرة، أتريدين لحماي المستقبلية أن تظنَّ بأنني عانس معيوبة؟ لا بدَّ وأن يأتي بسيلٍ إليَّ زاحفًا ومعه والدته لخطبتي، وإلا لن أوافق عليه أبدًا.

تضعُ زهرة يدها فوق ثغرها لتكتم صوتَ ضحكاتها:

- وكأنَّه يعرفك؟ صدقًا لوهلةٍ ظننتُ الأمرَ جدًّا.

تضحكُ عبير وهي تشابك ذراعها بذراع زهرة:

- اضحكي يا صديقتي العَبوس، فقد تشقَّ وجهك من كثرة التَّجهم.

- هيا لنذهب؛ فقد غادر الجميع ولم يبقَ سوانا.

ردّدت زهرة وهي تجرّ «عبير» وراءها، بينما تتبعهما ضحكاتها.

حينما أصبحتا أمام باب الجامعة، سألتها عبير:

- هل جهّزت الملابس التي سترتدينها بالحفل، أم أنّك ستبتاعين

واحدةً جديدة.

تجاوبها زهرة بلا اكتراث:

- سأنتقي أحدَ ملابسي، فجميعُها تفي بالغرض.

تتوقّف عبير عن السير فجأة صائحةً باستنكار:

- ملابسك! أيّ ملابس تقصدين؟ أتقصدين التي ترتدينها

بالجامعة فتعطيك أضعافَ عمرِكَ، والتي لا أجْدُ لها توصيفًا محدّدًا؛
نظرًا لتأرّجُحها ما بين العبادة والرّداء، وكأنّها ملابسٌ والدتك؟! -
ساحكُ الله يا عبير، ألهذه الدّرجة تثير اشمئزازك ملابسي؟
بالنّهاية الغرضُ من الملبس السّترُ لا التّباهي واستعراض تفاصيل
الجسد، هذه هي قناعتِي.

تعودُ عبير لمشابكة ذراعها بذراع زهرة مستأنفة السّير:
- لا تسيئي فهمَ كلماتي رجاء، فأنت حقًّا فائقةُ الجمال، وكأنّ
أرض الصّعيد قد صبغتُك بخيرها، لكنّك تخفين جمالكَ خلفَ هذه
الملابس، وكأنّه جرمٌ وجبَ عليك مدارأته، وهذه فرصةٌ قد لا تتكرّر
بحياتك لقضاء سهرةٍ رائعة، خاصّة وأنّ حياتك ستكون محاصرةً
بين رحي النّجع، فلمَ لا نستغلّ الفرصة ونجعلها ذكرى مميّزة؟
- وما الفائدةُ طالما كانت النتيجة واحدة؟ فالذكريات الجميلة
مع واقعٍ أليمٍ قد تجلبُ لنا المزيدَ من الأسي.
كانا قد وصّلا لبوّابة الجامعة؛ ممّا جعل «عبير» تتوقّف ناظرةً
إليها بإصرار:

- وقد تكون قطرةُ الماء التي تطفئ ظمأً واقعنا القاحل، فكّري
في الأمر رجاءً، لن نخسري شيئًا.
تزرّفُ زهرة نفسًا عميقًا:
- ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، أراك لاحقًا.

- إلى اللقاء.

قالتُها عَبر، بينما أنظارها تشيع زهرة التي ولَّتْها ظهرَها، ممَّا
دفعها للصَّباح:

- اعتني جيّدًا بفارسي الوسيم حتى أقابله بالحفل.
تلفتُ إليها زهرة ضاحكةً وهي تهزّ رأسها يمينًا ويسارًا، وكأنَّها
تقول «لا فائدة منك».

من بعيد، كان هناك شابٌّ يتابع المشهدَ بهدوء، وعندما افترقتِ
الفتاتان وسارت كلّ واحدةٍ بطريقٍ أخذ يتتبّع إحداهنّ دون أن
تلاحظه.

يقطع الغرفةَ جيئةً وذهابًا، يصيح بانفعال:
- ما تقوله هذا ضربٌ من الجنون، أحقًّا رحمةً تحرّضك على قتل
والدها؟ مَنْ تظنّك هذه المجنونة ابنة المجانين؟
يستندُ برأسه على ظهر كرسيّه، يجاوبه بلا مبالاة:
- هي لم تصرّح، لكنّ كلماتها توحى بذلك.
يتوقّف مينا عن حركته، يقترب منه محدّدًا:
- منذُ هذه اللحظة، عليك قطعُ صلتك بتلك الفتاة، فنحنُ لا
نعلم أيّ شَرِك قد توقّعك به هذه المأفونة.
- هكذا أخبرتها في نهاية المكالمة.

ينظرُ إليه بحيرة:

- تبدو غريباً بهدوئك هذا، وكأنّني لا أعرفك!

يرفع كتفيه بلا اكتراث:

- وما الذي يتعيّن عليّ فعله؟

هذا الهدوء، هذه الاستكانة أعرفُهما جيّداً، لم لا تخبرني بتلك

الفكرة التي يحتضنها عقلُك كما يحتضن الرّحمُ الجنين!

يغمضُ سالم عينيه، وابتسامةٌ تعلو وجهه:

- صبراً يا مينا، «الطويل الأناة يصبرُ إلى حينٍ ثمّ يعاوده السرور».⁽¹⁾

يتسمّم بسخرية:

- آمين أبتاه؟

أنهى جملته مشابكاً ذراعيه أمام صدره، ثمّ أكمل:

- أصبحت تحفظ أسفارنا، تخفي عني أفكارك، وماذا بعد؟

فتح عينيه ناظراً لمينا الحانق:

- اهداً قليلاً، الفكرة مازالت تحتمرُّ بعقلي، وعندما تكتملُ

سألفظها أمامك.

- ولم ليس الآن؟

- كي أشاهدك وأنت تبتزّ أجنحةَ أحلامي دفعةً واحدة كدأبك،

تقوم باقتصاصها ببطء ممّا يحبط همّتي، صراحةً لا أستطيع التفكير

(1) «سفر يشوع بن سيراخ».

وسط اتهامك الدائم لي بالجنون، بالرغم من أنك لا تقلّ جنونًا، لكن كلّ إنسان يغفلُ عن رؤية مساوئه.

- حسنًا يا سالم، سأدعُك وشأنك هذه المرّة، تعلم مكاني متى احتجّجتني.

- أتعلم! بحنقك هذا تشبهُ زوجةً أخفى عنها زوجها كم يتقاضى أجرًا.
متهكّمًا ردّد.

- فقط أخشى أن تُقدّم على ارتكابِ مصيبةٍ ما، ولا أكون شريكك في الفعل.

يضعُ سالم يده على قلبه بتأثّر:

- آه، أوجعت قلبي، وأنا الذي تخيلتك تخشى عليّ من تبعات أفعالي!
يقترّبُ مينا مسدّدًا قبضته إلى صدر سالم:

- تعلمُ ما أعنيه، فلا داعي ليليّ عنقِ الكلمات، منّ منّا الآن الذي يشبه الزّوجة النكداء؟

يرفعُ سالم يديه أمام صدره ليتفادى ضرباته ضاحكًا:

- حسنًا.. حسنًا، فهمتك، توقّف عن ضربتي، أخشى أن يخرقَ قالبُ الطّوب هذا قفصي الصدري.

يتراجعُ مينا شامتًا:

- مخنّث.

ترتفعُ ضحكاتُ سالم:

- عيبٌ عليك، هذا الاتِّهامُ سيمسُّك مباشرة إذ لا يوجد غيرُك في دائرتي.

يقترُبُ مينا منه مرّةً أخرى مهدّداً بقبضته، ممّا دفع «سالم» لرفع ذراعيه علامةً الاستسلام:

- حسنًا، أسحبُ كلماتي.

كلماته توقف اندفاع مينا الذي سأله مستفسرًا:

- والآن، ماذا يا علامةَ عصرك؟

ينهضُ سالم من فوق كرسيّه مجاوبًا:

- سنكتفي بالمراقبة.

بعدم فهم ردّد:

- مراقبة! سنراقبُ مَنْ؟

يمسك سالم بذراعه جازًا إيّاه خارجَ الغرفة مجيبًا:

- ستعرفُ حينما نذهب، هيّا.

ما زالت لا تصدّق أنّ «سالم» أنهى المكالمة بعد أن عنّفها على أفكارها! لا تعلم لم يدّعي العفّة ونبل الأخلاق! أمّن النبل أن يتركها تجابه مصيرها وحدها بعد أن أفرغ بها شهوته! أين كان ضميرُه حينما أغواها برداءِ العشق، واحتواها بأحضان الاتِّهام الرّائف! عاودت

الاتّصال به مرّة أخرى.. ثانية.. وثالثة، وفي كلّ مرّة تسمع الصوت المميّز للرّسالة المسجّلة، والتي تخبرها بأنّ الهاتف مغلق، لدرجة أنّها كرهت صوتها، وكرهت الهوائيّ والمساويف والأعراف التي تفصلنا عن أحبّائنا، فبالرغم من دناءة سالم معها، إلّا أنّها مازلت تحبّه، وعلى استعدادٍ أن تضحيّ بالعالم من أجل أن يتزوّجها، واحتفاظها بالجنين ما هو إلّا خيطٌ رفيعٌ يصلها به وقيّده بها، وكم تتمنّى أن تزداد الخيوط التي تربطها معاً! قد ترونها فتاةً مجنونة، طائشة، لا تدركُ حجمَ المصيبة التي أوقعت نفسها بشركها، انعتوها بما تشاءون لكنّ «سالم» ملكها ولن تتنازل عنه، حتّى وإن كان ذلك رغم إرادته؛ فهي ليست دميةً للهو أو علكةً يلوّكها حتى ينتهي عسلها ويتمرّر طعمها فيلقها أرضاً ويدهسها بحذاءه!

أخذت تقطع حجرتها جيئةً وذهاباً، تمسك بهاتفها فتعاودُ الاتّصال به للمرّة التي ما عادت تحصي عددها، مازالت الرّسالة الصوتية السّمجّة تتحدّثها، ترمي الهاتف فوق سريرها، ومن ثمّ تفتح خزانتها فتنتقي منها ثوباً منقوشاً بالورود، وروءٍ تراها ذابلاً كروحها، تحكم حجابها، ومن ثمّ تنظر لنفسها بالمرآة مقيّمة، تنتهي فتهمّ بالمغادرة، تفتح الباب فلا يتجاوب معها! تحاول معه مرّات عدّة، لكنّ دون استجابة وكأنّه موصدٌّ من الخارج، تطرق بقبضتها على الباب مُناديةً والدها، تصرخ عالياً:

- أبي، افتح لي أرجوك.

تقربُ منها خطواتٌ ثقيلة، يصلها صوتٌ والدها من الخارج:

- من الآن ستحدّد إقامتك في هذا المنزل، لا مزيد من زياراتِ

الاصديقات أو الخروج معهنّ، سأسحب منك الهاتف، ولن يكون

لديك مفتاح للشقة، كي لا تسوّ لك نفسك الخروج متى يحلو لك،

وإن شئت الخروج الآن فلن أمنعك، لكنّه سيكون رحيلاً بلا عودة.

تصرخُ يئأس:

- لكنّك تظلمني كثيرًا، أتسجنني كمن ارتكبتُ فحشًا لأنّ

شابًا ما تقدّم لي؟

- لا تدّعي البراءة؛ فأنا لم أتيقن من طهارتك بعد.

- ما الذي تقصده؟

- ستعلمين ما أقصده في حينها، وحتى يحدث ذلك ستبقين

بغرفتك.

تطرقُ البابَ بكلّ قوّتها صارخة:

- لا تفعل بي ذلك أبي، أنا لا أستحقّ منك هذا، أرجوك.

تبتعدُ الخطوات، بينما يخرّ جسدها أرضًا، وترقدُ روحها بقاع

الانهزام واليأس.

- صباح الخير أستاذ إسماعيل.

كانت هذه الأستاذة عنايات، التالية لإسماعيل في صفّ
الإمضاءات، يلتفتُ إليها بابتسامةٍ باهتة، ثمّ يردّ إليها التّحية وهو
يهمّ بالمغادرة:

- صباحك سعادة أستاذة عنايات.

تعرّضّ عنايات طريقَ المرور بجسدها:

- مهلاً رجاء! أودّ الاعتذار عن تصرّفاي بآخر لقاءٍ بيننا، فقد
كانت الضغوطُ كبيرةً عليّ، وللأسف كنت أنت ضحيّتها.

ينظرُ للعيون المتابعة لحديثها فيجاوبها بتعجّل:

- لم يحدث شيء، نحنُ إخوة قبل أن نكون زملاء.

ترميه بنظرات مغتاظة، تصيحُ مُستنكرة:

- إخوة! ليس لي إخوة يا إسماعيل، وإن شئت اتّخاذ واحداً فلنْ

تكون أحدهم.

أنهتْ جملتها وهي تقتربُ منه بوجهها الملطّخ بحمرة قانية،
وكأَنَّها قد التهمتْ أحدهم للتوّ:

- أنت مميّز عنهم يا إسماعيل، وتحظى بمكانةٍ خاصّة لدي.

يتملّل في وقفته، يعدل من وضع حقيته على كتفه، علّها تتفهّم
ضيقه من تلك المحادثة، ورغبته في الرّحيل فتفسح له الطريقَ للمرور:

- هذا من كرم أخلاقك أستاذة عنايات، والآن أستاذُك فلديّ

عملٌ لألحق به.

- وهل سيطرُ العمل؟ لا داعي لإزعاج المواطنين صباحًا بالدق على أبوابهم.

بترت كلماتها، ثم دنت منه دون اكتراثٍ للأعين التي تحاصرهما، حتى لم يعد بينهما مجالٌ سوى أنفاسهما، ثم أردفت:

- حماتك القادمة تحبّك كثيرًا، فأنا اليوم أعددتُ شطائر البسطومة والجبْن الشيدر، ستلتهمُ أصابعك وراءها. بغيظٍ ردّد:

- لم أقابل حماتي السابقة قبلاً، ولم أهنأ بطعامها يوماً، فقد كانت متوفاةً حينما تزوّجتُ ابنتها، ولا نيةً لديّ للزّواج مرّةً أخرى كي أمتلك واحدةً بالمستقبل، أمّا عن الشّطائر فهنيئاً لك بها، وأتمنّى أن نكتفي بهذا القدر من الحديث حتى نفسح المجال لبقية الزملاء ليقوموا بتوقيع الحضور.

تصيحُ بغضب:

- وهل أنا من يوقفك أو يعترض طريقَ زملاء!

أنهتْ جملتها مخاطبةً الجمع حولها:

- إنّه هو من يعترض طريقي، ويتحجّن الفرص للتحدّث معي.

تعصّرُ عينها في بحثٍ مضنٍ عن دمع، ثم تكمل:

- هل لأنني طيبة القلب، مراعيةً لمشاعر الآخرين؛ يتّهمني

بأتّهامٍ باطل كهذا؟

دمعُها المتكَلِّف يدفع العيونَ المحيطة لمحاصرة إسماعيل بنظراتِ
الاتِّهام، أحد الرجال يتقدَّم منها متلبِّساً رجولةً زائفة، فيربُّتُ على كتفِها:
- هُدَّئي من رُوعك أنسة عنايات، نحن نعلمُ مدى طيبتك
وأخلاقك العظيمة.

ينهي كلماته موجَّهاً حديثه لإسماعيل:
- وأنتَ يا أستاذ إسماعيل، هَلَّا تکرَّمت بالذهاب إلى عملك،
يكفيك تعطيلاً للصفِّ الواقف خلفك.

يجزَّ إسماعيل على أسنانه غيظاً، فلا طاقةً له بالتحدُّث مع
أحدهم، ما بالك بالردِّ على ذاك المخنث؛ لذا شقَّ طريقه مغادراً،
دافعاً بطريقه عنايات، ودموعُها الزائفة، وذاك المهرِّج الذي قرَّر
استغلال الحدث ليظهر بصورة الرجل الشَّهم، ولسانُ حاله يلعنهم
جميعاً، ويلعنُ رحمةَ ابنته معهم، فمنذُ آخر حديثٍ لهما ووحشٌ جائعٌ
ينشبُ مخالِّبه بصدرة، يلوکُ عقله بنهم، ويشوي قلبه بنارِ الشَّك،
ثمَّة هاجس يدفعه لعرضها على مختصٍّ للوقوف على حقيقة الأمر
وإلا سيجنَّ حتماً، وليشهد الله أنَّه سيزوِّجها لذلك البائس إن كانت
طاهرةً ولم تدنَّس، أمَّا إن كانت خلاف ذلك....

يرتفعُ الصوتُ الهامس، فيوقف استرسال أفكاره، ويفقدُها
منطقيَّتها:

- ماذا؟!!

يلوذ بالصّمت، بينما يغمض عينيه؛ علّ ذلك الصوت يختفي،
لكنّه يستمرّ في إمطاره بالأسئلة:

- ما الذي ستفعله يا إسماعيل؟! ستطهر دنسها بدمائها؟
ستوافق على زواجها من ذاك النذل وأنت في غاية الامتنان لأنّه
ارتضى إصلاح خطئها!!؟ هل سترّمها بأحد الأغشية الصّينية التي
اجتاحت الأسواق مؤخّراً ومن ثمّ تزوّجها لآخر؟ ما الذي ستفعله
يا إسماعيل؟

ينهي الصوت أسئلته بضحكاتٍ ساخرة تتردّد بعقل إسماعيل،
وتدفعه لإسراع خطاه كمن تلبّسته الشياطين!

أمّام بوابة شركة شمال القاهرة للكهرباء فرع النّزهة، وقف
شابٌ وسيم يرتدي قميصاً أزرق وبنطالاً كريمي اللون، يضعُ
نظارات شمسية فوق عينيه، يسأل أحد رجال الأمن الجالسين أمام
مدخل الشركة:

- السّلام عليكم، هل يمكنك أن تدلّني أين يوجد مكتب
الأستاذ إسماعيل جاد الشناوي.
ينظرُ إليه رجلُ الأمن مقيماً:
- وعليكم، من يسأل عنه؟
يتنحّج الشاب، وترسم على وجهه ابتسامةٌ خجلى:

- تستطيع أن تقول عريسٌ يبحث عن زوجة مناسبة، والأستاذ
إسماعيل لديه ابنة رائعة الجمال، وبالسؤال عنه أخبرني أهل الخير،
أمثالك، أنه يعمل هنا؛ لذا جئت لأتحدث إليه قبل طرق باب المنزل.
تنفرج أسارير رجل الأمن، وتزداد حفاوته بالشاب:

- إسماعيل.. رجل طيب، بالرغم من تكتمه الشديد حول
حياته، نعم.. لديه ابنة لكنني لم أقابلها يوماً، لا أحد يعلم.. ربّما
تكون رائعة الجمال حقاً!
يتنهد بعمق مردفاً:

- أمّا عن إسماعيل، فهو لا يعمل داخل مبنى الشركة، صحيح
أنه أحد العاملين بها، لكن عمله بتحصيل الفواتير يحتم تواجده في
الشارع بصفة شبه دائمة.

- لكنني لا أعرفه عن قرب، هل يمكنني الحصول على رقم
هاتفه الشخصي، أو يمكنك أن تدلّني بأيّ منطقة يتواجد الآن.
يحكّ الرجل رأسه مفكراً، يقلب بصره فيما حوله، ثم بعد ترددّ جاوبه:
- للأسف، لا أعلم رقم هاتفه، ولا يمكنني إخبارك بمكان تواجده.
بتر كلماته ناظراً لساعة معصمه:

- كلّ ما يمكنني إخبارك به، أنه بهذا التوقيت يتناول إفطاره
بقهوة المعلّم عسل التي تبعد عن مبنى الشركة بثلاثة شوارع، عندما
تصل إليها اسأل سيّد صبيّ القهوة عنه وهو سيهديك إليه.

يمدّ الشاب يده مصافحاً رجل الأمن:
- شاكرٌ جدًّا لمساعدتك، طاب صباحك.
قالها وهو يهيم بالمغادرة، إلّا أنّ الرجل استوقفه:
- أتمنى لك التوفيق في مسعاك، وإن لم توفّق؛ عدّ إليّ فلديّ
عروسٌ رائعة أيضًا، وستناسبك كثيرًا إن شاء الله.
يهزّ الشاب رأسه علامة التفهّم، ومن ثمّ يغادر.
يقترّب شخصٌ أربعينيّ ليقف بجوار رجل الأمن، يبدو أنّه
زميله في العمل، يسأله مشيرًا برأسه تجاه الشاب:
- من هذا؟

يتنهّد رجل الأمن بقنوط، بينما يشيخُ يده:
- عريس يريد الاقترانَ بابتة إسماعيل الشناوي! هيه، غريبُ
الأنوار هذا سيرتأخ قريبًا من ابنته، بينما سيظلّ رجلٌ طيّب القلب
مثلي يحملُ عبءَ إيجادِ شابٍّ رائع كهذا لابنته، حظوظ!

في الصّباح الباكر، كانت الشّوارع مازالت غارقةً في سباتها
العميق، بالرّغم من أنّ الحياة قد نفضت عنها غطاءَ الخمول منذ
دقائق عدّة، سيارات قليلة تعبر أمام مقهى المعلّم عسل، والذي
أغلب رواده من العمّال وموظّفي القطاع الحكومي ذوي الوجوه
المكحّلة بالشّقاء والتعاسة، كلّ منهم يحملُ بضعَ شطائر يلتهمها

في صمتٍ مريع، بينما يقوم سيّد القهوجي بمدّهم بأقداح الشاي والقهوة والنرجيلة أيضًا، صوتُ الشيخ محمد صديق المنشاوي يصدحُ من الراديو ناشراً جواً من السّكينة المحمّلة بعَبَقِ الماضي، زمن الودّ والتآلف وإنكار الذات والتفاني من أجل الآخر، زمن كان فيه البشر يتحلّون بالآدميّة، لا آلات بشريّة كلّ همّها السعي وراء لقمة العيش، ولا وقت لديها لمراعاة صلة الرّحم ومساعدة الغير، يدلف إسماعيل للقهوة كعادته في صمتٍ تامّ، يحمل شطائره، ومن ثمّ يرتمي بجسده على طاولة مُنزوية، فهو لا يحبّد الاختلاط وتنفره مجالسة البشر، خاصّة هذه الأيام، بينما هو مُثقل بالأفكار التي تنخرُ رأسه كمثقابٍ كهربائي.

يلمحُ سيد دخوله الصامت فيُهرع إليه مسرعاً بقدر الشاي الخاصّ به، أصبح هذا دأبه منذ أن علّق آماله على إسماعيل في تحقيق أمنيّته بالالتحاق في وظيفةٍ لائقة، يضع أمامه كوب الشاي قائلاً:

- صباح الخير يا عمّ إسماعيل، كأسُ الشاي خاصّتك، ساخنًا وبه أربعُ معالق من السّكر كما تفضّله.

- شكرًا لك.

جاوبه إسماعيل باقتضابٍ وهو يقضمُ شطيرته دون أن ينظر إليه. يمسح سيد الطاولة، ويعدّل من وضعيّة كوب الشاي، وكأنّه بذلك سيصبح أفضل مذاقًا أو أكثر فاعليّة! يتلکأ بشكلٍ ملحوظ في

الذهاب، ممّا دفع إسماعيل لنهره:

- يمكنك الذهاب إن لم يكن لديك شيء آخر لتفعله هنا، أفضل تناول فطوري من دون صحبة.

يتململ سيد في وقفته:

- كنتُ أريد أن أذكرك بموضوعي.

- أيّ موضوع؟

- العمل، أقصدُ مساعدتي في إيجاد عمل.

بضيقٍ ردّد إسماعيل:

- مازلت أبحث لك عن مساعدة، اتركها لله، هل يمكنني

تناول إفطاري في سلام الآن!

- حسنًا، وأنا مازلت عند وعدّي، خدمتك لن تكون بلا مقابل.
قالها سيد مغادرًا.

تنهّد إسماعيل بضيقٍ شديد، ثمّ شرع في التهام شطائره، وتجرّع كأس الشاي على عجلٍ هامًا بالمغادرة، مردّدًا بينه وبين نفسه:

«لقد أصبح التواجد في هذه القهوة مثيرًا للأعصاب، خاصّة مع إلحاح هذا الفتى اللّزج»

من بعيد، كانت هناك عيان تتخفّيان خلف ستار النّظارة الشمسيّة المُعتم، تابعان المشهدَ بتمعّن، وأذنان تنصّت باهتمامٍ للحوار الدّائر بينهما، وعقل يفكّر ويدبّر ويحيك خطّته بإحكام.

الفصل السادس

ما إنِ اطمأنَّ لوصول زهراء لباب شقَّتْها، حتى همَّ بالمغادرة
ضاغطاً زرَّ المصعد.

تمسكُ رئيسة بباب الشَّقة منادية:

- بسيل، هلاً انتظرت للحظة.

يقبلُ عليها مستفسراً:

- نعم أمِّي، تحت أمرِك؟

- الأمرُ لله يا بني، لا تنسَ أنْ تنتقي ملابسَ تليقُ بالحفل الذي
سنصطحبُ زهراء إليه.

- أمِّي، لن أدلفَ للقاعة، لذا لا أهمِّيَّة لما سأرتديه.

- نحنُ لا ننتقي ثيابنا من أجلنا يا ولدي، نحن ننتقيها من أجل زهرة.

- حسناً أمِّي كما تريدن.

- هناك أمرٌ آخر، متى كانت آخر مرَّة أرسلتَ فيها الحوالة

البريدية لتلك المرأة التي تكفلها سيدي فاطمة؟

أطرقَ بسيل برأسه مفكِّراً:

- لا أعلم، كان ذلك منذ شهرٍ ونيف.
- أعتقدُ أنه قد حانَ الوقت لتقوم بزيارةٍ أخرى لمكتب البريد كي ترسل واحدة جديدة.
- حسنًا أمِّي، هل هناك أمرٌ آخر؟
- لا، هذا كلُّ شيء، سأَتصل بك إن طرأ أمرٌ ما.
- حسنًا، أتركك في رعاية الله.
- قالها مستقلاً المصعد، لتغلق رئيسة الباب خلفه عائدةً للداخل.

* * *

- تعلو طرقاتٌ فوق بابِ غرفتها فتجيب:
- تفضّلي خالتي.
- تدلفُ أمٌ بسيلٍ للغرفة:
- كيف حالكِ حبيبتي؟ أكان يومك جيداً؟
- تنهّد بعمق:
- لا جديد، كأَيِّ يومٍ آخر.
- تتفرّس أمٌ بسيلٍ في ملامحها:
- إذًا، ما الذي يؤرّقك ويرسمُ هذا الإحباط على وجهك؟
- هل تجدّين ملابسٍ منفرة؟
- تنظرُ إليها بتمعّن:
- لا، بل أجدها ملابسَ رائعةً ومحتشمة.

تنظرُ زهراء في البعيد سائلةً بشكّ:

- كَفّي عن مجاملاتك.

تبتّرُ كلماتها المحتشدة بحلقها، فتَهزّ رأسها بياس:

- لمْ أسألك؟ ما يدريك أنْتِ بالملايس وخطوطِ الموضة؟

- ربّما كنتُ امرأةً صعيدية ذاتِ طرازٍ قديم، لكنني أدرك جيداً

أنّ الأشياء الرائعة لا تخطئها عين، كما أنني كنتُ شابةً مثلك ذاتَ يوم، وكانت لي تطلّعاتي أيضاً.

كلماتها تعيدُ بعضَ الأمل لزهرة، فتشعر بتأنيبِ الضمير لطريقتها المحتدّة في الحديث، تجلس على طرفِ سريرها محاولةً لتلطيف كلماتها الخرقاء:

- لا بدّ وأنّك كنتِ فاتنة.

تبسّمُ أمّ بسيل بخجل، بينما يعلو وجنتيها الاحمرار:

- ربّما، لكنني لم أضاهي والدتك فتنة، والتي أورشتها إياك بلا شكّ.

أكانت حقاً بهذا الجمال الذي تتحدّثون عنه، أم أنكم تبالغون في

الأمر كونها أرملة كبيرِ المسلماني؟

تنهّد بتعب:

- مازالت أمّك جميلة إلى الآن يا زهرة، لو لم تكن بهذا الجمال

الذي يأسرُ القلب ما تزوّجها أبوك أبداً، خاصّة وأنّه كان متزوجاً من قبل.

- تزوّجها إثر نبوءة عرافة لتنجبَ له الولدَ الذي كان يتمنّى،

ولم تستطع أي من زوجتيه الأولى أو الثانية أن تمنحانه إياه.

- إن كان هذا هو السبب الوحيد كما تعتقدين؛ لكان بإمكانه الزواج بأي فتاة أخرى ذات حسب ونسب، ضارباً بالنبوة عرض الحائط، لكنه أحب والدتك منذ أن رآها عيناه كما لم يحب امرأة من قبل، يا ابنتي.. كذب من قال إن الحب أعمى؛ بل الحب مستبصر ورؤيته هي الأصدق، وأمامها يبقى العمى بأعيننا مقارنة بمداد بصره.

يخيم الصمت عليهما لبرهة، فتقطعه زهرة سائلة:

- هل تعتقدي بأنني سأحب «تليد» يوماً ما؟

تلتقط أم بسيل نفساً عميقاً، ومن ثم تجاوبها:

- الحب أساسه مودة ورحمة، إن افتقر لأي منهما اختلت موازينه، كذلك الزواج أيضاً، فالرجل لا ينتظر من امرأته الكثير كي يعشقها، هو يريد منها أن تكون ملاذه وحضنه الآمن، عامله كما يحب؛ يكن لك كما تحبين.

تطأ طي زهراء رأسها أرضاً:

- آسفة لاحتدادي عليك خالتي، صراحة لا أعلم كيف لك أن تحتلمي نوبات غضبي، وتبددينها بكل سهولة هكذا؟! أحياناً تندفع مني الكلمات كقطار مسرع يدهس تعقلي وتأدبي أيضاً، وأحياناً تلجمني الكلمات فالتزم الصمت، لكنه صمت يوارى سوءاً روحي، وصخب الحروب المشتعلة بداخلي، آلاف المشاعر المقيدة

وآلاف الأفكار المؤذية، كثيراً ما أصاب بالتشوش، أنظرُ إلى نفسي
 بالمرآة فلا أعرفها، وأحياناً يتملّكني التيه فأسأل نفسي: «مَن أنا؟»
 وفي متاهتي تضيقُ بوصلتي! فجميعهنّ بداخلي، جميعهنّ،
 بداخلي امرأةٌ عجوز، تخطّت الثمانين منذ أزل؛ حدّ أنّها ما عادت
 تكثرُ لمرّ السنين، صغرت الحياةُ بعينها فزهدتها وبهتت الألوان
 بعالمها، فصارت تتشحّ بالأسود، وهناك أيضاً فتاةٌ صامتةٌ خانعة،
 كلّ ما فيها ينزّ فتوراً وضعفاً، كلّما نبت داخلها حلمٌ اقتلعت من ثنایا
 قلبها، وأخرى نائرةٌ كمُهرةٍ جامحة لا تنفيها هشاشةُ عودها ونقص
 تجاربها عن الانطلاق بقوةٍ خلال الدروب الوعرة، لا تتوقّف لحظةً
 عن زجري، تودّ لو أنّها تصرخ عالياً، فتنهّار جبالُ الخوف التي ترزخ
 أسفلها روي.

كما تري، العالمُ أمامي مشرّعٌ على مضراعيه بلا أسلاكٍ شائكة،
 بلا جُدُرٍ لتحاصره أو تكبّل حرّيته، لكنّ الجدرَ بداخلي مشيدة،
 تقيّدني، تأسرني، وتلقي بظلالها المعتمّة على سماء روي فتزيّد من
 غربتي الموحشة.

تجلّس أمّ بسيل بجوارها لتحتضنها مطمئنة:

- هذا التّضارب لأنّك خارج مجتمّعك، فنحن أحياناً نرى الأمانَ
 في الاعتياد؛ لذا من الطبيعي أن يعاندَ هواك تعقّلك وما جُبّلت عليه،
 فالنبّة التي تزرع خارج أرضها لا بدّ وأنّ تشعر بالوحشة وتذبّل

أوراقها، لكنني لن أسمح بذلك، فقريباً سنعود لأرضنا ولديارنا،
وسينتهي كل هذا التشتت.

تسندُ رأسها لكتف أم بسيل:

- كم أتمنى ذلك حقاً، أريد أن ينتهي هذا الصخب.

تزيدُ أم بسيل من احتضانها بحنوّ لم تجده زهرة لدى والدتها يوماً:

- قريباً إن شاء الله يا ابنتي، والآن هلاً أخبريني.. ما الذي

حدث وجعلك تشكّكين بملابسك؟

تعتدلُ في جلستها، بينما تجاوبها بأسى:

- عبيرُ أخبرتني أن ملابسني لا تليقُ بحفل الخطبة.

ترفعُ أم بسيل حاجبها بتنمر:

- حسناً، في هذه الحالة علينا أن ندحض رأيها.

- لا أفهمك، كيف هذا؟!

- سنريهم كيف هي ملابس ابنة الأكاير.

أنهتُ جملتها ممسكة بهاتف زهرة مكوّنة رقم ابنها، ومن ثمّ

اتّصلت.

يأتيها صوته عبر الهاتف:

- السّلام عليكم.

- وعليكم السّلام يا ولدي، جهّز نفسك بعد صلاة المغرب

لتصحبني أنا وزهراء لشراء بعض اللّوازم التي تنقصنا.

- حاضرٌ أمِّي، حينما تجهزان اتّصلي بي، وسأكون بانتظارك
أسفلَ العقار.

- باركَ الله بعمرك يا ولدي، في أمان الله.

أنهت اتّصالها، ثمّ أكملت:

- هيّا بدّي ملايسك لتتناول طعامَ الغداء، ومن بعدها جهّزي
نفسك لأننا سنذهب للتسوّق كما سمعت.
قالتُها وهي تهَمّ بالمغادرة.

- مهلاً خالتي، ما الذي تخطّطين إليه؟

تلتفتُ إليها وهي مُمسكة بمقبض الباب، وشبّح ابتسامةٍ مأكرة
يرتسمُ على وجهها:

- فقط، أنتظري وستري بنفسك.

بعد أن أنهت كلماتها أغلقت الباب خلفها، تاركةً ابتسامة تعلو
وجهَ زهرة، وسعادة تملأ قلبها، بينما تكوّنت بحلقها غصّة جعلتها
تردّد بانكسار: ماذا ينقصُك أمّي لتعامليني هكذا؟

- حسناً يا شيرلوك عَصْرُكَ، هل سنستمرّ بالمراقبة مطوّلاً!
مللتُ تتبّع ذاك الأحمق من مكانٍ لآخر.

يغمضُ عينيه بشده متّخذاً من الصمت ردّاً، بينما يجزّ على
ضروسه، بعقله آلاف الأفكار والخطط التي تحتاج لسدّ الثغرات.

- هل ستنام؟ على الأقلّ جاونبي ومن بعدها يُمكنك أن تنقلبَ على ظهرك كسُلحفاةٍ تدّعي الموت.

من دون أن يفتح عينيه ردّد بكلّ هدوء:

- قليلاً من الهدوء رجاءً، أحتاجُ منك للقليل من الهدوء والكثير من الصّمت.

يتمشّى مينا جيئةً وذهاباً، كبنّدرل ساعةٍ لا يكفّ عن التّرحّ، فيتأفّف سالم ويفتح عينيه:

- هل مازلت تحتفظُ بذلك المسدس الذي حصلنا عليه إبان الثّورة؟

- نعم مازال لدي، لكنّ ما حاجتنا إليه!! نحنُ لا نتطرّق للقتل مهما كانت الأموال التي سنحصل عليها.

- مينا، سألتك سؤالاً واحداً فلا تُمطّرني بعشرات الأسئلة بالمقابل! أريد أيضاً ختمًا حكومياً كي تكتمل الخطط.

- الصّائع.

- من؟

طوّح مينا يده بحنق:

- تريد ختمًا حكومياً، عليك بالصّائع، الاسمُ الحركيّ لعبّاس

المزوّر الذي يقطنُ بأوّل الحارة، أطلقوا عليه هذا الاسمُ لأنّه يمتلك

أناملَ صائغٍ مُحترف، تشكّل الأختام بدقّة وإتقان، تطوع الأخبار،

تنقش الرّموز وتماهي التّوقيعات دون تعرّج أو اغوجاج حدّ أنّك لا

تستطيع التفرقة بينها وبين الأصلية.

- كم يتقاضى من الأجر؟

- لا أعرف، عليك بسؤاله، لكن فيم كل هذا؟

يتنهد سالم، ثم يرجع ظهره للخلف مسترخياً:

- أثناء مراقبتي لوالد رحمة وجدت شيئاً يمكننا أن نجني من

خلفه أموالاً ليست بالقليلة، لكن سيتطلب حينها إرجاء مراقبة والد رحمة لوقت آخر.

- هات ما عندك.

- أعزني انتباهك جيداً؛ لأن كل ما سنخطّطه يجب أن ينفذ بدقة عالية.

- أريد فنجاناً من القهوة السادة.

- دقائق وسيكون أمامك.

قالها سيد القهوجي الذي ما إن التفّ مغادراً حتى لفت انتباهه انضمام شاب إلى الطاولة لا يشبه رواد القهوة! كان أقرب إلى رجل أعمال أو صاحب نفوذ وسلطة، بنظّارته الشمسية ماركة «ريان» والتي تزيد من وسامته، بينما ينزّ الترف من حلّته الرسمية السوداء، والتي بالتأكيد لم يقتنيها من التوحيد والنور، ولم تكن أحد إفرازات شركة مصر للغزل والنسيج أيضاً، هذا بجانب الساعة الذهبية التي تكّلل معصمه، وعطره الثقيل الذي قلب رائحة المقهى رأساً على

عقب، مبددًا طعم القهوة بأفواه رَوّادها!

يَنجّه إلى الرّمالة ليصنع القهوة، بينما تصحّبهُ التساؤلات عن تواجد رجل بهذا التّرف داخل قهوة المعلّم غسل الوضيعة، يده تعمل بحرفيّة تامّة بالرغم من أنظاره المصوّبة تجاههما، يحيل إليه أنه قد نسي أذنيه فوق الطاولة لأنّه يسمع كلّ كلمة تُقال بالحديث الدائر بينهما!

- لا تعلم كم أنا شاكرٌ لموافقتك على مقابلتي.

بتأفّف واضح تكلم الشابّ الوسيم:

- لتتكلّم بصلب الموضوع، فوقتي ضيقٌ للغاية.

يتنحّ الشابّ السمين، بينما يتصبّب منه العرق كتلميذٍ أمام مُعلّمه:

- حسنًا، جلّ ما أريده هو إمضاء سيادة الوزير على توظيفي

بإحدى الشّركات الآتية، صان مصر، بتروبل، بتروتريد، لا يهمني

بأيّ قسم ألتحق، المهمّ أن أعمل لديهم، والأموال التي اتّفقنا عليها

ستكون جاهزة فور أن يصلني جوابُ التّوظيف.

- سأرى ما يمكنني فعله، انتظر منّي مكالمّة.

قالها الشابّ المهمّ، ثمّ غادر دون التفاتٍ للخلف.

يقترّب سيّد من الفتى السمين واضعًا أمامه القهوة سائلًا:

- هل تريد شيئًا آخر؟

- كم ثمنُها؟

- هي على حساب القهوة.

ينظرُ إليه الشابُّ السمين بتعجّب:
 - غريبة!! أهذا دأبكم مع الجميع؟
 يتسّم سيد القهوجي ابتسامةً لزجة:
 - لا، ليس مع الجميع؛ وإنّما مع الأشخاص الذين نتوسّم فيهم
 الكرمَ والشهامة.
 - وكيف علمتَ أنّي أمتلكهما؟
 - ربّما لو أخبرتني كيف أصلُ إليه لجابوت نفسك.
 قالها سيد، وهو يغمزُ بعينه تجاه الرجل المهمّ الذي غادر المقهى للتوّ.
 بارتباكٍ ردّد الشابُّ السمين:
 - عمّن تتحدّث؟
 يمدّ سيد يده مصافحاً:
 - خادمك سيد، هل لي بمعرفة اسمك الكريم؟
 يصافحه الشابُّ السمين مردّداً:
 - أبانوب.
 - عاشتِ الأسماء أبانوب، دعني أدخل بصُلب الموضوع، لقد
 سمعتُ حديثك الدائر معه، لا.. لا ترتعب هكذا، كيف لي أن أضرك
 وأنا مثلك، أبحثُ عن وظيفةٍ دائمة تقيني شرَّ العوز والمرض، فكما
 ترى.. صبيّ القهوة ليست وظيفةٌ يُمكن الاعتمادُ عليها، والزمنُ
 غادرٌ بطبعه.

- يتلفتُ أبانوب يمينًا ويسارًا:
- هَلَّا أخفضت صوتك قليلًا، أتريد أن يستمعَ لحديثنا رواد القهوة؟
- حسنًا، هل تسمح لي بالجلوس؟
- تفضّل.
- يتّخذ سيد مقعدًا، ومن ثمّ يكمل:
- عرّفني به، وسأجزيك أجر ذلك.
- لا أريدُ أموالك يا.. ما اسمك؟
- سيّد.
- أنا لا أريد أموالك يا سيد، وإلّا أريدك أن تحلّ عن سمائي،
أعتقدُ أنّه من السهل الحصولُ على وظيفة دائمة! كما أنّك لا تؤاخذني
في اللفظ صبي قهوة، ما الذي لديك لتدفعه من الأساس؟
- قد تراني معدّمًا، لكنني لست معدّم الحيلة، صلّني به
وسأجزيك أجر معروفك.
- يهمّ أبانوب بالمغادرة:
- لا أعدك بشيء، فقط سأعرض عليه الأمر، إن وافق كان
خيرًا، إن لم يوافق فلا حيلة لديّ.
- ينهضُ سيد بالمقابل مصافحًا:
- أنا هنا بالقهوة، وسأنتظر ردّك، أتمنى أن يكون قريبًا.

- أخبرني، هل صار الأمر كما هو مخطّط له؟
قالها سالم وهو يهيمّ بخلع حلّته.
يضحكُ مينا بانتشاء:

- نعم، كما توقّعت أنت، الفتى كالغريق يبحثُ عن قسّة دون
تريثٍ أو تعقّل.

- جيد، سنتركه ليومين، ومن ثمّ تعاودُ زيارته لتخبره بميعادِ
اللقاء بيننا.

- ألنّ نلتقيه في القهوة؟

- لا تسخرُ من الأسد داخل عرينه فيفترسك، كما أنّي لا أريد
لرّواد القهوة أن يحفظوا وجهينا.

- سالم، يومًا بعد يوم تزداد حنكة، أحيانًا تبدو لي مرعبًا.

- حسنًا يا سيد مُرتعب، اخلعْ شعرك المُستعار هذا، وأعدْ جميعَ
الأشياء للمتجر الذي قُمنا باستئجارها منه، وحذاري أن تسقطَ
نظّارة الشّمس أو الساعة بالطريق.

- ولم لا تعيّدُها أنت؟!

- لأنّني سأقوم بزيارة (الصّائغ) لأعرف كم يتقاضى أجرَ
الأختام التي يزورها، أراك لاحقًا.

قالها مغادرًا الغرفة، تاركًا مينا يللمُ ما خلعه.

لليوم الثالث على التوالي، مازالت رحمة معتقلةً في سجنها المهين الخالي من الآدمية، ككلبٍ أجرب يقدم له الطّعام والشراب بمواعيد محدّدة، كما حدّدت لها مواعيدُ ثابتة للذهاب إلى دورة المياه أيضًا، بينما نسي والدّها أن يطوّق عنقها بسلسلةٍ حديديةٍ كما هو المتّبع!

عندما استيقظت باكراً، هاجمتها نوبةٌ غثيانٍ لا تُحتمل، قلبت أحشائها وجعلتها في حاجةٍ ماسّة للذهاب إلى دورة المياه، ولأنّ باب غرفتها مُغلّقٌ من الخارج كالعادة، اضطرّت للتقيؤ في إحدى المناشف، ليتملك رأسها من بعدها دوارٌ جعل نهوضها من الفراش عمليةً شاقّةً ومُتعبة، النّافذة التي بغرفتها مُحصّنة بقضبان حديدية لتؤكّد سجنها القسري، السّاعات تمضي دون أن تعرف لها وقتاً، بلا هاتفٍ بلا كتفٍ تستند إليه، سالم تركّها، والدّها سجنها، وأحشاؤها تنتفخُ يوماً بعد يوم، تبدو حياتها كأشلاءٍ مُبعثرة؛ لذا كان عليها أن تجدَ لنفسها مخرجاً!

تهمّ بخلع السّاق الحديدية التي بواسطتها يفتح مزلاج النّافذة (السابيونة)، كي تحفرَ بواسطته أجزاء الحائط المثبّت داخلها حديد الحماية، تهمّ بالحفر، جبينها يتصبّب عرقاً، بالرّغم من طقسٍ أواخر ديسمبر البارد! الدّوار يفتكُ بها ويفقدها توازنها، الحملُ يثقلُ روحها ويقطع أنفاسها، فتتعجّب من صمود جنينها، إذ كيف لنبته بهذا الضعف أن تحتمل كلّ هذا الألم!

يتناهى لسمعها صوتُ مفتاحٍ يُدار برتاجِ الباب، فتغلق النافذة
بسرعة مخفية السّاق الحديدية أسفل فراشها، يدخل والدّها ممسكًا
بصينية الطعام.

تقتربُ منه في محاولةٍ لإمالة قلبه:

- إلى متى ستفعلُ ذلك يا أبي؟ إلى متى ستعاملني بجُرم لا أعلمه؟
يضعُ الأطباق على الطاولة، وبجانبها كوبٌ من العصير، ثمّ يهّم
مغادرًا مرّةً أخرى وكأنّه لم يسمعها! تتعلّق بذراعه راجية:

- أرجوك أبي، أجبني.

ينظرُ إليها بشرر، ينفضُ ذراعه بغضب:

- حتّى أتأكّد.

- تتأكّد ممّ!

- من براءتك.

قالها وهو يغادر، تاركًا الخوف يعتصر قلبها، وآلامًا بالبطن لا تُحتمل.

- لقد انتهيت، ما رأيك؟

قالتها زهرة وهي تمسحُ جانبي فستانها بترقب.

يضيء وجهُ أمّ بسيل بابتسامة، بينما تلمعُ عيناها كنجمتين بسماء مظلمة:

- يعجزُ لساني عن إيجاد كلمةٍ تصفُ مدى بهائك.

تنظرُ إليها غير مصدّقة:

- أم بسيل، من دون مجاملاتٍ رجاءً.

- أنا لا أجاملك يا ابنتي، ليتَ فاطمة هنا لترى بعينها كيف أصبحتِ ابنتُها عروسًا رائعة كحوريّات الجنّة.

- أينَ هي الحوريّة خالتي؟ تجاملين كعادتك.

تقتربُ منها، تمسكُ بذراعها دافعة إيّاها بلطفٍ نحو المرأة:

- انظري لنفسك وأخبريني، كم واحدة من صديقاتك تمتلكُ هذا الوجه البصّ والعيون الزيتونيّة التي يروق لها أحيانًا أن تحاكي لونَ العشب! كم واحدة تمتلك براءة هذا الوجه الذي قدّ من نور، أنا لا أجاملك يا زهرة، أنا عاجزةٌ عن وصف جمالك الذي أراه بعيني.

كلماتُ أم بسيل تصبغ وجنتيها بالاحمرار، وتدفعُها للتدقيق بتفاصيل فستانها الكريمي الذي يحتضن جسدها كأمّ تحتضن رضيعها بكلّ حنوٍّ ورقة، أكمامه الموشاة بلألئٍ مُتناثرة حول الرّسغ تزيد من رقة يديها، ذيله الممتدّ خلفها دون بذخ يذكرها بنجمة سينمائيّة شهيرة، لكنّ غطاء رأسها يجعل إطلالتها أكثرَ رقيًا.

تنتهي من تأمل فستانها فتنظرُ إلى وجهها بالمرآة، حاجباها البنّان الدّقيقان، أهدابها التي تشبه سنابل القمح المحيطة بحدائق الزّيتون، بشرتها البيضاء المُشربة بحُمرة، كلّ ما فيها جميل، لكنّها لا تدرك ما هي المواصفات الحقيقية للجمال، بالنسبة إليها.. جميعُ الفتيات غايةً في الحُسن، كلّ منهنّ تمتلك سحرها الخاص، لكنّها بالرغم من ذلك

لم تستشعر جمالها يوماً، فلم يسبق لأحدهم أن عاملها كفتاةٍ وتغزل بها، حتى «تليد» زوجها لم يمنحها سوى شعورٍ واحد بأنها مجرد تسوية، تسوية جائرة ومُجحفة، قسمة ضيزى كما يردد دائماً! بهذه اللحظة التفتت لأم بسيل، تحتضنها، ونظرة امتنان تطل بعينها:

- سلمك الله لي خالتي، وبارك بعمرك، فلا أحد يسكب السعادة على قلبي كما تفعلين.

تحتضنها أم بسيل بشدة، وكأنها تحميها من شيء ما:

- ليشهد الله على محبتك بقلبي يا صغيرتي، فأنت الابنة التي لم أحظ بها؛ لذا لا تخشي شيئاً لأنني سأظل بجوارك حتى آخر يوم بعمرى.

تنهي كلماتها وهي تفك حصار ذراعيها ثم تكمل:

- هيّا بنا، فبسيل ينتظرنا بالأسفل منذ زمن.

كلماتها تحت مدامع زهرة فتمسح طرف عينها بأصبعها، مما دفع أم بسيل لتنهزها فزعة:

- ستخريين كحل عينيك الذي أمضيت ساعةً في وضعه لك،

هيّا لنذهب.

قالتها وهي تجرّها جرّاً خارج غرفتها كأحد جرذان سندريلا

التي كانت تدفعها لحفل الأمير!

الفصل السابع

أمام قاعة الخطبة، وقفت زهرة بجوار أمّ بسيل، وكلتاهما تدورُ
عينُها من شدة الجَمال والوَهج، «ما هذه الأناقة؟ ومن أين تأتي هذه
الديكورات الملكية المُبهرّة؟» هكذا فكّرت زهرة بصوتٍ عالٍ.

كانت أبوابُ القاعة من خشب الأرو، نبتت على طولها زخارفُ
موشاة بالذهب، يقف أمامها موظّفان كلاهما يرتدي حلةً سوداء
فاخرة، ممّا دفع «بسيل» لرفض دخول القاعة معهما، خوفاً من
تعارض ملابسه العادية مع الأجواء الرسمية، سقفُ القاعة ذو
نقوشٍ مذهّبة، تتناثر الأضواء بأرجائه كشموسٍ مُشرقة، تنعكس
على كريستالات الثريّا الضخمة المعلقة بمنتصفه فيزيدُ من وهجها،
الطاولات مزينة بمفارش من السّاتان الأبيض وبقايات من الورد
الجوريّ تقبع فوقها، المقاعدُ أيضاً تمّ تزيين ظهورها بالسّاتان
الأبيض على هيئة إنشوطة من لفّتين وجزئين متدلّين (فيونكة)،
أعمدة القاعة على الطراز الرّوماني، سميكة مدوّرة، تيجانها على
شكل أوراق شجر (العمود الكوريني).

«وكأنّنا على عتّاب قصرٍ ملكيّ؛ لا قاعةٍ للاحتفالات!»

هكذا رددت زهرة مشدوهةً بما ترى.

- مَنْ هذه؟ لا أصدّق عيني، زهرة!

صياحٌ عبير لفتَ الأنظار نحوها، ممّا دفعها لتتمسّك بذراع أمّ
بسيل كطفلةٍ أرعبها الزّحام، تلتزم الصمت ويتملّكها الجمود فتثبّت
مكانها كلصّ تمّت محاصرته! تنهض عبير مخاطبةً الفتيات اللاتي
يشاطرنها الطّولة:

- أهى زهرة يا فتيات، أم أنّي أتوهمّ؟

تنكّس زهرة رأسها حرجًا، تمضي بجانب أمّ بسيل لتنضمّ
إليهنّ، عندما مرّت بجوار عبير الواقفة كمذيعٍ يغطّي حدثًا ما،
همستُ بأذنها:

- منّك الله يا عبير، لمّ هذه الفضائح؟ اجلسي عافانا الله من جنونك.
تقتربُ عبير منها:

- قسمًا بالله ما عرفتك، لمّ تحبّئين جمالك هذا عنا! أتخشين الحسد؟
- الصّراحة لا شيء هنا يسترعي الحسد سوى قدرتك الهائلة
على افتعال الفضائح.

تلتفتُ عبير لأمّ بسيل بحُبور، بينما زهرة تدعو الله ألا تنطق اسم
المرأة خطأ، تقترب منها مرّجة:

- لا بدّ أنّ هذه خالتي أمّ بسيل، أخيرًا رأيْتُك، لقد أحببتك
كثيرًا من حديث زهراء عنك، أنا عبير صديقتها المقرّبة، المقرّبة جدًّا.

تبادلها أم بسيل القُبلات، بينما تتنفس زهرة الصَّعداء، ترحب بها
أم بسيل مجاملةً كأَيِّ امرأةٍ في قاعة أفراح:

- العقبى عندك يا عير.

تبتسم عير بخبث:

- ربّما تقاطعت دروبنا من أجل هذا السَّبب خالتي، ألا
يقولون.. «الخيرُ على قدوم الواردين؟!»

تهزّ أم بسيل رأسها بحيرة وهي تهمّ بالتخاذ مقعدها، بينما ابتسامتها
تخبو فوق ثغرها، تلك زهرة عير الضاحكة وهي تهمس بأذنها:
- ارحمي المرأة فهي لن تفقه مزاحك هذا.

أنهت مجملتها، ومن ثمّ التفتت للفتيات المشاركات للطاولة:

- لا تؤاخذنني، فقد شغلني استقبال عير الحافل عن إلقاء
التّحية، طاب مساؤكنّ.

يهمهنّ بأصواتٍ مُبهمة، يتفحصنها بعناية، يتهامسنّ فيما
بينهنّ، فتميلُ عليها عير قائلة:

- انظري إلى تجهّمهنّ، لقد أشعلتِ الغيرة بقلوبنا يا ابنة الأكابر،
خطفتِ الأضواء منّا، وتركنا نطلب العوض من الله، حتّى «بسيل»
لن ينظر إلينا بعد الآن.

تزعم زهرة شفيتها جيّداً، تحاول منع ضحكةٍ من الانفلات،
فتتابع عير:

- سيشقق وجهك من كتمان الضحك، حتى وأنت بهذا الجمال
مازلت عبوسًا.

تنفجُ شفتَا زهرة غصبا، فترسم على وجهها ابتسامة واسعة:
- أم بسيل بجانبني، ما رأيك لو أخبرتها بمشاعرك هذه تجاه ابنها؟
تهمس عبير بجديّة مُفْتَعلة:
- سبقَ وأن أخبرْتُك، لا بدّ وأن يأتي إليّ زاحفًا أوّلاً، هذا هو
دأْبُ عائلتنا.

تضعُ زهرة يدها فوق فمها كاتمةً ضحكاتها:
- الآن فهمت، أنتم تتزوّجون الزّواحف، أليس كذلك؟
تلكّزها في ذراعها، وتقطّية تكلّل جبينها:
- حقودة!

- حسنًا يا صديقة الحقودة، أين أضعُ هديّة الدكتور راشد؟
تصوّب عبير سبّابتها نحو طاولةٍ بجوار بابِ القاعة:
- أترى تلك الطاولة التي يرزخ فوقها تلالُ الهدايا، عليك
وضْعُ هديتك هناك.

- تعالي معي.
- نحنُ بداخل قاعةٍ مغلقة، وبها من الحرس الخاص ما يجعلها
مؤمّنة، كما أنّ أم بسيل بجانبك، لذا لن يجروا أحدهم على اختطافك.
- اختطاف من؟! فقط ألتخذك درعًا يقيني النظرات المتفحّصة.

- استغلالية حقودة.

- شريرة مجنونة.

- إذاً، هيا بنا.

قالتْها عبير هامة بالنهوض تتبعْها زهرة، فتمسك أم بسيل
بذراعِها سائلة:

- إلى أين؟

- سأضعُ الهدية الدكتور راشد بمكانِها المخصّص، ثم أعودُ من فوري.

- متى سيبدأُ الحفل؟ أخشى أن نتأخّر فتقلقُ سيدتي فاطمة.

تجاوبْها زهرة وهي تهتمّ بالمغادرة:

- حينما أضعُ الهدية بمكانِها، لن نضطرّ حينها للبقاء، تعلمين
أنني ما جئتُ إلّا من أجلها.
أنهتْ زهراء جملتها مُبتعدة.

كان بسيل يقف مولياً ظهره لمدخل القاعة مستنداً بساعديه على
سياج السلم المقابل له، يتفرّس في أنحاء الفندق الذي يحوي القاعة
بعيونٍ منبّهة، بينما يخطفُ بصره عرض الأزياء الدائر أمامه من
مدعوّي الحفل!

- بسيل، أهذا أنت؟

ينظرُ لصاحب الصوتِ بتمعّن:

- جلال!

يقترُبُ منه صاحبُ الصوتِ محتضناً إِيَّاهُ بقوةَ:

- آهِ يا ابنِ العمِّ، مرّتْ سنواتٌ منذَ آخرِ لقاءٍ بيننا.

يفكُّ بسيلِ حصارٍ ذراعيه غيرَ مصدّق:

- أهذا أنتَ حقّاً؟! كيفَ حالُكَ؟ لمَ تركتَ النّجعَ، ومخوّتنا

هكذا من أيّامك؟

- كان عليّ أنْ أفعلَ ذلكَ، ضاقتْ بي سبُلُ الرّزقِ داخلِ

النّجعِ، ولم يكنْ أمامي سوى الفرارِ إلى القاهرةِ ملاذِ الحالمين ومرفأ

الطمّوحين، دُعِكَ مِنِّي الآنَ، وأخبرني كيفَ حالُكَ، وحالُ خالتي

رئيسة؟

- نحنُ بخيرِ حالٍ والحمدُ لله، ما الذي تفعله هنا؟

يرفعُ كتفيه بلا اكتراث:

- أنا أعملُ هنا فأصبحتُ بذلكَ أحدَ سكّانِ القاهرةِ، أمّا أنتَ

فما الذي جاء بك من النّجعِ؟

- لم أقصدْ ماذا تفعل في القاهرة؟ قصدتُ هنا في هذا المكان؟

- أنا هنا بصُحبةِ خطيبتِي.

قالها مشيراً عبْرَ بابِ القاعةِ المفتوحِ لفتاةٍ تقفُ بجانبِ زهرة، ممّا

استدعى ذلكَ اندهاشَ بسيلٍ، فردّدَ في نفسه: «هل العالمُ صغيرٌ لهذه

الدرجة لتكون خطيبة جلال صديق لزهرة!»

يكمل جلال حديثه:

- الأجواء خانقة بالداخل، إضافةً إلى أنّ التدخين ممنوعٌ بالقاعات المكيّفة؛ لذا قرّرت مغادرة القاعة من أجل بضعة أنفاس من النيكوتين، تفضّل.

قالها وهو يمدّ يده بعلبة السجائر، ممّا دفع «بسيل» لرفع يده علامة الرّفص، ليكمل جلال بعد أن قبّل سيجارته قبلةً طويلةً وحارة:

- وما هو سرّ تواجدك هنا؟

- جئتُ إلى هنا بصحبة والدتي وزهراء ابنة سيدي عامر.

- زهراء من؟ تقصد زهراء ابنة عامر المسلماني؟

- رحمه الله، نعم هي.

يمدّ رأسه داخل القاعة سائلاً:

- أين هي؟ فأنا لا أعرفُ عنها سوى اسمها؟

- تلك التي بجانب خطيبتك.

يتنهد بسيل بضيقٍ وحنق، ثمّ يكمل:

- الأخرى بك أن تسأل عن روعة.

ينظرُ إليه جلال، وابتسامةٌ ساخرة ترسمُ على شفّتيه:

- ولم يقلقني أمرها! أعتقدُ أنّها سالمة بين أهل النّجع، وفي رعاية

عائلة المسلماني، سند المحتاجين ونصير المظلّومين.

- لكنّها مسؤوليتك أنت لا مسؤوليتهم!

يقربُ جلال وجهه من بسيل، بينما علت عينه نظرة وعيد:
- يومًا ما سأستردّ ما هو لي، وما أخذَ منّي عنوةً، فقط قليلٌ من
الصبر يا بسيل.

كلماته المبهمة تثيرُ قلقَ بسيل، شيء ما يُخبره أنّ كلماته تحمل في
طيّاتها شيئًا آخر، تبدو كوعيدٍ لا عهد بالعودة للديار مرّة أخرى.
«أيّ فكرةٍ حمقاء تظنّ برأسك يا جلال!»

هكذا فكّر بسيل الذي ما إن هم بتغيير الموضوع حتى لمحَ زهرة
خارجةً من القاعة تتبعها والدته، التي بادرته فورَ رؤيته:
- هيا بنا إلى المنزل، فقد تملّكني النعاس جرّاء الموسيقى الدائرة
بالقاعة.

- أمرك أمّي.

- خالتي رئيسة، كيف حالك؟

قالها جلال مرحّبًا، بينما نظّره مسلّطٌ على زهرة.

تفّرّس أمّ بسيل في ملامحه بتمعّن:

- من أنت؟

- أنسيتني بهذه السّهولة يا خالة؟! كنتِ تنعّنيني بظلّ بسيل
عندما كنّا صغارًا.

- جلال! أهذا أنت؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟

يقهقه عاليًا، بينما عيناه لا تبرحُ زهرة:

- استجوبني بسيل من قبل خالتي؛ لذا اعفني من الإجابة.
يحول نظره لبسيل سائلاً:
- أهذه زهرة ابنة سيدي عامر المسلماني؟
هز بسيل رأسه في صمتٍ مما حدا بجلال ليمدّ يده نحوها مصافحاً:
- مرحباً بابنة العم.
- نظرت زهرة ليده الممدودة، ومن ثمّ حوّلت نظرها لأمّ بسيل
تناشدها التدخل، ممّا دفع أمّ بسيل لتنهي وقفتهم:
- كان من الجيد رؤيتك يا جلال بعد كلّ هذه الأعوام من الغياب،
لكننا مضطرون للذهاب الآن، أتمنى أن أراك في النّجع قريباً.
- يسحبُ جلال يده المخدولة إلى جانبه كجنديٍّ أمرٍ بالتقهقر
أمام العدو:
- عمّا قريب إن شاء الله خالتي.
- تتقدّم أمّ بسيل بصحبة زهرة، بينما التفت بسيل إليه مودّعاً
ليفاجأ بنظره يتتبع زهرة.. يصيحُ فيه:
- اعتني بنفسك جيداً، أتمنى أن تتقاطع دروبنا مرةً أخرى.
قالها هامّاً بالمغادرة، لكنّ جلال استوقفه:
- بسيل، أعطني رقم هاتفك الشّخصي، كي أطمئنّ عليك بين
الحين والآخر، وربما استطعنا الترتيب للخروج معاً كالأيام الخوالي.
- بالطبع.

أنهى بسيل كلمته بإعطائه رقم هاتفه الشخصي، ومن ثم ودّعه في عَجالة ليلحقَ بوالدته وزهرة.

يضعُ سيّد أكوابِ الشاي والقهوة أمام رواد المقهى، مُنهمك بتلميع الطاولات وإشعال جمر النرجيلة، يحاول تشييت فكره الذي لم يهدأ منذ آخر محادثةٍ له مع أبانوب، مازال ينتظرُ ردًّا، لم يدرك يومًا أن الانتظار قاتل هكذا، يحدث نفسه: «ربّما لن أراه مجددًا، أخدمني مَنْ لا يعرفني، بينما لم يخدمني العمّ إسماعيل!»

يزفرُ بعمق، بينما يهزّ رأسه بيأس، تربّت على كتفه يدٌ، يلتفتُ ليجدَ أبانوب بوجهه، تنفّج أساريه مرحبًا:

- أبانوب، كدتُ أفقدُ الأملَ في رؤيتك مرّةً أخرى، أليديك أخبارٌ سارّة؟

بهمسٍ ردّد أبانوب:

- اخفضُ صوتك قليلًا، وتعالَ معي.

بهمسٍ مماثل ردّد سيد:

- إلى أين؟

- خمسُ دقائق خارجَ المقهى، لا أرتاحُ لنظراتِ روادها المتفرسة، ولا ذانهم المتصنّة.

- حسنًا.

قالها سيد، وهو يتبعُ أبانوب للخارج.

- إلى أين يا سيد؟

كان هذا شخصًا ما، يبدو أنّه صاحب القهوة.

- سأبتاع شيئًا من المحلّ المجاور، فقط خمس دقائق ثمّ أعود.

- لا تتأخّر.

ردّدها صاحبُ القهوة قبل أن يعودَ إلى تقبيل نرجيلته.

يخرج سيد من المقهى فلا يجد «أبانوب»، ينظر يمينًا ثمّ يسارًا
ليجده واقفًا على الناصية، يهرول إليه وكأنّه سيختفي، حتى اقترب
منه فبادره:

- الآن أخبرني؟

- هاتفت الرّجل المهمّ من أجلك، ووافقَ على مقابلتك، لكنّ ليس
هنا، سيقابلُك بمكانٍ آخر فهو لا يحبّ الظهور بذات المكان مرّتين.

- هل ستكون معي؟

- وما حاجتك إليّ، ما أنا إلّا واسطة خير؟

- قلتُ بنفسك أنت الوسيط بيننا، لذا لا بدّ من تواجدك.

- كما تشاء، ستتقابل غدًا الساعة السادسة مساءً بمقهى لؤلؤة
بجوار جنينة مول، لا تتأخّر فمَنْ مثله لا يفضّلون الانتظار، وأحضر
معك جميع أوراقك أيضًا.

- سأكونُ هناك في تمام الموعد، شاكرٌ جدًّا لمساعدتك، وأنا عند وعدي.

- أتمنى فقط أن تتم أمورنا على خير، فكلانا بنفس المركب.

جو حارّ خانق، فراشها كسطح بحيرة، البلل يحاوط جسدها
من كلّ جانب، أنفاسها ضيقة كسمكة أودعوها الشاطئ دون أن
يحيلوا خياشيمها لرثة، نصالّ تعمل بأحشائها، تيارات من ألم تعبر
جوفها وتدفعها للارتقاء أرضاً، جسدها كبركانٍ قرّر لفظاً أو جاعه
دفعه واحدة، فما عادت تدرك من أين يأتي الألم! ضربات متتالية
بظهرها وببطنها، صرخات تنفلت من حلقتها جرّاء شدة الألم، تحبو
تجاه باب غرفتها، خطّ من الدماء يتبعها كما يتبع الطفل والدته!
«طفلي!»

هكذا صرخت حينما أدركت أن نبتتها تنزف أمام عينيها دون أن
تملك لها نفعا، تطرق باب الغرفة بما تبقى لها من قوة:
- أبي، أرجوك ساعدني، طفلي يموت.

لا مجيب لها سوى الصمت، تطرق بقوة أكبر، بينما آلامها تتعاضم
وتتفاقم، وتزداد معها حدة النزف، تصيح عالياً:

- أبي، أقتذ طفلي، أرجوك لا ذنب له، اقتلني أنا لكن لا تقتله، أبي.
ما زال الصمت على حاله، بينما هوة سوداء تبتلعها، تدعوها
بإغراءٍ لتهوي بها، ترى الموت أمامها، يبتسم لها بحنوّ، يهزّ رأسه
مطمئناً فتسلمه مقاليدها بلا مقاومة، لم لم يخبرها أحد من قبل، كم

هو مريحٌ احتضانُ الموت!

كانت الساعة الخامسة مساءً، عندما انتهى إسماعيل من التحصيل اليومي، مازال عقله مشغولاً برحمة وبشكوكه نحوها، وبما يفعله للتيقن من براءتها، فمُنذُ أربعة أيام حوّل غرفتها لسجن قسري وأودعها إيّاه، بينما دسّ لها حبوب «السايتوتيك»⁽¹⁾ دون أن تشعر، والتي ستحدثُ لها إجهاضاً إن كانت حاملاً، منذ حينها وهو يترقب، يضعُ الحبوب بانتظام في الطعام الذي يقدّمه لها، فهو لا يعلم الجرعة المناسبة التي تحدث الإجهاض؛ لذا اكتفى بوضع حبتين في كلّ وجبة، فقد نسي زميله بالعمل أن يخبره تلك المعلومة، حينما قصّ عليه أن زوجته قد فقدت جنينها جرّاء تناولها لحبوب السايتوتيك الخاصة به عن طريق الخطأ! مازال يذكر اسم الدواء جيداً، صحيح أنّه لا يختلط بالبشر ولا يريحه البقاء بينهم، إلّا إن ذلك لا يمنعه من الاهتمام بما يُقال، ولو أنّه جيداً بفكره وإيداعه خزائن ذاكرته متى احتاج لها، وها قد حان الوقت ليستعين بما في جعبتها! يعلمُ جيداً أنّ ما يفعله يخلو من الإنسانية، لكنّ الإنسانية لن تجديه نفعاً حينما

(1) Cytotec: الاسم العلمي له هو (الميزوبروستول) وهو دواءٌ يُستخدم لمنع تقرّح المعدة، إلّا أنّه في الفترة الأخيرة تمّ استخدامه من قِبَل الحوامل لإجهاض الأطفال كياوياً.

يفتضحُ أمر ابنته، ويتكالبُ عليه أهلُ الحارة وهو الأعزلُ الذي لا يملكُ عصبه تشدُّ عضده وتدفع عنه شرورهم.

ينتظرُ على أحدِ الأرصفة التي يتوقّف بها أتوبيسات النّقل العام كي تقلّه للشارع الموازي لمدخل الحارة، بداخله تخاذلٌ وانهزامٌ لا حدّ له، ممّا دفعه للتّكاسل عن توريد الأموال التي حصّلها اليوم لخزينة الشركة، يطمئن نفسه بأنّه قد أخفأها بسرّوالة الدّاخلي؛ لذا لن يتمكّن السّارقون من انتشالها، يقطع أفكاره اقترابُ أحدِ الأتوبيسات فيُسرع بركوبه غير آبه بتكدّسه كعلبةٍ سردينٍ عطنة، تفوحُ منها رائحة الكدرِ والإحباط، وكأَنَّها أصبحت رائحة الهواء بمدينة، أو ربّما صارت تلك رائحته لكنّه يلصقها بالهواء كي لا يطمس بصيصَ الأمل ببراءةٍ رحمة، والذي يطمئنُ به نفسه!

حينما دلف لشقّته المتهالكة كأقدامه، سار إلى المطبخ كعادته منذ أن حدّد إقامة ابنته، أخرج بضعة أغراض من الثّلاجة ليعدّ بعض الشّطائر لهما، يضع نصيّها بطبقٍ ومعه كأسٌ من المياة الغازية، ولم ينسَ أن يطحن حبّوب السّايتوتيك بين طيّات الشّطائر، انتهى من تجهيز الصّينية، ومن ثمّ اتّجه إلى غرفتها، أدار مفتاح الباب ثمّ دفعه ليدلف إلى الغرفة، لكنّ الباب لم ينفرج كمن يرزخ خلفه ثقل! حاول أن يدفعه مرّة أخرى حتى كادتِ الصينية التي يحملها تنزلقُ منه؛ ممّا دفعه ليصيح غاضباً:

- إن كنت عازفةً عن الطعام فهذا من دواعي سروري، لكنّ أمامك خمس دقائق كي تذهبي لدورة المياه، ومن بعدها سأغلق الباب مرّة أخرى.

أنهى جملته عائداً للمطبخ، وضع الصينية على الطاولة، ولم ينسَ أن يلتقط شطيرةً منها، التهمها بنهمٍ شديد وهو يضع إبريق الشاي فوق الموقد، ثم جلس من بعدها في انتظار نضوجه متسلّياً بالقضاء على باقي الشطائر، مرّت الخمس دقائق ولم يلمح لها ظلاً!
«ما بها هذه الفتاة! لا بدّ وأنّ مئانتها تننّ من ثقلها، كيف لها أن تصمد هكذا!» تتم بهذه الكلمات لنفسه.

- فأتت الخمس دقائق يا رحمة، لا تلمومي إلّا نفسك، أنا قادمٌ لأغلق الباب مرّة أخرى، ولن أفتحه إلّا بعد نصف ساعة كما هو محدد. أتبع كلماته بأن اتّجه نحو غرفتها مرّة أخرى، هذا الهدوء يحيرُه ويجعل أفكاره تتضارب كسفينة تائهة بعرض البحر دون مرفأ، يدفع الباب مرّة أخرى محاولاً الدخول للغرفة، مازالت انفراجه الباب لا تتزعزع! يدفع الباب بكلّ قوّته متفرّساً في الغرفة الضيقة فلا يجد رحمة، لكنّ خطأً من الدماء على أرض الغرفة يدفع عينيه لتتبّعه، بينما دقات قلبه تفرع بأذنه، ليجدَ بنهايته رحمة مكوّمة خلف الباب كخرقةٍ بالية زرقاء فاقدةً لمظاهر الحياة ترزخ أسفلها بركةٌ صغيرةٌ من الدماء!

تفرّ من عروقه الدماء، بينما تعتصر قلبه قبضةُ ألم، بلحظةٍ واحدة
اختفى غضبه وحنقه وكلّ ما فعلته ابنته، صغرت الحياة بعينه أمام
رؤيتها بهذا المنظر، نصلُ سكينٍ حادّ شقّ قلبه نصفين، فيردّد غير
مصدّق:

- لقد خسرتُ ابنتي!

الفصل الثامن

السّاعة السّابعة مساءً، وقف إسماعيل أمام بابِ غرفة العمليات زائغَ البصر كَمَنْ انهارَ عالمُه، يرى الممرّضات يتمشّين بهدوءٍ تامٍّ، الحياة بقلبِ المشفى نابضةً، بينما مظاهرُ الحياة بقلبه متوقّفة، كأنّ النبض فارقَه ولنْ يعودَ إليه إلّا بعودة ابنته سالمة، يتناهى إليه صوتُ ممرّضة تتحدّث إلى زميلتها:

- لقد أتتْ إلى المشفى في حالةٍ متأخرة، ضغطُها كان منخفضاً للغاية، فقدت الكثيرَ من الدّماء، والكثير من مظاهر الحياة، تعاني من نزفٍ شديد، ولا يبدو عليها آثارُ عنف، لا بدّ أنّ الإجهاض قد هاجمها وهي وحدها بالمنزل نظراً لتأخّرها في القدوم إلى هنا، جسدها ضئيلٌ للغاية، ودكتور النساء والتوليد يحاول جهده أن ينقذها.

- فليُنقذها اللهُ من أجل والدِها، فالرّجل يبدو شاحباً كالأموات، وكأنّ المصاب أفقده النّطق.

- لا تثقي كثيراً في سكونِ البشر، فقد يكونُ من هول الصّدمة، وقد يكون مجرّد واجهةٍ تخفي الكثيرَ من الخداع، ما يثيرُ ريبتي أنّها تبدو صغيرةً لتكون زوجةً، هذا إنّ كانت متزوّجة من الأساس،

سترك يا الله، ففي هذه المشفى نرى العجائب.

يتوقّف حديثهما، فتقربُ منه إحداهنّ:

- هلاً اتّخذت مقعداً، أخشى أن تسقطَ مغشياً عليك.

تنهي كلماتها دافعةً إليه بكوبٍ ماءٍ مُردفة:

- اشربْ بعضاً منه.

ينظرُ إلى الكوب بخُوء، مازالت كلماتُ زميلتها تطنّ برأسه
«إن كانت متزوّجة من الأساس» يشعر كمن أنسلخ عن نفسه،
كلماتها تؤذيه، وبنفس الوقت لا تترك بنفسه أثراً، بداخله هوةٌ تمتصّ
كلّ شيء؛ المشاعر.. الانفعالات، لكنّها لا تستطيع أن تمتصّ رهبةَ
الموقف وثقلَ المصيبة التي أصابت عقله ومشاعره بشللٍ مؤقت،
إذ يشعر بالخوفِ على ابنته، وبنفس الوقت يشعر بفداحةِ الموقف
لكونها فرطت بشرفها وألحقت العارَ به، بينما يتأرجح بداخله سؤالٌ
مستنكر: «أيّ جرم فعلته لأعاقبَ في ابنتي هكذا؟! وإن كان هناك
ذنبٌ اقترفته أنا؛ فلم تُعاقب هي؟»

ينفرجُ باب غرفة العمليات، فتخرجُ منه رحمة فاقدةٌ للوعي،
مدّدة على سريرٍ متحرّكٍ يدفعه ممرضٌ أمامه، ممّا دفع إسماعيل لسؤاله:
- إلى أين؟

فيجاوبه بعجالة:

- إلى وحدة العناية الفائقة.

قالها ومن ثم واصل دفعه غير مكترث له، مما حث إسماعيل على الهرولة خلفه:

- هل هي بخير؟

يواصل دفعه، بينما تتطاير منه الكلمات:

- لم تمت بعد.

- أيمكنني التحدث إلى الطبيب؟

- حينما يمر عليها بنهاية اليوم.

ما إن أنهى جملته كانا قد وصلا لغرفة الرعاية، حينها أكمل الممرض:

- الرعاية الفائقة خاصة فقط بالمرضى والأطباء؛ لذا لا يمكنك التواجد بالداخل، ألف سلامة على ابتك.

قالها راسماً ابتسامة صفراء على وجهه، بينما مدّ يده لإسماعيل كمن ينتظر منه أجراً! فما كان من إسماعيل إلا أن تجاهله مولياً إياه ظهره مستنداً على حائط الممر في انتظار قدوم الطبيب.

بركن منزو من ممر المشفى، وقف جلال يدخن لفافة تبغ بشروذ تام، بينما داخله يشتعل بحرائق الماضي!

(أنا جلال، وجلّ من لا يطأطئ للحياة حينما تتجبر عليه أو تمارس طقوس استقوائها؛ بل جلّ من يركن للصبر حينما تدعس

الأقدار شرّفه وتمنّع تدفّق الكرامة بعروقه، ولم أكن سوى سندٍ هشّ،
 جدار مهذّم لم يحتمل ضربةً واحدة حتى تساقط أرضاً، تاركاً «روعة»
 بالعراء لئن هدموني لينهشوا عرّضها، بينما اكتفيت حينها بالمشاهدة،
 فلم تكن لديّ الشجاعة للملمة شتائي والنّهوض مرّة أخرى محاولاً
 الخسارة بشرف، مكثتُ أرضاً كعادة الجبناء دافناً رأسي بالوَحْل، كي
 لا تقتلني رعونة فكري، أو تقتلني بقايا رجولة تبصّ بعروقي، لكنّ
 الماضي لا ينسى، ومواقفُ الجبناء تطاردهم للنّهاية، بأنباها المدبّبة
 ومخالباها الحادّة، غير سانحةٍ لهم بالفكّاك منها كغيلان الغابات
 الأسطورية، فما كان منّي إلّا أن تركت خييتي ومخاوفي - ومن قبلهم
 عاري - بالنّجع هارباً صوب القاهرة، تلك المدينة التي لا تكثرُ
 بك أو بأفعالك، ماضيك وحاضرك، ولا تعنيها ملابسك المملّخة
 بالخزي، أو نار الانتقام التي تحصد أيّامك...

- جلال، كم أعطاك هذا الكهل؟

صوتٌ عزّة قطع حديثه لنفسه، وأعاد له لواقعه، يتنهد بعمق، ثمّ
 يجاوبها ببرود:

- لم يعطني شيئاً يا عزّة، رجلٌ بخيل صلف، تنزّ منه رائحةُ الجذب.

- لأنّك تترفع عن الإلحاح في طلب البقشيش.

- لا أملك طينتك يا عزّة، لكنّ الفرصة مازالت سانحة، فهو

ينتظرُ أمام العناية الفائقة، هيّا أريني مهارتك.

تضحك عزة ضحكةً عالية لا تُسمع إلّا في الملاهي الليلية، بينما
تمشي بتقصّع لا يليقُ بزيّ ملائكة الرحمة الذي ترتديه، تقتربُ منه
فتحتسّس صدره بكفيّها، بينما تسدّد نظراتها في عمقِ عينيه:
- بحقّ عشقي لك، سأدفعه بقشيشًا من أجلنا نحنُ الاثنين،
وحينها سأنتظرُ مكافأتك لي.

قالتُها غامزة.

ينفضُ يدها بسرعة، وابتسامةٌ سخريةٌ تكلّل شفاهه، ليشابك
بعدها ذراعيه أمام صدره مشيرًا بكفه.. «أَنْ تفضّلي».
توليه ظهرها ومن ثمّ تغادر، بينما لسانُ حاله يردّد: ساقطة.

بمقهى لؤلؤة، جلس سيد وأبانوب أمام الطاولة في انتظار
الرجل المهمّ، دقّات الساعة تعلن تمام السادسة مساءً، وتتمام انقراط
عقد الصبر! فيندفع سيد سائلًا بيأس:
- لقد أصبحت السادسة ولم يأتِ الرجل بعد، أخشى ألا يأتي.
يتأفّف أبانوب ناهرًا «سيد»:

- إن كان لا يريد مقابلتك فلم حدّد الموعد من الأساس!!؟
توقّف عن القلق رجاءً.
يهزّ سيد ساقه بتوتر:

- ربّما، لكن ألا يجب علينا مهاتفته للاطمئنان عليه، وإعلامه

آننا بانتظاره.

- نطمئن على من يا سيد! الرجل لم يتأخر سوى دقيقة واحدة،
ما بك تبدو كمن يجلس فوق الرمال! اهدأ قليلاً وتحل بالصبر.
لم يكذب أنوب ينهي جملته حتى أشار لباب المقهى: ها هو قد أتى.
ينضم إليهما الشاب المهم، يبدو عليه الترف بميصبه الداكن
وبنطاله الأبيض من الكتان، دون أن يلقي السلام جلس إلى الطاولة،
نكس رأسه أرضاً كمن يفكر، ثم تكلم بآلية:

- هل الأوراق جاهزة؟

مد سيد يده بالأوراق مجيئاً:

- نعم.

يتسلم الشاب الأوراق منه:

- حسناً، سأتصل بك خلال يومين، لتسلم جواب التعيين، لا
تنس أن تحضر معك عشرين ألفاً.
ينظر إليه سيد بشك:

- سأحضر معي عشرة آلاف فقط، وباقي المبلغ سيتم إرساله
لك حينما أتسلم العمل.

يتأفف الشاب بصوت مسموع، بينما يكلل الغضب ملامحه،
يتدخل أنوب معنفاً بشدة:

- لا تجعل الباشا يستاء منك يا سيد، تلك هي القوانين التي

تسري على الجميع، الدّفع مقدّمًا.

بقلبي ردّد سيد:

- لكنني لم أتعامل معه من قبل، ولم أعتدّ شراء الأسهم وهي مازالت عالقةً بقاع البحر؛ لذا عليّ أن أحتاط جيدًا، فتلك الأموال لم أجمعها بين عشية وضحاها.

مازال الرجل المهمّ منكس الرأس، يدق الطاولة بقبضة يده، يسحب الأوراق من فوق الطاولة قائلاً:

- لا بأس، لكن عليك أن تفهم، أنّ هذا المال لا يدخل جيبي وحدي، وإنّما يدخل جيوبًا أخرى أهمّ وأكبر مني، وأنا لن أدفع نيابةً عنك، لذا سيؤثّر هذا بالطبع على مسمّى وظيفتك بالشركة ونوع الشركة أيضًا، العشرة آلاف هذه لا تشتري وظيفة عامل نظافةً بأصغر شركة صيانة للمواد البتروليّة، فلا تبتئس وتأنّف عند استلامك للعمل.

كلماته تجعل عيني سيد تدور يمينًا ويسارًا، التوتّر يجعل اهتزاز ساقه متسارعًا، يهّم الرجل المهمّ بالمغادرة فيستوقفه سيد صائحًا:

- حسنًا، أوافق، الأموال كاملة ستكون جاهزةً كما أمرت.

يهزّ الرجل المهمّ رأسه علامة الاتفاق، ومن ثمّ يغادر المقهى دون أن يلتفت للخلف مرّة أخرى.

- حقًا.. ما أصغرَ هذا العالم! مَنْ كان يصدّق أننا سنقابل
«جلال» هنا في القاهرة بعد هذه السنوات منذ غيابه عن النّجع!
- أنا أيضًا لم أصدّق عيني حينما رأيته أمّي.
ترفعُ أمّ بسيل حاجبها بتعجّب:
- لكنّ ما الذي أتى به إلى الحفل يا بسيل؟
- يقول إنّهُ قدِمَ إلى الحفل بصحبة خطيبته، والتي هي بالمناسبة
صديقة لسيّدتي زهرة.

كانت زهرة تنظرُ إلى الأرقام التي تظهر على لوحة مصعد البناية
دون اكتراثٍ لحديثهما، لكنّ ما إنّ ذكر اسمها حتى التفتت لبسيل
مستفسرة:

- صديقتي! أيّ واحدة منهنّ؟
- أشارَ إلى فتاة كانت تقفُ بجانبك وترتدي فستانًا ورديًا.
ترسمُ علاماتُ التعجّب على وجه زهرة، فلا فتاة كانت ترتدي
فستانًا ورديًا سوى عبير صديقتها، والتي تعلمُ جيدًا أنّها ليست
مخطوبة، أو على علاقةٍ بأحدِ الشباب.
- هل علمت مَنْ تكون يا زهرة؟

كانت هذه أمّ بسيل سائلة.
بملامح كلّلتها الحيرةُ أجابت:
- لم تكن هناك فتاة ترتدي فستانًا بهذا اللون سوى عبير

صديقتي، وأنا أعلم جيداً أنها ليست مخطوبة أو على علاقةٍ بشاب
ما، وهذا يحيرني كثيراً.

تنظرُ أمّ بسيل لابنها بنظراتٍ قلقة، بينما تردّد:

- لا عليك يا ابنتي، ربما أخطأ بسيل في تحديد لون الفستان.

بيادها بسيل النظراتِ ويلتزمُ الصمت.

ترفعُ زهرة كتفيها علامةً اللا اكتراث:

- ربّما.

عندها توقّف المصعد أمام الطابق الخاص بها، تتقدّم أمّ بسيل

لتهمّ بفتح باب الشقة سائحةً لزهرة بالمرور بينما تنادي ابنها:

- انتظرُ بنيّ، أريدك لحظةً قبل أن تصعد لغرفتك.

تركّهما زهرة وتدلّفُ للداخل، بينما تتابعها عينا أمّ بسيل، ما إن

اختفت عن أنظارها حتى التفتت لابنها:

- من الواضح أنّ «جلال» هذا كاذبٌ، ولا أعرف ما هي

دوافعه للكذب، وكيف علمَ بأمر تواجدنا بذاك المكان، كلّ ما

أعلمه أنّه يجبُ أن يبقى بعيداً عن زهرة.

- لم يا أمّي؟ فجلال صديقي منذ الصّغر، ولم يكن صاحب

سوء، ولم يؤذني يوماً أو يؤذي أحداً.

- لا أعلمُ بنيّ، كلّ ما أعلمه أنّ قلبي ليس مطمئنّاً لتلك

المصادفة، أيضاً لا تنسَ أنّه غائبٌ عن النّجع منذ سنوات، ولا نعلم

مدى التغيرات التي طرأت على أخلاقه وأفكاره أيضًا.

- حسنًا أمي كما تشائين.

- بارك الله فيك يا ولدي، ورضي عنك جرّاء طاعتك لي، هيا

اذهب لتنال قسطًا من الراحة، تصبح على الجنة يا قرّة عيني.

- تصبحين على الخير أمي.

أنهى بسيل جملته متّجهاً للمصعد، بينما كانت والدته تراقبه حتى

اختفى داخل المصعد، وقلبها يدعو:

- اللهم سترَك.

سالم.. أين أنت؟ لا تتركني وحيدة، سالم.. أرجوك، فقدتُ

طفلنا، سالم.. أحتاجك.

- أتنادي زوجها؟

تنظرُ باشمئزازٍ للفتاة الممدّدة على أحدِ الأسيّرة، والتي يبدو

عليها الوهن:

- ربّما عشيقها! فلا أحد يعلم إن كانت متزوجة أم لا، كلّ ما

أعرفه أنّها تهذي هكذا منذ أن أخرجوها من غرفة العمليات.

- ألنّ تنادي الطبيب، ربّما كانت مصابة بحمّى.

- ما بك يا جلال! لم تهتمّ بأمرها هكذا؟! ليست أوّل مريضة

تأتي لهذا المشفى، وبالطبع لن تكون الأخيرة، هدّئ من روعك، أم

أَنَّ الفتاة راقتك!

- دائماً لك نظرةٌ خاصّةٌ يا عَزّة، حقّاً أنا منبهٌ بمدى فراستك.
قالها متهمكماً.

- عدّ لرشدك يا جلال، الفتاة لديها رجلٌ بحياتها، تهذي باسمه
على الدّوام، اصرفْ عنها أنظارك، وابحثْ عن غيرها، لا تدري!
ربّما كان غيرها أَمَامَكَ لكنّك كبني جنسك، لا شهوة لكم سوى
الفاكهة المحرّمة.

قالتُها وهي تلوي فَمَها ووقفَتَها أيضاً.

- يا الله، أكَلْ هذا لَأَتْنِي طالبتك أن تنادي الطبيب ليتابع
حالتها، هذا من بابِ الإنسانيّة، أتعرفين تلك الكلمة؟
- كلّ ما أعرفه الآن هو بابُ العناية، والذي أرى أن تمرّ من
خلاله كي لا يصيبك منّي أذى، أمّا عن الطبيب فنحنُ في مشفى
حكومي وللطبيب أوقات محدّدة للمرور على مرضاه، لسنا في مشفى
(المواساة التخصّصي) لتستدعي الطبيب كلّما تأوّه أحدهم.
- لا داعيَ لهذه المحاضرة، أنا مغادرٌ، فقط لا تناديني مرّة أخرى.
- ناديتُك من أجل أن تتغلّ بي، فإذا بك تهتمّ بأخرى، رافعاً
شعار امرأة واحدة لا تكفي.

- ومَن قال إنَّك امرأة يا عَزّة؟

تشهقُ بصوتٍ مرتفع، ثمّ تتبعها بشخْرةٍ صاحبة:

- إن لم أكن امرأة، فماذا أكون يا جلال؟
- أنت عزة، صديقةُ الشباب، وهذا يمنحك وسامَ التفوق بلا منازع على بنات جنسك، أنت حيّة آدمية تقتات على صحّة الرجال، ممّا يدفعني لأنظرَ إليك نظرةً تقديسٍ لا نظرة شهوة.
- ترفعُ حاجبًا فوق الآخر، تصمتُ لبرهةٍ كمن يحاول فهمَ طلسماً:
- كلامُك معسولٌ بالسمِّ، لولا هيامي بك لأسمعتك ما لا يسرك أبداً.
- تعلمين أنك من حواها القلبُ يا عزة، فلا داعي لشكّك الدائم بي.
- ربّما عليك القيامُ بخطوةٍ من شأنها تبديد سُحبِ الشكِّ، السنون تمضي يا جلال، وقطارُ العمر لا ينتظر متلكئاً.
- يغيّر الموضوع سائلاً:
- هل حصلتِ على بقشيشٍ من والدها؟
- يكلّل الغضبُ والاشمئزاز ملاحظتها:
- ذاك النكرة لم يعطني شيئاً، بالرّغم من طينيني حوله قرابة الساعة، وبالنهاية تمدّد أمام العناية المركزة نائماً.
- أخبرتك ببخله لكنك أبيت التصديق، حسناً سأغادر الآن حتى لا يفتقدني أحد.
- جلال، أنا منأوبةٌ هذا المساء، والمكانُ يبدو موحشاً للغاية،

خاصّة في ساعات الليل المتأخرة، فهلاً مررت عليّ ليلاً كي تؤانسي
فلا أشعرُ بثقلِ السّاعات، سأبتاع لنا عشاءً فاخراً يُنسيك العالم كلّهُ،
عداي بالطبع.

- سأفكّر بالأمر، أراك لاحقاً.

أنهى جُمْلته مغادراً، بينما ملامح الفتاة الممدّدة على السرير لا
تفارق ملامحه.

* * *

- هل الأوراق جاهزة؟

- مهلاً أيّها الشاب، لستَ في غلايةٍ لسلق البيض، تلك الأمور
لا بدّ لها من إتقانٍ شديد، كي لا تأتيني خائباً لأنّنا بالنهاية، فتصبح
سمعتي على المحكّ.

يتأفّف سالم:

- وإن تأخّرت أنتَ عن تسليمي الأوراق بموعدها، أموالك
أيضاً ستصبح على المحكّ.

يقبّل الصائغ نرجيلته مغمضاً إحدى عينيه، كعازفٍ ناي يجرب
لحناً جديداً:

- هذا هو عيبكم معشرَ الشباب، التعجّل وقلة الخبرة، ألا
يقولون إنّ الثقل صنعة، اجلس بجانبني، انظر إليّ جيّداً وتعلّم،
صحيح.. أتحرك ببطء وروية لكنه تحرك سليم لا شيء فيه.

يزفرُ سالم بضيق:

- شكراً على عرضك السّخي، لكنني حقاً لا أملك وقتاً، لذا
أتمنى أن تنهي الأوراق قبل أن أمرّ عليك مساءً.

غادرَ سالم بعد أن أنهى جملته دون أن يزيد حرفاً، ممّا دفع الصائغ
ليقتل أرضاً مردداً بصوت منخفض:

- أصبح النّصب ساحةً للهواة، اللّعة على الثورة وثمارها!

* * *

ممدّدة بجانبه على الفراش، تقتربُ منه بدلال، تلفّ ذراعها
حول صدره مردّدة بحزن:

- أخشى أن تنساني ما إن تعاشر ابنة الأكابر.

يمدّ ذراعه إلى الكمود المجاور للفراش بحثاً عن علبة سجائره،
يمسكُ بها ثم يعدل من وضعيّة جسده فيساند ظهره إلى قائم
السرير ليصبح بذلك جالساً، ممّا دفعها لتقلّب على بطنها ساندةً
بذقنها على ساقه الممدودة منتظرةً منه نفيّاً، تقتنص أنامله سيجارةً
من العلبة يثبتها بين شفتيه ومن ثمّ يشعلها، ينظر إلى صفائر الليل
المنثورة على كتفيها نزولاً إلى ساقه، جسدها المرمريّ البضّ، ومن ثمّ
يعاود النظر لعينيها التي تشبه جرارَ العسل، لا يدري كم يحتاج من
الوقت ليزهدها؟ عددَ الغزوات التي وجب شنها على هذا الجسد
كي ينسى تضاريسه وتنطفئ شهوته لأنهار الخمر التي تفيض منه

والمسكرة لعقله، كم مرة قرّر أنها ستكون زيارته الأخيرة لها! كم مرة
عاهد نفسه ألا يمسيها! لكنه في كل مرة يعود إليها محملاً بالضغوط
والأعباء فتستقبله كأرضٍ عطشى، كمروج خضراء تستقيم بها غير
أفكاره وتتخفّف فيها من حمولتها، وكأنها نوع من المخدر، كلما ابتعد
عنها هاجمته أعراض الانسحاب لتسقط عزيمة أرضاً!
يستمرّ صمته ممّا دفعها لتنظر لعمق عينيه مردّدة:

- أتعلم! يمكنني قراءة ما يدور داخلك.

- وما الذي يدور داخلي يا روعة؟

تزحف على بطنها بساعديها لتقبّل صدره، ومن ثمّ تريح رأسها
الجميل عليه:

- تريد الابتعاد لكنك لا تستطيع، ثمّة شيء يجعلك متمّ إليّ،
يقيّدك بي، ولا أدري هل هذا من حسن حظّي أم من بؤسِه!!؟

ينهي سيجارته فيسحقها بسبّابته وإبهامه، ومن ثمّ يلقاها في
الطبق المجاور له، والذي يحوي بقايا عشاء البارحة، يجاوبها بتملّمل:

- أشعرُ بجوع شديد، سأتحمّم ريثما تعدّي لي طعام الفطور.

- ألا تحشى أن يراك أهل النّجع وأنت خارج من بيتي نهائاً؟

ينظرُ إليها وغضبٌ يلتمع بعينه:

- منذ متى وأنا أخشى أحدهم؟

يصمّت لبرهة وهو يتأمّل جلستها بين ساقيه، واستكانة رأسها

الصغير على صدره العريض، يمسك شعرها بغلظةٍ رافعاً رأسها لتلتقي أعينها:

- ما معنى سؤالك هذا؟ هل هو خوفٌ عليّ أم خوفٌ على نفسك؟ هل هناك آخرُ بحياتك وتحشين افتضاح أمرِك معي؟
تنهمرُ دموعُها جرّاء قسوته، تدفنُ رأسها بصدره وتحتضنه بكلّ ما أوتيت من قوّة:

- ليت أمرنا يُفتضح فيفسدَ زواجك من ابنة الأكابر، لتصبح لي بالنهاية، وينتهي عذابي.

دموعُها تفتّت قوّته وتهزّ ثباته، يترك شعرها ليدفعها من كتفها بقسوةٍ فيقلبها على ظهرها ليعتليها دونَ مقدّمات، فتستقبله باشتهاءٍ أرضٍ عطشى كعادتها.

- هل تنطقين الصّدق، أم إنّه حديثُ نسوةٍ فارغ لا أساس له؟
- قسمًا بالذي خلقتني وخلقنا جميعًا لا أقول إلّا الصّدق سيدتي،
لقد رأيته بعيني وهو يدلّف لبيتها ليلاً.

- ربّما كان ذلك محضُ صدفة، ربّما كان يطمئنّ على أحوالها،
تعلمين أنّها تحيا وحيدة، خاصّة بعد موت أبيها، واختفاء أخيها.

- وهذا سببٌ أدعى لئلا يزورها ليلاً ويدلفَ لدارها فيصبحا
اثنين وثالتهما الشيطان!

- لا أصدّق يا زينب، أريد دليلاً مادياً أراه بعيني.
- مثل ماذا؟ ليتني أشرّف بزيارتك سيدتي، فداري أُمّام دارها،
ويمكنك حينها أن تريّ بعينك مَنْ يدقّ بابها.
تطرقُ برأسها مفكّرة لبرهة:
- هل معك هاتفٌ مزوّد بكاميرا؟
تهزّ زينب رأسها نفياً:
- لا، لكن ولدي لديه واحد.
- هل يمكنك استخدامه؟
- سأحاول، يقول ولدي إنّ الأمر سهلٌ للغاية.
- حسناً يا زينب، لا أريد أيّ حديث بخصوص هذا الشأن
حتى تأتيني بصورة واضحة لتليد وهو يدلف لدار روعة، واعلمي
بأنّه غير مصرّح لك بإفشاء أيّ كلمة ممّا قيل بيننا ولا حتى لزوّجك،
لأنّك لو فعلتِ هذا فلن أرحمك، هيّا اذهبي.
- أمرك سيدتي.
- قالتّها زينب وهي ترجعُ بظهرها للخلف هامة بالمغادرة،
كجارية تخشى أن تولي ظهرها لسيدتها فتعاقبها بإطاحة رأسها.
تنهّد فاطمة بحنق:
- صبراً يا تليد، صبراً، قسمًا برّب النّاس إن كان صحيحًا ما
سمعت؛ فلن ترى منّي خيرًا.

- تليد، أين كنت؟

يدلف تليدٌ لمجلس بيت المسلماني بتناقل، ينظرُ إلى جلسة صالح ابن عمّه فوق كرسي كبير العائلة الضخم الذي يتوسّط الحجرة، كملكٍ يعتلي العرش، ثمّ فكّر بينه وبين نفسه «كمّ يمنح هذا الكرسي صاحبه مهابةً لا تخطئها عينٌ، ولا تنكرها نفسٌ حاقدة! ذاك الكرسي الذي كاد يكونُ لي، لولا مئات الوحدات من الذكاء التي باعدت بيني وبينه ورجّحت كفة صالح! صالح القوي، الذكي، العصيّ العصبي، ذئب البراري صاحبُ العضلات العقلية التي طرحت شخصيتي أرضاً، وأحالتني لمجرّد ظلّ بجانبه»

يشيخُ بنظراته بعيداً عن صالح متفرّساً في أنحاء المجلس، ذاك المجلس الذي شهد تجمّع كبار العائلة ذات يومٍ ليعقدوا قرانه على زهرة، فاتنة عائلة المسلماني، شاميّة الملامح، فاكهة عامر المسلماني المحرّمة، والتي تسابق شبابُ العائلة من أجل نيلها دون جدوى؛ ولأنّ خلافة كبير العائلة كانت تتأرجح بينه وبين صالح، تمّ الاتفاق بين والده وعمّه عامر، أن يتولّى صالح الخلافة، ويفوز هو بزهرة فيصبحُ بذلك عضداً له!

لكنّ منذ متى كان الفوز بأنثى هدفاً ونصراً! أو تعويضاً مجزياً عن النّفوذ والسلطة؟! فالأنثى خلقت للمتعة ولتفريغ شهواتنا وإحباطاتنا، ولإحراز انتصاراتٍ بساحتها كلّما هزمتنا الحياة

وأسقطتنا أرضًا، لذا بنظرٍ تليد لا يمكنُ لزهرة أو لرُوعة، أو لأيِّ امرأةٍ بالعالم أن تعوّضه عمّا سُلِب منه!

ترتسمُ ابتسامةٌ ساخرة على وجهه، بينما يردّد لسانُ حاله «لعنة الله على صانعي الأوهام ومريديها، فكلّ ما احتاجوه حينها لإسكاتي نصف جرامٍ من الوهم وضَعوه بعقولٍ الجميع فأمّنوا به»

- تفرّسك في أنحاء المجلس لن يمنعني من سماع أفكارك، حاول أن تخفض صوتها قليلًا؛ فهي تسبّب لي الاشمئزاز.

مازالت الابتسامةُ الساخرة تزيّن وجهه، يتقدّم نحو صالح فيتخذ مقعدًا واضعًا ساقًا فوق الأخرى:

- أصبحت تقرأ الأفكار، وعمّا قريب ستقرأ الطّالِع أيضًا، مَنْ يعلم! ربّما رأيت بمنامك نبوءة تحبّرك بأنك يدُ الله على الأرض، كما تنبّأت بقدومك العرافة؟

يسدّد صالح نظراته الخبيثة تجاهه، كحيوانٍ ضارٍ يستمتع بمحاولات فريسته للفكاك من حصاره:

- تهكّم كما تشاء، سدّد سهام كلماتك كما تفعل النساء، فالعبرةُ بالأفعال لا الأقوال، وبعضُ الأفعال تكمن عظمتها في المباغثة لا في إحكام تنفيذها، التّوقيت مهمٌّ جدًّا، لكنك لن تفهم ذلك أبدًا، لأنّك تتوقّع دائمًا أن يعمل عقلُ الآخرين كما يعمل عقلك، وهنا تكمنُ مُعضلتك.

- لطالما كنتَ ابنَ المسلماني الذكي العاقل الفيلسفي، والابنَ
النجيب لعلماء الصعيد ولحكماؤه أيضًا، فقد أسرفَ عمِّي، رحمه الله،
في تعليمك حدًّا أن جعلك تتفوّه بكلماتٍ رثانةٍ لكنّها فارغة على
الأغلب، لذا لن أجادلَ معك كثيرًا، لم أرسلتَ في طلبي؟
يقلّب صالح كفيّه أمامه، مردّدًا بلا اكتراث:

- تعلم أنّني أرسلت «بسيل» بصحبة زوجتك لحمايتها حتّى
تنهي تعليمها الجامعي، لذا وجب علينا مكافأته، أليس كذلك؟
يهزّ تليد رأسه بخفّة مفلتًا ضحكةً متهمّكة:

- لا تقلّ زوجتي، فزواجنا مسمّى فارغ لا أكثر، لذا هي أختك
فقط، أمّا بالنسبة لبسيل، فالأمر لا يعنيني، افعل ما يحلو لك.
يتسّم صالح ابتسامةً صفراء ما إن اعتلت وجهه حتّى تساقطت
أرضًا، وحلّ محلّها الجمود:

- ما رأيك بروعة كزوجة لبسيل؟
نيرانٌ من غضبٍ تنشبُ في مروج روحه، يسأله بترقّب حذر:
- روعة من؟

يسدّد نظراته إلى عمق عينه:

- روعة بنت هريدي وأخت جلال، أنسيتها بهذه السّهولة! لا
أعتقد أنّ ذاكرتك ضبابيّة تتبدّد عند كلّ إشراق يا تليد.
يضيق عينيه بوعيد:

- أنا لا أنسى أبدًا يا صالح، أنا أتناسى حتّى أبلغ هدفى، حينها فقط أغوص عميقًا في محيطات ذاكرتي المَعْتمة لأنّ تقي منها ما يجعل لحظة انتقامي في قَمّة عظمتها.

يبتسمُ صالح متَهكِّمًا:

- أعتقد أنّك ستنتظر طويلًا من أجل هذه اللّحظة، حاذرٌ من سقف الطّموحات يا تليد، فهو غالبًا ما يسقط فوق الرّؤوس دون سابق إنذار.

- قد يكون قريبًا وتراه بعيدًا.

- ربّما، لكن صدّقني، بالنهاية لن تأخذ أكثر ممّا قد أمْنَحُه لك، ولن تذهب أبعد ممّا أسمح أنا به.

ينهي جُمْلته مسدّدًا نظرة تحدّ لعمق عين تليد، والذي بدوّره بادلّه النظرات المتحدّية، ظلًّا على حالهما لبرهة وكأَنَّهما حيوانان في وضع قتال، كلُّ منهما يشحذ أسنانه ومخالبه! حتّى أرخى صالح ظهره على كرسيه راسمًا ابتسامة هازئة على وجهه، بينما طلّت من عينيه نظرة مآكرة:

- حسنًا، سأجعل والدتي تستقدّم الفتاة لتحيا ببيت المسلماني حتّى يتسلّمها زوجها مني.

يجزّ تليد على ضروسه:

- ولم روعة؟

- ولم لا؟

- فتاةٌ بلا أهل، بلا نسب، وبسيل رجلنا، ولا بدّ من إكرامه
بفتاةٍ ذات عائلة مناسبة تجعل رأسه عاليًا.

- وهل هناك ما يسوء روعة؟

قالها ونظرةٌ خبيثٌ تتجلى على وجهه، نظرةٌ أخبرت «تليد» بأنّه
يعلم كلّ شيء، لكنّ رقص الأفاعي الدائر بينهما يروقه كثيرًا.
يكظّم تليد غضبه بزفرة عميقة:

- لا شيء، كان هذا اقتراحًا فقط، هل هذا ما أرسلت إليّ من أجله؟
- لا.. هناك أمرٌ آخر.

صمتَ برهةً ومن ثمّ أكمل:

- سأسافر للقاهرة بضعة أيام لأنهي عقود الشركة الألمانية
للأغذية، سأترك النّجع بقيادتك، حاول ألاّ تحيله إلى محرقة.

- أنا قادمة.

قالتُها وهي تفتح باب الشقة.

- بسيل! ما الذي جاء بك مبكرًا؟ لم أنت هنا ولست بانتظار
زهرة أمام الجامعة؟

يدلفُ للشقّة، بينما هي تنظرُ للسّاعة المعلقة على جدار الحائط،
يتّخذ مقعدًا والاضطرابُ يلوّن محيّاها:

- أمّي، اكتشفت شيئًا مهمًّا، عليّ إخبارك به.

تنظرُ إليه بحذر:

- ما هو؟ هل هو بخصوص زهرة؟
- يهزّ رأسه نفيًا، زافرًا نفسًا عميقًا كَمَن يحمل همًّا:
- أتذكرينَ تلكَ الحوالة التي تُرسلها لتلك المرأة!

تنظرُ إليه بعدمِ فهم:

- أيّ حوالة تقصد؟

يجاوبها بصبر:

- التي ترسلينها لتلك السيدة التي تكفلُها سيدتي فاطمة.

تجاوبه والانزعاجُ يلَوْن محيّاها:

- نعمُ تذكّرتها، ما بها؟

- نظرًا لكثرة محاضرات الآنسة زهرة، وبما إنني لا أفعل شيئًا

سوى الانتظار؛ قرّرت الذهاب إلى مكتب البريد لإرسال الحوالة
كما أمرتني، كان هذا منذ أسبوع مضى.

- خيرًا فعلتَ يا بني، ما المعضلة إذًا؟

- المعضلة أنّ مكتب البريد اتّصل بي اليوم ليخبرني أنّ العنوان

خاطئ، وأنّ قاطنَ هذا العنوان لا يحمل هذا الاسم.

- كيف هذا؟! وماذا عن الحوالات التي أرسلت من قبل؟

أعادتُ أيضًا؟

- سألتهم عن ذلك، وبعد بحثٍ وتدقيق تبين أنّ آخر حوالة

قد سلّمت لأصحابها، لكنّ هذه المرّة أصبح للعنوان قاطنٌ جديد،
أيّ أنّ تلك السيدة قد باعت منزلها لشخصٍ آخر، هذا هو المرجّح.
تصمّت لبرهة وكأَنَّها تستوعب الموقف، دقّات السّاعة تنتشلها
من صمّتها، تنظر إليها.. ومن ثمّ تعاود النظر إلى ابنها:

- حسنًا بنيّ، اذهب الآن وانتظرُ زهرة لتصبحها كما المعتاد،
ولنا حديثٌ آخر حين عودتكما، هيّا.
يستقيمُ واقفاً:

- حسنًا أمّي، أراك لاحقًا.
أنهى جملته هامًّا بمغادرة المنزل.
تغلّق الباب خلفه، وآلافُ الأسئلة تعصف بداخلها:
- أينَ ذهبتِ يا سعدية؟ يا الله.. ماذا عليّ أن أخبر فاطمة؟

الفصل التاسع

كان صالح جالسًا أمام مكتبه، يهزّ كرسيه تارةً ذات اليمين وتارةً ذات الشمال في تتابع مُنتظم، يتذكّر والده وكيف تولّاه برعايته منذ الصّغر، فبالرغم من أنّه ولده الوحيد بجانب ثلاثة إخوة من الإناث، إلّا أنّ والده لم يعامله يومًا كشجرة نادرة وجبّ عليه إحاطتها بأسوار عالية خشية أيادي الزمن، بل دفعه لمعترك الحياة وعلمّه ما لا يُمكن لوالد أن يعلم ولده؛ علمه الاتزان وقت انفلات الأعصاب، ورباطة الجأش وقت الصعاب، أن يحيا كذئب لا يخشى الكلاب، أنّ البشر مجرد طابات يمكنه تحريكهم كيفما شاء، لذا لم تكن خلافته لمنصب كبير العائلة شيئًا بعيد المنال؛ عكس تليد الأممي الغبي الذي لا يزن في سوق الرّجال أكثر من فتى ساذج، ويبدو أنّ العائلة كانت تشاركه الرأي، فجميعهم وافقوا على تولّيه للخلافة تاركين «تليد» يتلوّى غيظًا.

لكنّ والده - بحكمته - كان يدرك أنّه من التّهور تركّ عود ثقابٍ مشتعل داخل مخزنٍ للوقود، وأنّ العزل لا يمنع وقوع الأذى، لكنّ الإلهاء يفعل، يطفئ حروبًا ويُشعل حروبًا أخرى، وقد يمنحنا

وقتاً لنحكّم الدائرة على عدوّنا فنوقعه أرضاً كذبيحةٍ تنتظر نصالنا الحادّة! وتليد كلبٌ أجرب، تشمئز لفكره وحديثه، وقد يصيب الآخرين بعدّواه، ولم يكنُ لديهما النيةُ في تركه طليقاً ليقلب الآخرين في سموم أفكاره، لذا لم يكنُ أمامهما سوى إلهائه بعظمةٍ تشعره بأنّه كلبُهما المحبّب، وتوغر قلوبَ رجال العائلة تجاهه حقداً وحسداً، ولم تكن هناك عظمة يتهافتُ عليها رجال العائلة سوى زهرة، أجملُ فتاة بعائلة المسلماني وبالنّجع على الإطلاق، ينتهّد بحقن لإدراكه أنّ تلك العظمة صارت شوكةً بخاصره يستخدمها تليد كلّما أراد أن يهزّ مكانته أمام العائلة، لكنّ هيهات، فكيف لطفل غبي مثله أن يهدم صرحاً بهذا الذكاء! كم يبدو الإنسانُ مضحكاً حينما يحاول محاربة الريح، تصبح حركاته هزليّة لا تجلب سوى ضحكات السّخرية، لذا لا يسعه إلّا الضحك بسخريةٍ كلّما رأى «تليد» أمامه.

- صالح، أريد التحدّث معك.

ينظرُ لوالدته الواقفة أمام مكتبه، وبداخله سؤالٌ متمرّد يتردّد.. «لم كان على الموت أن يختار أبي؟ أما كان من الأفضل أن يختار والدي؟» يغمضُ عينيه وداخله يستغفر، يصمتُ لبرهة، ومن ثمّ يدعوها للجلوس بإشارةٍ من يده:

- وأنا أيضاً أريد التحدّث معك أمّي قبل أن أغادر للقاهرة.

- تغادر للقاهرة!

قالتُها بتعجّب.

- لديّ أعمال هناك.

- وهل ستمرّ على أختك؟

- ربّما، إن أتيحت لي الفرصة، حسناً.. ما هو الأمر الذي تودّين

التحدّث بشأنه؟

تجلّس على المقعد المقابل لمكتبه، يبدو عليها الاضطراب والقلق،
تدفع إليه بهاتفٍ محمول فوق مكتبه:

- هل تعلم أنّ «تليد» يزور روعة ببيتها ليلاً؟!

ينظرُ للصور المعروضة على شاشة الهاتف بلا اكتراث، ثمّ ينظر
لخاتم والده بنصره، يلفّه حول أصبعه، يتذكّر ملامحه ويتذكّر أيامهما
معاً والخبايا التي جمعتهما:

- نعم أعلم.

تحدّ نظراتها:

- تعلم! من أين لك بهذا الهدوء؟!

يتنّهّد بصبر:

- تليد رجلٌ يا أمّي، وله احتياجاته الجسدية، لذا لا يمكنني
محاسبته عليها؛ فهي أمرٌ طبيعي.

- وأختك؟

- ما بها! أعتقد أنّها من دفعت «تليد» لذلك بإرجائها إتمام

الزّواج حين الانتهاء من دراستها، فبأيّ حقّ نلومه!

يشعرُ بها تحترقُ من برودته، الغضبُ يكلّل ملامحها:

- إذا ستركُ يمضي هكذا في علاقته بروعة مسدّداً الإهانة
لأختك ولك أيضاً، لا تنسَ أن هيبة زهرة جزءٌ من هيبتك.

- وهذا ما دفعني للتحرك يا أمي، ليس من أجل زهرة، بل من
أجلي وحدي، وهذا ما كنت أنوي التّحدث إليك بشأنه.

يصمتُ لبرهة، ومن ثمّ يشابك يده فوق المكتب مكملاً:

- سأزوّج روعة لبسيل، وبذلك أحرم «تليد» تسليته الرّاهنة
مؤقّتاً، لكنني لا أضمن أن يوقفه ذلك عن تكرار الأمر حتى تنتهي
ابنتك من هُوها، لذا من اليوم عليك أن تأتي بروعة لتحيا هنا بمنزل
العائلة حتى عودة بسيل، ويتمّ الزفاف، فبسيل رجلنا وعلينا في
النهاية أن نحمي عروسه من الدّنس.

علاماتُ عدم الفهم تكحلّ محيّاه، عيناها جاحظة وكأثما
تكذب أذنها، تصيح عاليًا:

- بسيل! بسيل من؟

يجاوبها باستهجان:

- وكم بسيل لدينا؟ ابن خالتي رئيسة!

- أتزوّج روعة لبسيل رجلنا الطيّب الطّاهر دمث الخلق،
أكونُ هذه مكافأتك له؟ أكون هذا عرفانك لخالتك رئيسة التي

تركت دارها وأرضها لتبقى بجانب أختك خلال سنوات دراستها؟
لن أوافق على هذه الزيجة، ولن أستقبل فتاة دنسة كروعة بيتي.
- ليس بيتك وحدك سيدة فاطمة، إنه بيت عائلة المسلماني.
- ربّما، لكنني والدّة كبير العائلة، وليّ احتراممي، حتى وإنّ قلّلت منه أنت.

- أمّي، الأمر لا يحتمل كلّ هذا الغضب، اهدئي رجاءً، ولا تحيل الأمر لساحة معركة يتقاتل فيها كلانا كعادتك كلّما تعارضت أفكارنا.

تنهض صائحة بغضبٍ ساحبةً الهاتف من أمامه:
- أخبرتك رأيي، هذا الزّواج لن يحدث، وعليك إيجاد حلّ آخر لمعضلة تليد هذه.

أنهت جملتها مغادرةً دون أن تزيد كلمة!

يقف سيد متوتراً، الطريق خالٍ، والظلام حالك إلا من ضوء القمر، المنطقة شبه خالية من البشر، ينتشر بها بنايات مازالت تحت الإنشاء، لا يعلم لم اختار الرجل المهمّ هذه المنطقة تحديداً لتسليم الأوراق! صحيح أنها بالقرب من المطار، لكنها تبدو مريبة، جيّد أنّ أبانوب وافق على القدوم معه، وإلاّ قبيلةً من الجرذان كانت لتلهو داخل صدره الآن، ينظر لساعة هاتفه النقال مردّداً:

- تأخر كثيرًا، ألا تعتقد ذلك؟
- يرفع أبانوب كتفيه بلا اكتراث:
- أموالك مازالت بجيبك، إن شعرت بالملل أو بالغضب يمكنك المغادرة.
- ألا يمكنك طمأنتي عوضًا عن قطع الثلج هذه التي تتساقط من فيمك!!؟
- فقط أخبرك الحقائق.
- فقط لو أعرف لم اختار هذا المكان!؟
- ردّدها سيد وهو يركل حجرًا أمامه بحنق، ينظرُ في البعيد فيجد سيارةً تقترب، يخاطب أبانوب مشيرًا تجاهها:
- هناك سيارة تقترب، أيمن أن يكون هو؟
- يسدّد أبانوب نظره حيث يشير مجاوبًا بتردد:
- ربّما.
- تقترب السيارة منهما لتتوقّف بجانبهما، ينخفض الزّجاج المُعتم لإحدى النوافذ فتتمدّد من داخله يد الشابّ المهمّ حاملةً لمظروف:
- هذه مسوّغاتُ التّعيين كاملة، كلّ ما عليك هو الدّهاب إلى عنوان الشركة المُدرج بالأوراق واستلام عملك صباح الغد، هل أموالِي معك؟
- يلتقطُ سيد المظروفَ من يده، فيهمّ بمطالعة الأوراق بداخله،

بينما يجاوبه وهو يتفحص الأوراق كخبير متمرس في تلك الأمور:
- بالطبع العشرون ألفاً جاهزة، يمكنك عدّها ريثما أُنْفَخَصَ الأختام.
أنهى جملته وهو يدفعُ إليه بلفّة بلاستيكية سوداء التقطها الشاب
من يده، ومن ثمّ شرعَ في عدّها.

- شركة صان مصر؟ ألم تجد غيرَ هذه الشّرْكة؟ ما العيب في بتروجت؟
ينهي الشابّ عدّ النقود، ومن ثمّ يودعها جيبه:
- لا عيبَ بها على الإطلاق، لكنّ العملَ بها يتطلّب أضعاف
العشرين ألفاً خاصّتك، هل انتهينا هنا؟
أعاد سيد الأوراق إلى المظروف بعد أن اطمأنّ للإمضاءات
والأختام، ثمّ جاوبه:

- أعتقدُ ذلك، سعدت بالتعامل معك أستاذ... لم أتشرّف
باسمك بعد!

يديرُ الشاب مقودَ السيّاة هامّاً بالانطلاق، بينما يصيحُ عاليّاً:
- هذا أفضلُ لك.

قالها والسيّارة تنطلق بأقصى سرعةٍ كوحش يطارد فريسة.
يلتفتُ سيد لأبانوب الذي وجدّه يهَمّ بالمغادرة هو الآخرُ مردّداً:
- أعتقدُ أنّك لم تعدّ بحاجةٍ إليّ، مبارك يا سيد أتمنّى لك التوفيق.
- انتظر.

قالها سيد وهو يخرجُ من جيبه لفّة من الأوراق المالية فئة المائة

جنيهاً، دفعها لأبانوب، ومن ثم أكمل:

- تفضّل هذه خمسمائة جنية، هي لك فأنا لا أنسى وعدي أبداً.

يتصنّع أبانوب الخجل:

- لا، لن أقبل هذه الأموال، فأنا لم أفعل شيئاً.

- عليك أن تفعل لأنّ هذا كان اتفاقنا، تصلني بالرجل المهمّ

فتحصل على عمولتك.

يمدّ أبانوب يده قابضاً على الأموال بلهفة:

- حسناً.. إن كنت مصرّاً، أراك لاحقاً.

أنهى جملته مغادراً، تاركاً «سيد» ممسكاً بالمظروف، وعلاماتُ

الراحة بادية على وجهه.

- مينا، اذهب لتعيّد هذه الملابس والإكسسوارات وقبلهما

شعرك المستعار هذا من حيث استأجرتهم، ولا تخبرني بأنك تبدو

وسيماً بهذا الشعر، أو أنّ ذقنك المرسومة هذه تجعل إطلالتك

كالممثلين الأتراك، فلم أجد ممثلاً تركياً واحداً يمتلك كرشاً كالذي

يزحف فوق صدرك هذا.

بتأفف ردّد مينا:

- ما مشكلتك مع شعري المستعار! وما الخطأ في كوني أجدّ

نفسياً وسيماً بهذا الشكل، ولم لا يمكنني الاستمرار هكذا؟

- لمَ لا! معك حقّ، يمكنك الاحتفاظ بهما إلى أن تلتفّ أصفاد الشرطة الحديدية حول معصمينا.

- هذا دأّبك، تخلع كتفّ طموحاتي كلّما اشتدّ ساعده.
يقهقه سالم عاليًا:

- أخلعُ ماذا؟ هذه أوّل مرّة أسمع فيها تعبيرًا بليغًا كهذا، أهنأك صلة قرابة بينه وبين (أهدمُ سقف طموحاتك)؟

يصيح مينا غاضبًا وهو يقترب من سالم شاهراً قبضته:

- ربّما عليّ التعامل معك بقبضتي عوضًا عن الكلمات.
يرفع سالم يده بالأموال مقهقهًا:

- أعتقد أنّ قبضتك سترتخي أمام هذه.

مشهدُ الأموال بقبضة سالم يسقطُ قبضة مينا بجانبه، بينما يتلع ريقه بصعوبة:

- عشرون ألفًا بهذه السّهولة، دون عناء، ليتنا نجد صيدًا سهلاً كهذا كلّ يوم.

- مازال لدينا صيدٌ بالفعل.

- تقصد والدَ رحمة؟ ألا يجب علينا أن نهدأ قليلًا كي لا نلفّت

الأنظار إلينا؟

- المنطقة التي يحصّل بها الفواتير راقية، وأهلها مسلمون، وهذه

فرصة قد لا تتكرّر مرّة أخرى، لذا علينا انتهازها، ومن ثمّ نأخذ وقتًا

مستقطعاً لالتقاط الأنفاس، هيّا اذهب وافعل ما طلبته منك، وحينما
تعود سأصطحبك لسهرة خاصة مكافأة لنا.

- فقط احرص على أن يكون بها الكثير من الطعام.
قالها مينا وهو يجمع الأغراض هامًا بالمغادرة تاركًا سالم يقسم
الأموال ويعدّ الخطط .

* * *

الجوّ حارّ خانق، جسدها كقطعة لحم تقام على شرفه حفلة
شواء! العتمة تحيط بها، آلامٌ منتشرة ببطنها، حلّقها كأنها حُشرت به
كرة قطنية تمنعها من ابتلاع ريقها، أنفاسها ضيقة تشعر معها بصعوبة
في التنفس، تباغتُها الآلام دفعةً واحدة ومعهما تعاودُها الذّاكرة أيضًا
«خطّ من الدماء، طرقها المستمرّ على باب غرفتها، صراخها المتكرّر
حتى بُحّ صوتها، جنيئها...» تذكّرها لطفها دفعها لتمسح على
بطنها، فتساقط دموعها وتنطلق من فمها صرخة ألم:

- ابني..

- هل أنت بخير؟

يزدادُ نحيبها المختنق، بينما الظلام يتكاثر بساء وعيها، فيرتفع
صوتُ أنينها.

نحيبها يوخر قلبه، عيونها المحترقة بالدمع تذكّره بعيون روعة
الباكية عندما كان يقسو عليها! لا يدري لم كلّما طالع وجهها تذكّر

رُوعَة! لا ليس وجهها، بل ضعفها، وربّما ذاك اليتيم الذي يطلّ من
عينها، ذاك الضّياع الذي صبغ صوتها يوم أن أخبرها بمغادرته
للنّجع هاربًا، كلّ ما يدركه هو، أنّها تثير بداخله حمائية لا حدّ لها،
ورغبة ملحة في تخفيف آلامها!

- والدك بالخارج، أترغبين في رؤيته؟

سألها في محاولة منه لتهدئتها.

تتّسع عيناها ذعرًا:

- لا، لا أريد رؤيته، أخبره أنّ السّلامة لم تكتب لي، وأنّ الموت

الذي عانق جنيني؛ لم ينسَ معانقني.

ينظرُ إليها بريبة وشكّ:

- ألهذه الدرجة؟

يزدادُ نحيبُها ورعبها:

- حلّفتك بالله أن تساعدني، سيقْتلني أبي لا محالة.

الأفكارُ السوداء تمطرُ عقله، بينما لسانُ حاله يردّد.. «عاهرة»

أخرى تقابلها بحياتك يا جلال، وكأنّ حياتك طريقٌ مخصّص لمرور

العاهرات!»

تتغيّر نظرتُه إليها، بطريقةٍ ما شعر أنّه ما عاد يرى ملامح رُوعَة

بوجهها! رُوعَة البريئة المراهقة، وإنّما أصبح يرى الوجه الآخر

لرُوعَة، رُوعَة الفاجرة، يقطع ضجيجُ أفكاره:

- حسناً إن كانت هذه رغبتك، هل هناك أحدٌ يمكنه مساعدتك؟

علاماتُ الفكر تكَلَّل ملامحها المبلّلة بالدمع، تنظر إليه والتردد يتراقص على شفّتها، تبتلع ريقها بصعوبة:

- هناك.. زوجي، هل يمكنك مساعدتي في الاتصال به؟
ينظرُ ليدها الخاوية من محبس الزّواج، وابتسامةٌ سخريةٌ تطلّ من عينيه:

- بالطبع، لم لا؟
أنهى جُمْلته متفرساً في أنحاء العناية المركزة ليتأكّد من خلوّها من طاقم التمريض، ومن ثمّ ناولها هاتفه الشّخصي.
تمدّد يدها في لهفةٍ مُلتقطة الهاتف، تغمض عينيهَا لبرهةٍ، ومن ثمّ تكوّن رقماً وتتّصل!

- سالم، إنّها أنا رحمة، لقد فقدتُ طفلنا.
أنهت جُمْلتها باكية.
يأتيها صوته من الطرف الآخر:
- جيّد أنّك حسمت أمرك.
تجاوبه بجزع:

- لم يكنْ قراري، فقدتُه رغماً عني، سالم أنا بالمشفى، أبي سيقتلني، أرجوك لم يعد لي سواك، أنا في حاجة إليك.

خطّ المكالمة يقطع، تتّسع عيناها بصدمة، تتفرّس في شاشة
الهاتف غير مصدّقة، ترتخي يدها الممسكة بالهاتف في انهزام:

- لقد انتهيت.

قالتها منتحبة.

هنا كان على شيطان جلال أن يتدخّل، أن يخفي أنيابه السوداء
خلف ابتسامته الملائكية! يأخذ الهاتف من يدها المرتخية قائلاً بحنو:
- لا تخشي شيئاً، لن يمسّك أحدٌهم بسوء، هذا وعدٌ منّي.

تنظرُ إليه من وسط دموعها وتشتتها:

- لم تفعل هذا؟

- لأنّك تذكّرني بأختي الصغيرة، رحمها الله.

تغمضُ عينيها بإرهاق، بينما يشقّ الدّمع أخاديه على صفحة
وجهها، فهذا الوضع أكبرُ من مداركها، وأكبرُ من قدرتها على الاحتمال.

- من المتّصل؟

- رحمة.

- رحمة! ما الذي تريده؟

يرتدي سالم الجاكت الجلدي ثمّ يتبعه بتعليق المسدّس بسرّوالة
الدّاخلي، كي لا تلاحظه الأعين:

- فقدتِ الجنين، وتريد أن تراني.

- وأين هي؟
- بالمشفى، تنتظر الفارس المغوار لإنقاذها.
- ووالدُها؟
- يتأفف سالم:
- لا أعلم.
- يجلس مينا على طرف الفراش:
- هل سيذهب للعمل اليوم؟
- ربّما.
- ماذا دهاك! هل ستتبع الفراغ عوضاً عنه؟
- لا يمكننا التنبؤ بأيّ شيء، ربّما سيظلّ بجانبها، وربّما سيذهبُ
- للعمل هرباً من المصيبة التي لحقت به.
- يهزّ مينا رأسه بعدم رضا:
- سالم، قلبي غير مرتاح لهذا الأمر.
- وهل كان يشعر بالراحة خلال سرقاتنا السابقة؟
- فقط أشعر أنّ الأمر هذه المرّة مختلف.
- يصيح فيه بصوت عال:
- مينا، أنا ذاهب إن شئت اللّحاق بي.. تعرف مكاني جيداً.
- أنهى جملته مغادراً الغرفة.

* * *

السّاعة السابعة صباحًا، مازال إسماعيل أمامَ العناية المركزة بانتظار الطبيب كي يطمئنّ على حالة رحمة، ولا يبدو أنّ أحدًا سيقوم بالمرور، فالمشفى في حالة سبات تامّ! لذا لم يجد أمامه سوى الجلوس على درجات السلم المقابل لوحدة العناية المركزة، يتأمّله طاقم التمريض بجشع، كلّ منهم يريد أن يقتاتَ على دمه بحجّة سلامة ابنته، أين السلامة وابنته قضت على شرفها، وكادت تفقد حياتها جرّاء كذبها!

غريبةٌ هي مشاعر البشر، ما بين عشية وضحاها تتغيّر وتبدّل كما تبدّل الفصول والأيام، لا شيء يبقى على حاله، بالأمس كان في حالة هلع من فقدان ابنته، وتضرّع إلى الله كي يردها إليه سالمة، واليوم طغت مشاعر الغضب فتملّكت قلبه وروحه! يتجلّى أمامه وجه فاطمة، فيشعر - ولأوّل مرّة - بمدى دناءته وخسسته معها، سيّاط من ذنبٍ تلسعُ روحه، يصدح بداخله صوتٌ قوي «إنّه ذنب فاطمة!» - الطبيب لن يمرّ إلّا بتمام الحادية عشرة، لذا يمكنك الذهاب إلى منزلك لنيل قسطٍ من الراحة حتى يحين موعده.

كان هذا الممرّض اللّزج الذي كان يدفع سريرَ ابنته بالأمس، ينظرُ إسماعيل للأرض غير مكترث لما يقول ملتزمًا الصمت.

- حسنًا، كنت أنصحك لا أكثر.

- لا أعطي بقشيشًا أيّها الفتى، فوفر نصائحك.

- وَمَنْ طَالَبُكَ بِشَيْءٍ! جَرَّبْتُ حَظِّي مَعَكَ الْبَارِحَةَ، وَمِنْ الْغَبَاءِ تَكَرَّرُ الْمَحَاوَلَةَ الْيَوْمَ.

- أَقْبِعْ هُنَا مِنْذُ السَّابِعَةِ مَسَاءَ الْبَارِحَةَ، وَلَمْ يَكْتَرِثْ بِي أَحَدٌ أَوْ يَطْفِئَ نَارَ مَخَافِي بِكَلِمَةٍ اطمئنَّانِ واحدة حول ابنتي، فلا تقنّعي أنّ قلبك قد رَقَّ من أجلي.

- كُنْتُ أَنْصَحُكَ لِأَنَّكَ بِمَقَامٍ وَالِدِي، لَكِنْ إِنْ كُنْتَ تَفْضِلُ الْإِنْتِظَارَ فَلْيَكُنْ مَا تَرِيدُ.
قَالَهَا هَامًّا بِالْمَغَادِرَةِ.

يَنْظُرُ إِسْمَاعِيلُ لِسَاعَةِ مَعْصِمِهِ وَهُوَ يُوَازِنُ الْأُمُورَ بِعَقْلِهِ، إِذْ لَا فَائِدَةَ مِنَ الْإِنْتِظَارِ تَارِكًا عَقْلَهُ لَتَتَخَفْتُهُ طُيُورُ الْفِكْرِ، يُمْكِنُهُ تَمْضِيَةُ الْوَقْتِ وَتَشْتِيتُ مَصَابِيَهُ بِالْعَمَلِ، فَمَشَاعِرُ الْغَضَبِ الَّتِي تَتَمَلَّكُهُ الْآنَ لَيْسَتْ بِصَالِحِ رَحْمَةٍ، لَيْسَتْ بِصَالِحِهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ.

- أَصْبَحْتُ تَتَرَدَّدُ عَلَى الْعَنَاءِ كَثِيرًا يَا جَلَالُ، أَهْوَى حَبَّ أُمِّ اهْتِمَامٍ؟

- بَلْ هُوَ فَرَاغٌ يَا عَزَّةَ.

تَتَمَشَّى أَمَامَهُ بِتَقْصُّعٍ، وَعَلَى وَجْهِهَا ابْتِسَامَةٌ فَجَّةٌ:

- وَمَنْ أَفْضَلُ مِنِّي لَسَدَ فَرَاغِكَ يَا جَلَالُ!

يَتَفَرَّسُ فِي تَضَارِيصِهَا النَّافِرَةِ كَهَضَابٍ مَكْوَرَةٍ:

- جاحدٌ بالنعم مَنْ لديه شكٌّ في هذا.
تميل عليه بإغراء:
- إذا متي؟
- حينما تخلو العناية من قاطنيها.
قالها وهو يشيرُ بعينه لرحمة.
تستقيم في وقفها:
- حسنًا، سأذهبُ لمنادة الطبيب كي يعاينها، ربّما سمح لها بالخروج فيخلو لنا المكان، ولا يبقى به سوى أولئك العَجائز الذين لا يدركون يقظتهم من صحوهم.
- سأنتظرُ عودتك.
- تميل فَمها لجانب وجهه:
- لكنّ دون مساسٍ بالعناية أو بمرضاها يا جلال، خاصّة النساء.
قالتها وهي تنظر تجاه رحمة.
- سألزم مكاني، هذا وعدٌ مِنّي.
- تغادرُ الغرفة بينما تتابعها أنظارُ جلال، ما إن اطمأنَّ لابتعادها، حتى اتّجه ناحية سرير رحمة المراهقة الوحيدة وسط أسرة العناية المكتظة بمرضى أغلبهم تحطّوا السبعين ربيعًا، ينادي عليها همسًا، وأنظاره تتابع بابَ العناية:
- هل أنت مستيقظة؟

تأوّه، ومن ثمّ تفتح عينيها:

- سالم، أهذا أنت؟

- لا لستُ سالمك.

يكمل بضيق: لقد نجحت في إرسال والدك بعيداً عن المشفى.

تغمض عينيها بحزنٍ وأسى:

- لم يكن هناك داعٍ لذلك، ربّما من الأفضل ألا نعانّد أقدارنا.

- حسناً إن كان هذا خيارك.

قالها مغادراً.

- لا تتركني رجاءً، أنا خائفة حدّ الموت، وليت الموت يكمل

مهمّته ويختطفني.

رجاؤها حرّك بداخله شيئاً قد طمسه منذ سنوات عدّة، منذ

أن غادر النّجع، شيء لا يتمنى عودته مرّة أخرى ليطفو على سطح

مشاعره، يجاوبها دون أن يلتفت إليها:

- سأكون بجانبك إن احتجت إلي.

أنهى جملة مبتعداً، وبداخله حربٌ ضارية لا ترّحم.

الفصل العاشر

بداخله نزعاً تدفعه لمعاشرتها بعنف، وكأنه مصّاص دماء وجب عليه أن ينهيها لآخر رمق أو يفنيها! وكأنها فريسة تحاصره الكلاب من أجل سرقتها، فقرّر أن يفترسها فلا يبقى منها سوى عظام لا تُسمن ولا تُغني من جوع، قوائم السرير تصرّ وكأنها ستخلع، بينما روعة ترزخ أسفله تنّ بألم، أنهاراً من الدّمع تناسب فوق صفحة وجهها، تحاول تهدئة وتيرته لكنّ جسده كجرافة تسحق جسدها الهش، يشتدّ عنفه ويزداد نحيبها المكتوم، ينتهي من إفراغ شهوته فيرتمي على ظهره، بينما تتكوّر هي على نفسها موليةً إياه ظهرها، كي لا يرى دموعها، ظلّاً هكذا لبضعة دقائق، ثم من بعدها استوى جالساً على طرف الفراش مولياً ظهره إليها:

- لن أكرّرها مرّة أخرى.

من وسط نشيجها:

- ما الذي يحبطك لهذه الدرجة؟

يلوذ بالصمت، بينما يهّم بارتداء ملابسها، حينما انتهى ترك لها بعض الأوراق المالية فوق الطاولة:

- اعتبريهم تعويضًا عمّا بدرَ مِنِّي، هذا آخر لقاء بيننا.
تلفتُ إليه بكامل جسديها:
- لا تعاملني كبائعةٍ هوى، إن كنت نسيت أنني زوجتك؛ فأنا
لن أنسى.
- تتنفّضُ من الفراش كُمهرةٍ جامحة، تفتح خزانها بعنف، فتُخرج
من بين طيّات ثيابها ورقةً، ثم تلتفت إليه ملوِّحة:
- قد تراها ورقة هشة، سهلة التمزيق، لا تضمن حقًا ولا تزنُ
قرشًا، لكنها بالنسبة إليّ صكّ انتمائي لك.
- ينظرُ لجسدها العاري الذي لو أنفق عمره في النّظر إليه ما زهدته
عيناه أبدًا، إلى جرار العسل المنسكبة من عينيها، صوتها الشجيّ
المكّلّ بالرّجاء، والذي يحطّم روحه، فيردّد بتعب:
- لا يمكنني الاستمرارُ هكذا للنهاية.
- لم!؟ ما الذي يضيرك أو يضيرُ العالم إن بقينا هكذا؟
- لقد قال صالح كلمته، ستزوّجين بسيل ابن رئيسة.
- وهل ستركهم يفعلون بي هذا! هكذا.. بهذه البساطة؟
- بآية حال، هذا الوضع سيتهيي يومًا ما.
- وماذا عنيّ؟
- لا تخشي شيئًا، سأعيد إليك بكَارتك.
- وماذا عن روعة التي تعشقك! ماذا عن داخلي النَّابض بك!

أيمكنك محوه أيضًا!

يلوذ بالصمت ويهمّ بالمغادرة، فتهرول تجاهه تحتضن ظهره
بكلتا ذراعيها:

- هناك عشرات الحلول لتلك المعضلة، أسهلها أن أغادر النّجع
فأُتخلّص من زيجةٍ بسيل، وعندها يمكنك زيارتي كما يحلو لك، دون
أن نخشى العيون المتربّصة والأحاديث المستترة، يمكنني فعل الكثير
وتحمّل الكثير إلا أن توليني ظهرك يا تليد، فهذا ما لا يمكنني احتماله
على الإطلاق.

ما إن أنهت مجملتها حتى أمسك بذراعيها المعقودتين حول جذعه
فيلفّها لتصبح بذلك في مواجهته، ينظر لعينيها العاشقة لبرهة، ثم
يلتهم شفاهها في قبلةٍ عنيفة ونهمّةٍ أتبعها بحملها تجاه الفراش.

كعادة نهاية ديسمبر، كان على الشّمس أن تتذرّع بالغيوم لتبرّر
غيابها، بينما كان على الريح أن تستمر في رقصها الصّახب حتى
يسدل المطر الستار، وقف إسماعيل أمام مدخل إحدى البنايات يعدّ
الأموال التي حصّلها اليوم، ويضمّ إليها تلك التي حصّلها بالأمس
ولم يوردها لخزينة الشركة بعد، ينتهي من العدّ ثم يعيد الأموال وما
بقي من الإيصالات لحقيبته التي تلتفّ حول خصره، يحكم إغلاقها
ثم يتفرّس في أنحاء الطريق ليتأكّد من عدم وجود عيونٍ تراقبه، ينظر

لساعته فيجدّها قد قاربت الحادية عشرة، يهّم بالسير مهرولاً فعليه العودة إلى المشفى، مازالت الأفكار تؤرّقه، لا يعرف كيف يتعامل مع هذا الوضع، خاصّة بعد أن كشفت جميع الأوراق وأغلقت أبواب الأمل أمامه، حشرته ابتته بالزاوية كقطّ مذعور لا يرى مخرجاً! لا يدري كيف سيمكنه النظر لوجهها، أيّ كلمات بقيت لتُقال بينهما! أيّ ردّة فعلٍ عليه اتّخاذها! تتسابق الأفكار بعقله كأموّاج هادرة، كلّها امتطى واحدة حتّى تكسّرت إلى أشلاءٍ على صخور الواقع، كلّ ما يعلمه أنّه لا يمكنه بأيّة حالٍ أن يمرّر الأمر هكذا، ظلّ إسماعيل سائرًا على غير هدّى، رأسه كحفّ صاخب، ينظر للطريق بعينٍ لا ترى وأذنٍ أصابها الصّم.

على الجانب الآخر من الطريق، كان هناك زوجان من العيون تراقب إسماعيل بتركيزٍ شديد:

- الآن، هيّا.

- أنتَ واثق من أنّك تريد فعلها؟

- سل نفسك هذا السؤال، بالنسبة إليّ فإمّا الآن أو لا للأبد.

أنهى سالم جملته سائرًا بنفس الطريق الذي سلكه إسماعيل منذ برهة، يتبعه كظلّه، يتلفّت يمينًا ويسارًا ليتأكّد من خلوّ الطريق، يُشهرُ مطّواه مقتربًا من إسماعيل حتّى أصبح على قيد خطوةٍ منه، يشقّ حزام الحقيبة الذي يحتضن جذع إسماعيل من الخلف، تنفّلت

الحقية فيتلقفها بقبضته الحرّة، ومن ثمّ يلقي بها لقائد دراجة بخارية
أتت من العدم! ليعدو سالم بعدها بكلّ قوّته، ثمّ يقفز خلف قائد
الدراجة، ينتبه إسماعيل لعملية التسليم الجارية أمام عينه ليجد أنّ
البضاعة المستلمة هي حقيته الخاصة!

يهمّ بالعدو خلفهما، بشقّ الأنفس تمكّن من الإمساك بسالم من
الخلف، كطيرٍ جارح أحكم مخالبه حول فريسته، يختلّ توازن سالم
فيقع الاثنان أرضاً، بينما يفرّ سائق الدراجة البخارية هرباً، يتقاتل
إسماعيل وسالم، كلّ منهما يمسك بتلابيب الآخر، يتقلبان على
أسفلت الطريق وسط محاولات سائقي السيارات لتفاديهما، بينما
تعوي أبواقها، يتجمهرُ الناس حولهما على صياح إسماعيل:

- حرامي، فليّصل أحدكم بالشرطة.

دائرة بشرية تحلّق حولهما، ترتفع بضعة هواتف لتصوير المشهد
فيشعرُ سالم بالذعر! يسحب بصعوبة مسدسه المخبأ بسرّواله
الداخلي، ومن ثمّ يرفع يده الممسكة به عالياً، فيسدّد نحو السماء
طلقة، يتشتّت على إثر دويّها التّجمهر كسربٍ من الطيور الفزعة،
ثمّ أنزل يده بسرعة البرق ليهوي به على رأس إسماعيل لتتفجّر
منه نافورةٌ من الدماء ويغيّب عن الوعي، فترخي قبضته الممسكة
بجاكيت سالم، الذي ما إن تحرّر حتى أسلم ساقيه للريح، ليجد مينا
بانظاره آخر الطريق فيقفز وراءه صائحاً:

- انطلق.

- أمي، ما هذا المكان؟

قالتها فاطمة وهي تتفرّس الدار حولها بأحداق متّسعة، فمنذ أن دلفت إليه وكلّ شيء به يثير الريبة، صمت الخادم وإيماؤه لهما باتّباعه، الظّلام المخيم على الدّار بالرغم من انتصاف النهار، لم تتخيّل لو هلة أنّها ستجد ما قرأته بالقصص وما رأته بالأفلام داخل هذه الغرفة التي قادهما إليها، وتركها بها دون أن ينبس بكلمة، فقد كانت الحوائط تحوي رسوماتٍ مبهمّة من دوائر تحوي داخلها نجمةً خماسية وأرقامًا وحروفًا كتبت بتتابع لا ينتمي لأيّ قانون درسته طوال سنوات دراستها، طيور محنّطة فوق المنضدة التي بجانبها، وثعلب جبليّ يرقد في سلام كقطّ أليف، بينما نظراته مسلّطة عليهما! النوافذ مغلقة، ذات لونٍ أحمر داكن كأنّها طليت بدم إحدى الدّبائح، هواء الغرفة خائق يثير الخوف والريبة، يزيده رهبة الدخان الأزرق المتصاعد من المبخرة الموضوعة على طبلية قديمة تتوسط أرض الغرفة، هدوءٌ يثير الرجفة، صمتٌ والدتها يدفعها لتعاود السّؤال مرّة أخرى بجزع ورجاء:

- أمي، أين نحن؟

تجلس والدتها أرضًا، بينما تنظر إليها نظرة جمدها، ممّا دفع فاطمة

لتحذو حذوها مبتلعةً سؤالها، ما إن فعلت حتى دلفت للحجرة
امرأةً توحى ملابسها بأنها عجريّة، ملامحها فتيةٌ تعاند متاهةً شعرها
الأسود الذي يبدو كليلٍ حالكٍ عانده القمر فنثر ضياءه الفضيّ دون
اكتراث، عيناها كجبٍ عميقٍ تخشى غياهبه، بينما صفحة وجهها
خطّت بنقوش غريبةٍ تكاثفت فوق جبينها وذقنها! تنظر إليها
بحذر، تقلب نظراتها الثاقبة بينهما ثم تثبّت في النهاية على فاطمة،
تتخذ مجلسها أمامهما، تزيد البخور في المبخرة، تتمم بكلماتٍ مبهمّة،
كلّ هذا ونظراتها مازالت تكشف وجهَ فاطمة كما سحّ ضوئي، ممّا
زاد الفتاة رعباً واضطراباً.

تبادرها والدة فاطمة:

- جئتُك اليوم من أجل ابنتي...

تقاطعُها المرأة، ونظراتُها مازالت تنخر فاطمة:

- كلّ شيء واضحٌ أمامي، فجماها لا تخطئه عين، ونقصُها لا
تخطئه بصيرة عرافة.

- ينقصُها بعضُ الحظّ لا أكثر!

قالتها والدة فاطمة بمرارةٍ لا حدّ لها.

- ينقصُها الكثيرُ بالفعل، لكنني لا أبيع الحظوظ، بل أصنعها.

- المهمّ أن يرتاح قلبي فلا أحمل لها همّاً.

مازالت أنظرُ العجريّة منصّبةً على فاطمة المرتعبة:

- سنرى .

قالتُها ومن ثم أغلقت عينيها لأوّل مرّة منذ أن دلفت للحجرة،
تتمتّم وتزيّد البخور، تتسارع تمتمتها بينما تزيّد البخور، تهتزّ رأسها
في تتابع مضنٍ، صدرُها يعلو ويهبط، أنفاسها تتلاحق كمن يعدو!
صوتُها الهامس، رعشةُ جفونها المطبقة، انتفاضة جسدِها مع اتّساع
أحداقها الشّاخصة لأعلى وهي تصرخ «قضي الأمر»؛ أثار هلعَ
فاطمة مما جعل الدّمع يطفّر من حدقتيها.

تتحدّث العرّافة وأنظارها مازالت شاخصةً، وكأنّها تخاطب
أحدًا غيرهما:

- ما رأيك بعامر المسلماني؟

- لا أفهمك.

ردّدت والدّة فاطمة.

تحوّل العرّافة أنظارها لوالدة فاطمة:

- يبحثُ عن ولد.

تنظرُ فاطمة بأحداقٍ متّسعة من الخوف وعدم الفهم إلى والدتها،
بينما تبتلع والدتها ريقها بصعوبة:

- من يمكنه المقامرة مع سيدي عامر؟

تقومُ العجّرية من مقامها، تدورر حول فاطمة فتدور معها
عينها:

- نبوءة عرّافة تنتشر بين جنّات النّجع، بأنّ ولدَ عامر سيأتي من رحم فتاةٍ شاميّة الملامح، تحمل فوق كتفيها رأسًا ضخماً.

- ما الذي يعنيه هذا؟

قالَتْها فاطمة بخوفٍ ورهبة.

تقفُ أمامها العرّافة التي مدّت يدها لترفع ذقنَ فاطمة لتتلاقى أعينهما:

- هكذا يبدو رأسُك أمامي، لا بدّ وأنّ عقلك يحمل قسطاً وافراً

من العلم.

- لا، لا يمكنني الموافقة، سيقتلنا سيدي عامر إن اكتشف

كذبَ نبوءتك.

قالَتْها والدة فاطمة مُرتعبة.

من دون أن تلتفت إليها العرّافة ردّدت:

- ومن قال إنّها كاذبة؟ رحمُ ابنتك ينتظر ولداً.

- قلبي لا يرتاح لهذا الأمر، ألا يمكنك إيجاد حلٍّ آخر؟!

تعود العرّافة لجلستها، تزيد البخورَ بشكلٍ يوحي بأنّ حديثها

قد نفذ:

- هذا ما لديّ من أجل ابنتك.

- لله الأمرُ من قبل ومن بعد.

- حينها يحدث المرادُ سأنتظر مكافأتي.

- حينها فقط سأمنحك ما ترغبين به أيّاً كان.

قالتُها والدّة فاطمة مُرغمَةً كجندِيّ محاصر بين خطوط العدو.

- أيّا كان؟

قالتُها العرّافة مستفسرة.

تجاوبها المرأة بإيحاء من رأسها، بينما تلوذ بالصمت.

- حتّى وإن كان الثمنُ الشيخ يونس!

تتّسع عينا والدّة فاطمة ذهولاً، بينما تصيح باستنكار:

- ماذا؟!!

تنظر العرّافة إليها بقوة:

- ما هو قولُك؟

- كيف أمكنك الموافقة على عرضها؟

تمشي والدتها مُسرعة كحملٍ يطارده ذئبٌ، تلوذ بالصمت، بينما تطرّها فاطمة بأسئلتها:

- كيف لك أن تفعل هذا بيونس ورئيسة، كيف؟!!

تتوقّف والدتها دفعةً واحدة قابضةً على ذراعها بعنف، بينما تجرّ على ضروسها غضباً:

- وأنتِ.. كيف طاوَعَكِ ضميرُك لتفعلِي بي هذا؟ أأجرؤين على

محاسبتِي وأنتِ مَنْ أوقعنا بتلك الهوّة الموحلة؟

قدومُ بعضِ النسوة من الجهة المقابلة للشارع دفع والدتها لبرّ

حديثها، وترك ذراع فاطمة، بينما اغتصبت شفتاها ابتساماً وهي تومئ لهم مرحبة، حينما مرَّ النسوة من أمامها أكملت المرأة طريقها للدَّار دون اكتراثٍ لها، ممَّا جعل فاطمة تتبعها منكسة الرأس دامعة العين.

عندما دلفتا للدَّار، تعلَّقت فاطمة بذراع والدتها باكيةً برجاء:
- أعلمُ أنَّ ما فعلته لا يُغتفر، ولا شيء من شأنه إصلاحه، ها أنا أمامك مُستسلمة فاعسلي عاري بيدك، وارتاحي وريحي الجميع من عبء ذنبي، سأفعل ما تأمرين به، فقط لا تجعلي من يونس ورئيسة حطبَ حزنك وغضبك.

تنفَّض ذراعها بعنف، بينما يتملَّكها غضبٌ أعمى، يدفعها لتأخذ بناصية ابنتها، فتكيل لها الصفعات، الواحدة تلو الأخرى بلا توقُّف:
- حزني وغضبي! ما ترينه مني لا يصف قطرةً واحدة من محيطات الأسى بداخلي، وكأنَّني أفعل ذلك من تلقاء نفسي! ليتني أستطيع قتلك فأنتهى منك، ولا يمكنني أن أوكل ذلك ليونس خشية أن أفقده، كما فقدتك يومَ أن خنت الأمانة وفرطت في جسدك وشرفك، أنا لم أفعل بيونس ورئيسة شيئاً، بل أنتِ من فعل، ونحن جميعاً ندفع ثمن أخطائك.

بينما هي مُنهمكة في كيل الصفعات لها وسط استسلام فاطمة التَّام، دلفَ يونس للدَّار ليفاجأ بهذا المشهد الذي لم تره عينه طيلة حياته، يندفعُ مهرولاً ليخلص أخته من براثن والدته صائحاً بذهول:

- اتركها أمي، ستقتلينيها.

تحرّ والدته أرضاً كجبلٍ انهار دفعة واحدة، تغطّي وجهها بكفيها، ثم تنخرط في بكاءٍ يشبه العويل!
يقلّب يونس نظراته ما بين والدته المتحبة وفاطمة المتكومة
أرضاً بلا صوتٍ يُذكر، ليصيح بهما:
- هلاً أخبرتني إحداكما ماذا يحدث!

.....

رنينُ الهاتف يرتفعُ فيتبخّر شبح الماضي المتجسّد أمام عينيها،
تمسحُ فاطمة بكفّها بعضُ دموع خائنة لم تحتل ألم الذكرى فسقطت
صريرة، بينما حدائق الألم مازالت مزدهرة داخلها، تتلمّس وجنتها
وكأنّ صفعات والدتها مازالت نابضةً على صفحة وجهها! تمسكُ
بها تفها لتجيب، فيبادرها صوتُ رئيسة:

- السّلام عليكم سيدي.

- وعليكم السّلام يا رئيسة، كيف حالكم؟

- نحن بخير، والحمد لله.

- إذاً، لم لاتهاقني بانتظام كما هو مُعتاد بيننا؟ أمرك يحيرني كثيراً.

تجاوبها بتردد واضح في صوتها:

- كان عليّ التحقق من أمرٍ ما قبل إخبارك به.

- ما هو؟ انطقي يا رئيسة فأعصابي ماعادت تحتل.

- لقد.. لقد رحلوا، لم أجد أثرهم بأيّ مكان.
- مَنْ هُمْ يا رئيسة؟ تكلمي!
- خالتي، رحلت واختفى أثرها هي وابنتها والأمانة التي بصحبتهما.

صمتٌ ثقيل يُطبق على فاطمة، فلا يُسمع لها صوتٌ.
- ذهبتُ لكلّ مكان قد أجدهم به، دققت أبواب الأقارب، سألت عنهم أهل الحارة، رشوت الموظف بمكتب البريد لأعرف هل كانت الحوالات تصلها أم لا، لأفاجأ بأنّ الحوالات كانت تعود منذ سنة، لكنّ موظفو المكتب كانوا يخفون أمرها مُحْتَظِينَ بالمال لأنفسهم، وعندما تغيّرت الإدارة وتغيّر عامل البريد اكتشفوا تلك السرقات، لكنهم لم يستطيعوا فتح تحقيق من شأنه تشويه سمعة المكتب.

- لا تهمني التفاصيل يا رئيسة، تلك هي مُعضلتك، وكما رشحت خالتك لتحمل الأمانة، فأنتِ المسؤولة أمامي لتعديدها إليّ، تصرّفي، أعلمي عن مكافأة لمن يجدهم بالجرائد، أبلغني الشرطة بفقدهم، افعلي شيئاً.

- ماذا سأكتبُ بالجرائد يا فاطمة؟ بمَ سأخبرُ الشرطة؟ وكيف سأفعل ذلك دون أن يلاحظ بسيل أو زهرة الأمر؟
تصيحُ بغضب:

- اخترعي شيئاً، أيّ شيء، المهم أن تردّي إليّ أمانتي.

- فاطمة، أرجوك أن تأتي، عاجزة أنا عن التصرف وحدي،
أخشى أن أخطئ، فينكشف ما حاولنا إخفاءه طيلة سنين.
- حسناً أنا قادمة، لكن استمرّي بالبحث، استأجري محققاً
خاصّاً، محامياً إن شئت، لا تشغلي بالك بشيء سوى العثور عليهم.

- أخبرتك أنّ تلك المهمة لا يرتاح لها قلبي، لكنّ غرورك كان
أعظم من أن تستمع إلي.

يصيحُ به غاضباً:

- لمّ لا تبلغ الشرطة عني كي تعفيني من شهادتك هذه؟!

- لا تعترف بخطئك أبداً، أليس كذلك؟

بتأفف ردّد:

- حينما تكتشف الشرطة هويتنا، تنصل منّي وأنا سأؤمّن على

كلامك، فهلاً توقفت عن نعيق الجنائز هذا!

زفرَ مينا نفساً عميقاً، ثمّ أردف بعدها مستفسراً:

- والآن، ماذا بعد؟

يفرغُ سالم محتوياتِ الحقبة المسروقة، ثمّ يمسك بالأموال

مؤزجاً:

- سنكتشف أولاً حجمَ غنيمتنا، ومن بعدها سنعرف خطوتنا

التالية، هل أرجعت الدّراجة البخارية لمالكها؟

يهزّ مينا رأسه:

- نعم، بعد أن أعدتُ إليها لوحتها الأصلية كما أمرت.

- جيدٌ جدًّا.

قالها وهو يدفعُ إلى مينا بورقةَ ماليةٍ فئة المائتي جنيهٍ مكملًا:

- خذْ هذه واذهب لتحضّر لنا طعامًا، دعنا نتخفّف من توتّرنا قليلًا.

- ولم لا تذهب أنت؟

- بعد ما حدث اليوم عليّ أن أختفي عن الأعين لبرهة، لا

تنسَ أنهم رأوا وجهي، بينما لم يرَ أحدهم وجهك، لذا سيستمرّ هذا

الوضع حتى تهدأ الأجواء.

- هل آذيت الرجل كثيرًا؟

- لا أعتقد، ضربته بكعبِ المسدس على رأسه؛ فقدّ الوعي.

- أتمنّى أن ينتهي هذا الكابوس على خير.

- اهْدأ وتحلّ بالرجولة، وحينها ستكون جميعُ الأمور بخير.

كانت السّاعات تمرّ على رحمةٍ مخلّفةً بقلبها الكثيرَ من القلق

والخوف، كمن يتنظر رأي المفتي في قضية إعدامه، الليل آتٍ محمّلًا

بتعاسة لا حدّ لها، وأسئلة لا تسعها سماءُ الإجابات، لتزأر بفضاء

فكرها مخلّفة بروحها شعورًا بالرّغبة لا حدّ له، لم تكن رحمة قادرةٌ

على إيذاء أحدهم بقدر ما هي قادرة على إيذاء نفسها، لذا فكّرت

كثيراً في أن تغادر المشفى قبل أن يأتي والدُها، لكن سرعان ما تلبّسها الضياع فجعلها طريحة الفراش، أحياناً تكون ظلالُ مخاوفنا أكبرَ من حجمها الطبيعي، وأحياناً نكابد أزماتٍ نوقنُ معها أنّ ظلال مخاوفنا لا ترتقي أبداً لحجم المصيبة، لذا كانت الأفكارُ بعقلها تتناحر ما بين تضخيمٍ للمصائب وتهوينٍ لتبعاته، وما بينهما كانت رحمة فاقدة لبوصلتها النفسيّة؛ لذا آثرتُ أن تُمضي الساعات في انتظار أن يقول القدرُ كلمته، تلتفتُ حولها فتجدُ «جلال» منزوياً بركنِ الحجرة، ويبدو غارق في عالم آخر....

(يدلفُ للغرفة، وشحناتٌ من غضبٍ تتطاير حوله، يقترب منها ممسكاً بشعرها:

- أخبريني، ما الذي بينك وبين ابن المسلماني؟

من وسط صراخها:

- من تقصد؟

- دُعكِ من مكر البغايا هذا، تعلمين من أقصد.

يزدادُ نحيبُها:

- عمّ تتحدّث!!؟

- تليد المسلماني.

- ما به؟

يُحكّم قبضته على شعرها إمعاناً في إيلاها:

- كَفِّي عن اللَّفِّ والدوران، وأخبريني.. هل عاشرك؟
تصرخُ فيه بغضب:

- هل جُننت؟ ما الذي تقوله؟ ومنذُ متى تقلّدت دورَ الكبير
وباتتَ تهمِّك أفعالي؟

- أنتِ لا تهمِّيني مثقالَ ذرة، كلُّ ما يهمُّني هو ألاّ تلطّخي
شرفنا بالوَحْل، وتجعلينا ممسحةً للأقدام.

ترسمُ ابتسامةً سخريةً على شفّتها برغم الألم البادي على محيّاها:
- وأين كانتِ رجولتك حينما كنتِ أساعدُ والدنا بأرض
المسلماني! أعمل معه نيابةً عنك، بينما كنتِ تختبر صبره لسنوات حتى
ملّ منك، وحينما مات لم يتبقّ لنا سوى تلك القروش التي أتحصّل
عليها من الخدمة سواء بأرضهم أو بدارهم، لذا إن كنتِ تجدُ هذا
مهيئاً لرجولتك ومصدرَ قلقٍ لشرفك؛ فأنا مستعدةٌ لترك العمل،
لكن حينها عليك أن تكفلنا نحن الاثنين مادياً.

يتركُ شعرها أخيراً فتسقط أرضاً، يردّد بسخرية:

- تشرطين عليّ كمومسٍ جُلّ ما تفقّههُ هو لغةُ المال.

- لا تنسَ أنّ أموال تلك المومس تصبّ في جيبيك، وبفضلها
ترتدي أفضلَ الثياب وتتباع أغلى أنواع السّجائر، ناهيك عن
الطّعام والشراب منذ أن رحل أبونا، العوزُ مرّ يا سيّد الرجال،
عليك بتجربته من وقت لآخر، لنرى هل ستصمّد رجولتك هذه

أم ستساقط أرضًا؟

كلما تُها ترسم أمامه الحقيقة التي حاول طمسها مرارًا، لكنّ
المكابرة شيممة أشباه الرجال؛ لذا ردّد:

- حسنًا يا روعة، منذ هذه اللحظة لن تريّ عتبة هذا المنزل مرّةً أخرى.

- كم الساعة الآن؟

قالَتْها رحمة قاطعةً شريطَ ذكرياته.

ينظرُ إليها بشروءٍ كَمَن اكتشف تواجدَها للتوّ، ينظر لساعة

معصمه، وشبَّح الذكرى مازال يتراقص أمام عينيه:

- السادسة مساء.

- هل عادَ أبي؟

يهزّ رأسه بحيرة:

- لا.

تلوذُ بالصّمت لبرهة، ثمّ تسأله بتلقائيّة:

- لم أعرف اسمك بعد.

- جلال.

- شكرًا لك على مساعدتي للانتقال من غرفة العناية لعنبر

المرضى، وإصرارك على بقائي حتى يأتي والدي، خاصّة بعد أن

أوصى الطبيبُ بمغادرتي.

- لم أفعل شيئًا يُذكر، حاولي أن تنامي مجدّدًا كي تستعيدي

عافيتك، سأذهبُ الآنَ لأنهي بعض الأعمال، أراك لاحقًا.
أنهى جُمْلته مغادرًا.

ما إنْ غادر الحجرَ حتى دلفتُ إليها عزّة، التي تفاجأت بأنّ
رحمة ما زالت موجودةً بالمشفى، تقترب منها كوحشٍ مفترس:

- لمْ مازلت هنا! ألمْ يوصِ الطبيبُ بمغادرتك!

- كيف يمكنني أنْ أغادرَ وأبي لمْ يأتِ بعد؟!

تشهق عزّة باستنكار، بينما تضع يدها على خصرها:

- وهل نحن بدار أيتامٍ يا حبة القلب، نحن في مشفى حكومي،

ولدينا مريض أنتِ تحتلين فراشه، هيّا انهضي ولملمي أشياءك،
وانتظري والدك على باب المشفى، هيّا.

تتحاملُ رحمة على نفسها لتنهض، لوهلةٍ شعرت أنّ الأرض
تميد بها فأمسكتُ بحاجز الفراش الحديدي كي لا تسقط أرضًا، ممّا
أثار ذلك استنكارَ عزّة التي صاحتُ بعزمٍ ما فيها:

- كفاكِ تمثيلًا، الطبيب أخبرك أنّ صحتك جيّدة كالقردة، لذا

تحرّكي وإلا طلبت الأمنَ ليطردك خارج المشفى.

تنظرُ رحمة إليها والدّمع يكاد يطفرُّ من عينيها:

- حسنًا سأفعل، لكن هل يمكنك أنْ تدلّيني أين أجد «جلال»؟

وكأنّ اسم جلال كان رمزَ استدعاء شياطين عزّة:

- جلال! وما علاقتك به؟!

- أريد أن أخبره شيئاً ما.

- جلال خطيبي، وعمّا قريب ستتزوج؛ لذا يمكنك إخباري بما
تودّين قوله؟

تنكّس رحمة وجهها أرضاً:

- لا داعي لذلك، شكرًا لك.

قالَتْها مغادرة وهي تترنّح في مشيتها، بينما شيعتها عزّة هامسة:
ساقطة!

تغمضُ رحمة عينها ألماً، بينما الدّمع يطفرُّ منها، تمشي بالمرّ
المؤدّي لباب المشفى متّكئة على حوائطها الباردة كبرود الموتى، لا
تعرف أين ستتطرّ والدها، ولكم من الوقت ستتظر؟

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟

تلتفتُ للخلف فإذا بها تجدُ «جلال» أمامها، تنفرجُ أساريرها،
وشعورٌ بالأمان يغمر روحها، بينما تتجلّى بعينها نظرة امتنان.
- أنا أخرجْتُها يا جلال، كان عليها أن تغادر منذ ساعات.
قالَتْها عزّة التي كانت تقف خلفها شابكة ذراعيها أمام صدرها
متّكئة على حائط الممرّ، وعلى وجهها نظرة تنمر.
- حسنًا يا عزّة.

قالها جلال، ثمّ التفت لرحمة: تعالي معي.

- دعِ الفتاة وشأنها يا جلال، فهي ليست شأنك.

من دون أن يلتفت إليها:
- وليست شأنك كذلك يا عزة.
أنهى جملته مغادرًا، تتبعه رحمة كتلميذ يتبع معلمه.

- آسفة إن كنتُ تسببت في إحداث توتر بينك وبين خطيبتك.
ينظرُ إليها بعدم فهم:
- خطيبي! من؟! عزة!
تهزّ رأسها بحيرة:
- هي أخبرتني بذلك.
- لا تكثرني لكلامها، فعزة تحيا أو هامها الخاصة، لم سمحت لها بإزعاجك هكذا؟
تنكّس رأسها أرضًا، وتلوذ بالصمت، فكيف لها أن تشعره بضياعها وتيهها، بأن الحياة قد خلت من حولها، طفلها ودّعها، وحبیبها هجرها، ويبدو أن والدها قد تنصّل منها، فها هي الساعة قاربت السابعة مساء ولم يأت بعد.
- أيّ حمل تخفين؟ أخبريني ربّما استطعت مساعدتك.
- هناك أمور لا يمكننا التحدّث عنها، وكأننا نتحدّث عن حالة الطقس، فالبشاعات التي نقرّفها بحق أنفسنا أكبر من أن نختصرها ببضعة كلمات.

- لكنّ البوح يقلّل من بشاعتها، ويخفّف من ثقلها الذي يسحقُ أرواحنا.

- هل سبق وأن أخطأت خطأ لا يُغتفر؟
يبتسمُ بمرارة:

- كثيرًا.

- كيف استطعت التّعايش مع هذا؟

- لم يكن هناك خيارٌ ثالث، إمّا صمودٌ وإمّا ضياع.

- أشعرُ بأنّ الأمر مختلف مع النّساء؛ إذ أنّ الموت يبدو خيارًا أسهل.
يسدّد نظراته بعمق عينيها:

- لنّ يمكنني مساعدتك إن تّماديت في أحاجيك هذه.

تنكّس رأسها وتلوذ بالصمت.

صمتها يثير بداخله غضبًا لا حدّ له:

- أعطني رقمَ الهاتف الخاصّ بوالدك، سأتّصل به.

تُملّيه الرقم الذي تحفظه كاسمها، بينما يكون جلال الرّقم على هاتفه ويتّصل:

- مرحبًا، الأستاذ إسماعيل معي؟

- من معي؟

- جلال من المشفى الحكومي، ألنّ تأتي كي تستلم ابنتك؟

- للأسف الأستاذ إسماعيل تعرّض لحادث أليم ظهيرة اليوم،

وهو حاليًا بمشفى كهرباء المأظة، وحالته خطيرة، برجاء إبلاغ عائلته.

- مع مَنْ أتحدّث؟

- مأمور قسم شرطة النزهة.

- حسنًا، نحن قادمان.

قالها جلال الذي ما إنْ أنهى مكالمته حتى سألته رحمة بقلق:

- ما الذي حدث؟ وأين أبي؟!

- تعالي معي وسأخبرك بكلّ شيء في الطريق، هيا.

* * *

عندما وصلا للمشفى، استقبلهما ضابطُ الشرطة المتواجد أمام

مكتب الاستقبال، والذي بادرته رحمة بجزع:

- أين أبي؟

يلتفتُ إليها ضابط الشرطة سائلًا:

- مَنْ أنت؟

يتدخل جلال مجاوبًا:

- إنّها ابنة الأستاذ إسماعيل، ما الذي حدث؟

- وَمَنْ أنت؟

- إنّهُ خطيبي .

ردّدت رحمة وهي تنظر لجلال تناشده المؤازرة.

ينظرُ إليهما الضابط بريية:

- والدك تعرّض لحادثٍ سرقةٍ ظهرية اليوم أثناء تأديته لوظيفته،
الأهالي رأوا السارق وأدلوها بأوصافه، ولحسن الحظّ كانت هناك
كاميرات مراقبة لأحد المحلّات سجّلت عملية السرقة بأكملها.

- وكيف حال أبي؟

- للأسف لم ينبج، فحينما نُقل للمشفى كانت حالته خطيرة
ل للغاية، يعاني من نزيفٍ داخلي بالمخ، حاول الأطباء إنقاذه، لكنّ
كلمة القدر كان لها السبق.

تلوذُ رحمة بالصّمت، بينما تحتلّ عينيها نظراتُ ضياع، لا تدري
كنه المشاعر التي تجتاحها في هذه اللّحظة، إحقاقاً للحقّ هي لا تشعرُ
بأيّ شيء وكأنّ الموقف لا يعينها، إذ كيف لها أن تشعر بتعاطف تجاه
شخصٍ لم يشعرها بشيء طيلة حياتها سوى الحرمان واليتم؟ لا تدري
متى ماتت أحاسيسها بهذا الشكل؟ ربّما فقدناها لحنينها أفقدّها جميع
حواشها، أو ربّما المصائب المتتالية أصابت مشاعرها بخدر!

تنظر مشدوهةً لمقطع الفيديو الذي يوضّح حادث الاعتداء على
والدها، والذي تبدو فيه ملامح السارق مُبهمة، أمّا بالنسبة إليها، لن
تخطئ عينيها تفاصيل سالم وإن تحفّى بين ملايين البشر، فلا ضحية
تخطئ جلادها، تهتفُ بغضب:

- لقد قتل والدي!

ينظرُ إليها مستفسراً:

- مَنْ؟

- سالم.

- سالم مَنْ!! زوجك؟

كَمْ تَهْذِي رَدَدْتَ:

- أنا السَّبب، أنا السَّبب في قتل والدي، لقد أخبرته بكل شيء.

- اهْدئي قليلاً كي أفهم وأستطيع مساعدتك.

تتطلَّعُ إليه بضياح، بينما تحدّثه راجية:

- لا بدّ وأن أراه.

- مَنْ الذي تودّين رؤيته؟

تمسكُ بهاتف جلال فتكوّن رقماً ثم تتّصل، يأتيها الصوتُ من
الطرف الآخر فتحدّث بكلمات مُقتضبة:

- أنا رحمة، تعرف جيداً ما أصاب والدي، قابلني وإلاّ اتهمتُك بقتله.

يأتيها صوته من الطرف الآخر بالية:

- أين، ومتى؟

- سستقابل في مكاننا المعتاد بعد ساعة واحدة.

أنهتِ المكالمة، ومن ثمّ التفتَ لجلال بعينٍ جامدة: هل ستأتي معي؟

يشابك ذراعيه أمام صدره ناظراً لعمق عينيها:

- لن أذهب لأيّ مكان قبل أن أعرف ماذا يحدث.

تبتلع ريقهما بصعوبة:

- لا يمكنني إخبارك.

- كما تشائين.

قالها، ثم ولّاهما ظهره في نيّة واضحة للمغادرة.

تمسك بذراعه في رجاء:

- أرجوك لم يبق لي أحد غيرك؛ فساعدني.

- كيف لي أن أساعدك وأنت لا تثقين بي؟

تنكّس رأسها أرضاً، وتلوذ بالصّمت لبرهة، ثم بعدها ترفع رأسها ناظرةً إليه:

- حسناً، سأخبرك.

قالتها ثم بدأت في السرد.

الفصل الحادي عشر

- صالح، أريد التحدّث معك، هل يسمح وقتك بذلك؟
يجمعُ صالح الأوراق المبعثرة على مكتبه فوق بعضها في دقّة
متناهية:

- من أجلك أمي لديّ كل الوقت.
تبسم ابتسامةً مترددة، ومن ثمّ تتقدّم لتتخذ مجلسها أمام مكتبه:
- الله يرضى عنك يا ولدي.

تبتّر كلماتها آخذةً نفساً عميقاً، ثمّ تفرّج بهدوءٍ مكملّة:
- كنتُ أفكر بالذهاب معك إلى القاهرة، فقد اشتقتُ لزهرة كثيراً.
يرجعُ بظهره للخلف في استرخاء:

- ولم لا! استعدّي إذاً لأنّنا سنغادر بعد صلاة الفجر إن شاء الله.
- بارك الله بك يا بني، وأراح قلبك.
أنهتْ جُلمتها هامّةً بالمغادرة.

- لحظةً واحدةً أمي.
قالها صالح مستوقفاً والدته.
تلتفتُ إليه ونظرةً حيرةً تطلّ من عينيها ليقترّب صالح من

سطح مكتبه دافعاً الأوراق التي أمامه ناحيتها مكملاً حديثه:
- وقعي هذا.

قالها، بينما وضع قلمًا فوق الأوراق.

تمسك فاطمة بالأوراق في حيرة، ومن ثم تقرأها فتتسع عيناها
بصدمة، ثم دفعها لسؤاله بشك، وكأنها تكذب عينيها:

- ما هذا يا صالح؟!

يعودُ لجلسته المسترخية، بينما يهز كرسيه في تؤدة:

- ما قرأته أمي، تنازل عن نصيبك في إرث والدي.

- وما حاجتك إليه؟ فمنذ توليك منصب كبير العائلة صرت

المتحكم الوحيد في جميع ما نملك.

يرفع حاجبه بتنمر:

- لذا أعتقد أنه لا مانع لديك في التوقيع.

- لكن لم؟

- حفاظًا على الأرض لا أكثر، لا يجب أن تنقص أرض عامر

المسلماني سهمًا واحدًا، وبما أنني الولد الوحيد لأبي، يجب أن تكون

أرضه بقبضتي كي لا تذهب للغرباء.

- ماذا عن زوجة أبيك، وأختيك غير الشقيقتين؟

يتسم ابتسامة مكرة:

- تم تولي أمرهم من قبل أبي رحمه الله، كما تم معالجة الأمر

مع زهرة أيضًا، لكنّه لم يجرؤ على فعلها معك؛ لأنّه كان يحبّك حدّ
الخنوع، لذا كان عليّ تولّي هذا الأمر بنفسِي.

أنهى جُمْلته مقرّبًا القلم منها قائلاً بحزم: وقّعي.

تنظرُ إليه بصدمة، بينما ثمة دمع بعينيهما يتشكّل، فابْنُها يريد
سلبها كرامتها للنهاية، ترفع ذقنها بإباءٍ فهي لن تنكس رأسها أبدًا،
تتنفّس بعمق وتمسكُ بالقلم لتخطّ توقيعها، تنتهي فتتركُ القلم
جانبًا، تنظرُ إليه بقوةٍ بينما ترتعش شفّتها مكوّنة ابتسامة مبتسرة:

- هل هناك شيءٌ آخر؟

يمسكُ بالأوراق فيُعّالين توقيعها، ومن ثمّ يجاوبها دون أن يرفع
نظره إليها:

- لا، شكرًا لك.

تنظرُ إليه وقبضةُ ألم تعصر قلبها، تشعرُ وكأنّه أهداها لظمةً على
وجهها، تلملمُ خيبتها وانكسارها، ومن ثمّ تغادرُ الغرفة.

تخفضُ رأسها منهيةً كلامها:

- هذا كلّ ما حدث.

- صدقًا لا أجد وصفًا يليقُ بقدرِ غبائك.

- أخبرْتُك كي تساعدني لا لتلومني.

- وما الذي تنوين فعله بسالم؟

ترفعُ رأسها عاليًا:

- إمّا أن يتزوّجني أو أبلغ الشرّطة عنه.

- يتزوّجك! بعد كلّ هذا الدّمار؟

تصيح بقوة:

- كي يردّ إليّ شرفي المهدر، لن أكون وليمةً سهلة للكلاب.

- حمقاء.

- ربّما، لكن لا مخرج آخر لورطتي، ها هوّ قادم.

قالّتها مشيرة برأسها.

ينظرُ جلال خلفه ليرى شابًّا طويل القامة، خمريّ البشرة،

يرتدي نظارةً شمسية، ويضع قبعةً كبيرة فوق رأسه تداري الكثير

من وجهه!

عندما أصبح أمامهما، من دون أن يلقي السلام بادرَ رحمة سائلًا:

- من هذا؟

تنظرُ إليه بنديّة:

- اعتبره أخي.

يبتسمُ سالم بسخرية:

- ومتى نبت لك؟

- لم أطلبُ رؤيتك لأستمع لسخريتك يا سالم، لدينا ما هو أهمّ.

- وما هو الأهمّ؟

قالها وهو يشابك ذراعيه أمام صدره باهتمام مزيف.

- أن تتزوّجني.

- وإن لم أفعّل!

- سأخبرُ الشرّطة بأنك قاتل أبي.

يزوي فمه بسخرية:

- افعليها، وحينها سيسعدني أن أخبرهم باسم من حرّضتني

على فعلها.

تصيحُ بغضب:

- حرّضتُك على فعلها لتزوّجني، لا لتتصلّ منّي.

يلتفتُ لجلال ضاحكًا:

- بالله عليك يا من تدّعي أخوتها، أترضي لنفسك زوجةً خائنةً لأهلها؟

تصيحُ فيه بغضب:

- أيها النذل الجبان، فعلتُ ذلك كلّهُ لأتزوّجك فيحصل طفلي

على اسم له.

- وها قد ماتَ طفلكُ، فما حاجتك إليّ؟ انسيني يا رحمة ولا

تقتربي منّي مجدّدًا، وإلاّ قسمًا بالله لن تري منّي خيرًا.

قالها موليًا ظهره إليهما.

تهجمُ عليه كلبوّة شرسة، تخمشُ ظهره بأظافرها تارة، وتسدّد

له اللّكّات تارةً أخرى، بينما تصيحُ غاضبة:

- سأقتلك، سأقتلك كما قتلت أبي وقتلتني من قبل.
يقوم سالم بدفعها لأعنا، بينما يندفع جلال ليقف بينهما كي يفض
الاشتباك صائحا:

- توقفا.

ثم التفت موجها حديثه لرحمة:

- هلا انتظرتني على الناصية، فلدي ما أقوله لسالم.
تنظر إليه رحمة وبراكين الغضب تطل من عينيها، فيغمض
جلال عينيه، بينما يهز رأسه مطمئنا، فتغادر رحمة، وشرارات الغيظ
تتطاير حولها.

ظل جلال وسالم يتابعانها حتى اختفت عن أعينهما، بعدها
التفت سالم لجلال مستفسرا بسخرية:

- حسنا، أتريد العراك أنت الآخر؟

نظر إليه جلال نظرة مقيتة، ومن ثم جاوبه متنهدا:

- لا، بل تبادل منفعة.

- لا أفهمك، ما الذي لديك وأريده أنا؟

- صمت رحمة، وعدم إثارتها للمتاعب.

ينظر إليه سالم بشك:

- وما الذي لدي وتريده أنت؟

- تشتيت انتباه.

باستنكارِ صاحِ سالم:

- ماذا!!

- انظري إليه يا فاطمة، كم يشبه سيدي عامر!

تجاوبها بمرارة وهي تنظرُ لطفلها الغافي داخل مهده:

- ليتَه ما أتى، وليتني متَّ قبله.

- ماذا تقولين؟ أيَّ جحود هذا! استغفري الله يا فاطمة وأحمديه

على نعمته، ما بك؟! لم تبدين حزينَةً هكذا؟ عليك أن تشعري

بالرّضا كونَ الله رزقك بوريث عامر المسلماني، فأصبحت بذلك

زوجه المفضّلة.

تتنهّد بحرقة:

- أستغفر الله من كلّ ذنب أوقعتُ به نفسي، وجعلتكم

تتجرّعون تبعاتِهِ.

- حقًا ما عدتُ أفهمك؟ عليك أن تكوني أسعدَ امرأة في العالم،

فأنت لم تعودِي زوجة كبير النّجع وحسب، بل أصبحت أماً لعضده

الوحيد أيضًا.

تبتّر كلماتها لتلتفت لوالدة فاطمة مناشدةً منها العون، فتجد

وجهها يحمل أطنانًا من مساحيق الحزن هي الأخرى، وكأنّ ولادة

فاطمة زادتها همومًا فوق همومها:

- حتّى أنت خالتي! صدقًا لا أعلم ماذا أصابكما.. الناس
بالأسفل تحتفل بالمولود رقصًا وغناءً إلى جانب الذبائح والأعيرة
النارية، وأنتما هنا تبدوان كمن فقد عزيزًا.

تشيحُ فاطمة وجهها بعيدًا، بينما تنكس والدتها رأسها أرضًا،
وكلتاها تلتحفُ بالصمت، طرقُ على الباب يرتفع:

- سيّدة فاطمة، سيدتي الكبيرة تُخبرك بأنّها في انتظارك أنتِ
والمولود بالأسفل مع بقيّة النسوة.

يظلّ صمتُ فاطمة ووالدتها على حاله، فتهمّ رئيسة بالردّ نيابة
عنهما، وكلّهما قلق:

- حسنًا يا زينب، بضعة دقائق وستوافيهنّ السيدة فاطمة بالأسفل.
ما إنْ أنهتْ كلماتها حتّى التفتَ لهما:

- أيّا كان الأمر الذي يكدّركما حاولا نسيانه مؤقتًا، حتّى يمرّ
الاحتفال على خير، فالمهنتون بانتظاركما ولا فرارَ من استقبالهم،
دعُكما من غلالة الحزن هذه التي تحجب شمسَ الهناء عن رُوحكما،
وانغمسا في الاحتفالات المُقامة على شرفِ المولود، لربّما تسلّلت
السّعادة إليكما.

بترت رئيسة مجلّتها مخاطبةً فاطمة، ثمّ أكملت:

- سأنتظرك بالأسفل بصحبة خالتي والطفل، حاولي أن
تلمّمي شتاتك وألا تتأخّري، هيّا بنا خالتي.

أنهتْ جُمْلَتِها وهي تحملُ مهدَ الطّفلِ هامّةً بالمِغادرة، بينما تتبّعها والدّةُ فاطمة بظهِرٍ منحنٍ كَمَنَ تحملُ فوقَ كتفِها جبلاً.

- إلى أينَ تحسّبين نفسكِ ذاهبة؟ ما الذي جاء بك إلى هنا؟
تنفّضُ ذراعها بعنفٍ، بينما تبرّقُ عيناها كشمسٍ متوهّجة:
- أهذا استقبالُ أصهار الأكاير لَمَن ساعدهم في زواجِ ابنتهم من
كبير البلدة؟

- انظري.. لمَ جئت؟
- أنظُرْ لتلك الاحتفالات الباذخة حولك، ألا تُخبركِ شيئاً؟
لقد تحقّقت النبوءة، لذا كان عليّ المجيء لآخذ ما وعدتني به والدّة
سيّدي عامر، ولأذكرَ البعض الآخر بوعدِهِ لي، ألا يقول الحقّ في
كتابه الكريم (وذكر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين)..
- تستشّهدين بالقرآن بينما تكفّرينَ بَمَن أنزلهُ! تدّعين التقوى
بينما تسوقين مغيّبي العقول مزعزعي العقيدة لاتباعك، مخادعةً
ملعونةً، فأنت لم تأتِ اليوم لتأخذي مكافأتك، بل جئتِ لتشهدِي
لحظة إيمان الجميع بك وسطَ سجودهم لعظمة صنيعك، بينما هي
أقدارُ الله ولا شأنَ لك بها.

- لكنني تكهّنتُ بها كأولياء الله الصالحين، ألا يجعلُني ذلك
أحدَهم! مَن يدري، ربما امتلكتُ حينها قبساً من أثرِ رسول، فعلمتُ

بوجود الولد قبل زواج والدته!

تبتّر كلماتها راسمةً ضحكة هازئةً على وجهها، بينما تسدّد إليه نظرةً شيطانية:

- قد تراني مخادعةً وملعونةً، لكنني ما أذيت أحدهم يوماً، ماذا عنك يا شيخنا؟

- ماذا عني؟

- كم يبلغ عددُ ضحاياك، أم أنّك لا تشملهم بحساباتك؟
- من أنت لتحاسبيني! أحسبت أنّي سأهابك، أو أنّ أغلال معروفك ستطوّق عنقي؟! كلاً وبحقّ الذي خلق الإنس والجن لن يحدث أبداً، أعلم أنّ هذا الأمر لن ينتهي عند هذا الحدّ، وأنّك تحيكن شيئاً في الخفاء، لكنني لن أتركك حتى أكشف خبث نواياك، وحينها لن أقف مكتوف الأيدي، بل سأحاربك حتى أخرجك من النّجع إن لم تتوقّفي عن غوايتك.

- خبثٌ وغواية! سأخبرك عمّا هو أكثر منّي غواية وخبثاً، عمّن لا يمتلك سوى خطبٍ رنانة وفتاوى متشدّدة يملأ بها العقول كي تتبعه كخرافٍ مُرتعبة! ولو أنّه تحلّى ببعض الرحمة التي كان يدعو لها؛ لما تفرّق قلبان وما تفتّت روح وما وئدَ حلم! منذ خمس سنوات، كان هناك صبيّة وهبها الله بعض الكرامات من دون حول منها أو قوّة، فلَقَّبَها أهل النّجع بالعرّافة، تلك الصبيّة أحبّت رجلاً حدّ أنها كانت

لتفويضه بالعالم، وكانا على هذا القُرب من تحقيق حلمهما بالزّواج (قالتها وهي تضيّق ما بين سبّابتها وإيهامها) لكنّ باللحظة الأخيرة (تضرب كفّيهما ببعض) قرّر حبّيهما أنّها غير صالحة له، لماذا؟ لأنّ شيخًا ما نهره ودسّ سمّ مواعظه بعقله، مؤكّدًا له بأنّ العرافات لا يختلفن كثيرًا عن الزّانيات، فجميعهنّ يدفعنك للهوى بنار جهنم، حينما حاولت العرّافة العاشقة أن تستخدم سحرها لتعيد حبّيهما إليها، لم تتحمل روحه الصراع ما بين أعمال عقله واحتراق قلبه، فقرّر الهروب من النّجع دون عودة، تاركًا حبّيته بجبّ الانتقام الأسود. تبتّر كلماتها لتقترب منه، ثمّ أردفت: هل سمعت تلك القصّة من قبل؟! وهل علمت من يكون هذا الشيخ؟

يبتلعُ الشيخ يونس ريقه بصعوبة، بينما يعجزُ لسانه عن الردّ؛ فقد ألجمه ثقل الإدراك.

- الآن تحلّيت بالصّمت! ربّما نسيت أو تناسيت تلك الحادثة، لكن ثق دومًا أنّ القدر لا ينسى، بل يدفع الماضي بطريق الحاضر دفعًا، كمرآة لا تخشى عكس خطاياك أمام عينك، كما أنه لا عاشقة تنسى أبدًا من أهداها جرحًا، ولا يغرنك فتيلة صمّتها المنطفئة؛ فهي إنّ اشتعلت أحدثت حروبًا عدّة! لذا عليك من الآن أن تسأل نفسك مرارًا.. إلى أيّ حدّ يبلغ إيمانك! وإلى أيّ مدى يمكنك التمسك بمبادئك؟! لأنني أعتقد أنّنا سنكتشف ذلك قريبًا... قريبًا جدًّا.

أنهتْ جُمْلَتِها دالْفَةً لدارِ المسلماني تاركةً يونسَ بلا حراكٍ، مُغمَضَ العَيْنِ، مُنْقَطِعَ الانْفاسِ كخَشَبٍ مُسَنَّدَةٍ.

- لقد وصلنا.

صوتٌ صالحٌ دفعَها للترجّل من قطارِ الذّكرياتِ العَظِنِ، محمّلة بدموعٍ يذرفها قلبُها وأمتعةٌ من ألمٍ تثقلُ روحَها، تلوذُ بالصّمتِ، بينما يكملُ هو:

- لن أستطيعَ الصعودَ معك؛ فلديّ أعمالٌ عليّ إنهاؤها أولاً.
أكملَ دونَ أن يكثرَ لصمتُها، ثمّ انتظرَها لترجّلَ من السيّارة كحمولةٍ زائدةٍ تاقتُ روحُه للتخلّصِ منها، لم تكذُ تفعل، حتى حرّك مقوّدَ سيّارته مندفعاً دونَ أن ينظرَ إليها، ولو أنّه نظرَ لوجهها لرأى ملامحَ امرأةٍ عادتْ لتوّها من الموتِ.

- سيّدتِ فاطمة، أنرتِ المحروسة، كيف كانت رحلتك؟

بتعبٍ ردّدتِ فاطمة:

- دعيني أرتاحُ من عناءِ السفرِ أولاً يا رئيسة، ومن ثمّ أمطريني بأسئلتك.

- معكِ حقّ.

تهمّ بإغلاقِ بابِ الشّقة، وهي تسألها بتعجّب:

- هل أتيت للقاهرة وحدك؟
- تتهدّ فاطمة بينما تتخذ مقعدًا:
- لا، أتيت بصحبة صالح.
- سيّدي صالح! أين هو؟
- لديه أعمال يقوم بها؛ لذا أقلّني إلى هنا ومن ثمّ غادر.
- حسنًا ارتاحي سيّدي حتى أعدّ لك مأدبة فاخرة.
- لم آتِ إلى هنا من أجل الطعام يا رئيسة، أين زهرة؟
- مازالتُ بجامعة، تنتهي محاضراتها في الرابعة عصرًا.
- هل هناك جديد؟
- لا جديد للأسف، فمنذُ آخر حديثٍ لنا وأنا أغادرُ المنزل يوميًا لأقتني أثرهم لكنّ دون جدوى.
- هل شعرتُ زهرة بشيء؟
- لا سيّدي، فقد كنت حريصةً على أن أغادر الشقة بعد ذهابها وبسيل إلى الجامعة والعودة قبلها.
- حسنًا، لم يعد هناك وقتٌ لنفعل شيئًا؛ لذا سأرتاح اليوم، ومن صباح الغد سننهب الأرض بحثًا عن خالتك.

* * *

- وماذا بعدُ يا سالم؟ الدّائرة تضيقُ حولنا يومًا بعد يوم.
- برود، ومن دون أن يلتفتَ إليه:

- تضيق حولي فقط، لذا كفّ عن ولّولة النساء هذه.
- لأشاهدك وأنت تدفعنا للهاوية، بالأمس قتلت رجلاً، واليوم تتعرّض للابتزاز من قبل رجلٍ آخر، متى ستكفّ عن غرورك وترى حجم المصيبة التي نحن بصدددها؟
- يصيحُ فيه بغضب:
- كفّ عن لومي؛ فهذا لن يصلح من الأمر، تعلم جيداً أن قتل والد رحمة لم يكن بالحسبان، وإنما حدث عن طريق الخطأ، لا تدّعي طهارة اليد فأنا لم أخطئ لتلك السرقة بدافع الغرور، بل من أجلنا نحن الاثنين، ولا أذكر أنّك رفضت استلام نصيبك منها.
- أنا لا ألوّمك، فقط قلق لأننا متورطان بأعمق ممّا تظن.
- لم ير أحدُهم وجهك؛ لذا أنت خارج الدائرة، فهلاً تركتني أحلّ أموري بنفسي وكففت عن نذب حظك.
- جلسَ مينا فوق فراشه منكّس الرأس ملتحفاً بالصمت لبرهة، ثم رفع رأسه لسالم الذي كان يدخن بشراهة لا حدّ لها:
- حسناً، ما الذي تنوي فعله! هل ستنفذ هذا الجلال خطته؟
- لا طريق آخر لديّ لأسلكه.
- بل لديك، يمكننا الهروب لأيّ مدينة أخرى، أن نخفي عن الأعين حتى يتمّ حفظ التحقيقات.
- أين سأذهب؟ أنت يُمكنك الاحتماء بأحد الأديرة، أمّا أنا فلا

مكانٍ لديّ لأحتمي به، ولا تنسي أنّ الفيديو منتشرٌ على مواقع التواصل،
ولا بدّ أنّ آلاف البشر قد شاهدوه، صحيحٌ أنّه لا يظهر ملامحي بشكلٍ
تامٍّ، إلّا إنّني لن أعيش حياتي مهدّدًا خائفًا طوال الوقت.
- ومن يضمنُ أنّ «جلال» هذا صادقٌ معك.

- أنت أوّل مَنْ يعي جيدًا أنّ الحياة لا يوجد بها ضمانات، وأنا
لا خيار آخرَ لديّ، ما يطمئنني قليلًا هو تأكيد جلال أنّ مهمّتي
ستقتصرُ فقط على تشييت انتباهٍ أحدهم، وذلك عن طريق افتعال
مُشاجرةٍ معه.

- وإن لم تقتصرْ مهمّتك عند هذا الحدّ؟
يسحقُ سالم عقبَ سيجارته بحذائه مردّدًا بيأس:
- سأضطرّ لتنفيذ اقتراحك، والهرب.
يزفرُّ مينا نفسًا عميقًا:
- هل هناك ما يُمكنني فعله؟
يسدّد إليه سالم نظرةً مآكرة:
- ما تفعله دائمًا.
بعدم فهمٍ ردّد مينا:
- ماذا!!

* * *

دلفت زهرة لشقّتها مُلقية التّحية على أمّ بسيل:

- السّلام عليكم خالتي.
تغلّقُ أمّ بسيل الباب خلفها وهي تردّ التحية:
- وعليكم السّلام زهرتي الحبيبة، خَمْنِي مَنْ حَلَّ بدارنا اليوم؟
تلتفتُ إليها بحيرة:
- مَنْ خالتي؟
ترفع أمّ بسيل كتفيها، بينما تسدّد لها نظرةً مآكرة:
- اكشفي بنفسك.
تركّها زهرة وتمضي لداخل الشّقة، فتجد والدتها جالسةً بغرفة
المعيشة، تتجمّد زهرة مكانها لبرهة، ومن ثمّ يعاودها الإدراك:
- أمّي!
صرخت وهي تندفع مرتميةً بين رحي ذراعي والدتها الممدودة
نحوها، ثمّ أكملت وهي تحتضنها:
- اشتقتُ إليك كثيراً أمّي، متى جئتِ؟ ومع مَنْ جئتِ؟ هل ستبقين
معنا حتى نهاية الفصل الدراسي، أم ماذا؟ أرجوك أمّي ا بقي معي.
تضحكُ فاطمة وهي تشدّد من احتضان ابنتها:
- أمهليني بضعَ دقائق أحتضنك فيها يا زهرة، فقد اشتقتُ
إليك كثيراً يا ابنتي.
تنظرُ إليها زهرة بحيرة، وكأنّها لا تصدّق أنّ هذه أمّها الجامدة
المتكتمّة حول مشاعرها، فلا يعلم أحدٌ حقيقةَ شعورها، تستمرّ

نظراتها الحيرة ممّا دفع فاطمة لسؤالها:

- لمَ تنظرين إليّ بغرابة هكذا؟

تزيدُ زهرة من احتضانها وهي تجاوبها:

- لا شيء، فقط اشتقتُ لأحضانك.

تمسّحُ فاطمة على ظهرها، وإحساسٌ بالخسارة يلفّها، بينما تنظرُ

لرئيسة وكأنّها تسألها «ما الذي فعلته بنفسي وبأولادي؟»

- سأترككما تتحدّثان، وتشبعان شوقكما ريثما أعدّ المائدة.

قالتُها رئيسة هامة بالمغادرة.

- كيف حالُك يا زهرة؟ وكيف حال دراستك؟

ما زالتُ زهرة متوسّدة صدرها:

- أنا بخير، الآن فقط أصبحتُ جميعُ الأمور على ما يرام.

- أتمنّى أن تنتهي من دراستك حتى أراكِ بيت زوجك فأطمئنّ

عليك يا ابنتي، تعبَ قلبي من القلقِ عليك، هل تُهاتفين «تليد»؟

تركُ حضنّها، وشعورٌ بالنفور يتملّكها:

- لا، فنحنُ لا نتفق كثيرًا، ولا يوجد بيننا فكرٌ مشترك.

- لمَ يا زهرة!؟

قالتُها فاطمة بصدمةٍ ثمّ أكملت وهي تهزّ رأسها بغيرِ رضى:

وكانَ كلّ يوم يمرّ عليّ يؤكّد فداحة خطيئتي حينما أصررتُ على

إكمالك تعليمك عوضًا عن إتمام زواجك! يا ابنتي، تليد بالنهاية

رجلٌ لديه مشاعر حتى وإن واراها خلفَ واجهةِ الرَّجولةِ البُكَّاءِ،
يحتاج لَمَن يشعر به، ويقاسمه أيامه ويسأل عن حاله، وأنت زوجته؛
لذا عليك باحتوائه ومدّ جسور المحبة بينكما كي تصلَ بكما حياةٌ آمنة
خالية من شظفِ المشاعر.

- وكأني اخترته عن طيبِ نفسٍ ولم يتمّ التّضحية بي كييدقِ
بلعبة شطرنج!.

قالتُها زهراء وإحساسٌ بالظلم يَتملّكها، تغمض عينيها بشدّة
لتتمالك أعصابها، ثمّ تكمل وهي منكّسة الرأس:
- أعلم أنّني سأتزوّج «تليد» يومًا ما، فلا داعي لتذكيري بهذا
أمّي، خالتي رئيسة تتولّى ذلك بعناية.

ما إنْ أنهتُ جملتها حتى نهضتُ من جانب والدتها، لتردف
بجمود:

- عن إذنك، سأذهب لغرفتي لأبدّل ملابسِي.
قالتُها ثمّ مضتُ تجاه غرفتها، تاركةً لوالدتها ثقلًا ينهكُ روحها،
وإحساسٌ داخلي يخبرها بأنّ العاصفة باتت بعقرِ حياتها، وعلى وشكِ
اقتلاع الأمان من أيامها.

- خالتي، سأذهب لفاطمة الآن، ألن تأتي معي؟
قالتُها رئيسة التي كانت تقفُ على أعتاب الدار.

- اقتربي يا رئيسة، وأغلقِي البابَ خلفك جيداً.
بكَاءٍ رَدَدَتِ والدَةُ فاطمةَ الجالسةَ على كنبَةِ اسطنبولي عتيقة،
بينما تلتحفُ بالسَّوادِ كَمَن تستعدُّ لحضورِ مراسمِ عزاء.
تنفَّذَ رئيسةَ طلبِها، ثُمَّ تقتربُ منها هامسة: تحتَ أمركِ خالتي.
تساندُ رأسَها إلى كَفِّها كَمَن يعاني صداعاً مزمنًا:
- الأمرُ لله يا ابنتي، الأمرُ لله.
- ما بكِ خالتي؟ منذُ ولادةِ فاطمة وأنا أرى الهمومَ تكحللُ
قسمائك! ما الذي يؤرِّقُك لهذه الدرجة! فاطمة متزوجة الآن من
كبير المسلماني، ومنحتهُ الوريثَ الذي يتمنّى كما تنبأت العرافة.
تتنهَّدُ بأسى، بينما تتغصَّنُ تجاعيدُ وجهها بمرارة:
- صارتِ الراحةُ سراباً أطارده منذُ أنْ بُلينا بفعلِةِ فاطمة.
- كيف تقولين هذا وقد تغمَّدنا الله بستره؟ حتى يونس نفسه
لم ينتبه لشيءٍ، لذا علينا أن نحمد الله ونمضي بحياتنا دون الالتفات
لما سقطَ مِنَّا.
- الماضي لم يمت بعد يا رئيسة، أذياله مازالتْ تتلوَّى لتحاصر
حاضرنا، وقد تطبق على رقابنا إن لم نقضي عليها.
- لا أفهمكِ خالتي.
مازالت منكِسة الرأس، تمسكُ بطرفِ وشاحها لتمسحَ بضعة
دمُعات سقطت من عينيها:

- ساحِيني يا ابنتي، لقد ظلمتك وليشهد الله أنّ ما فعلته هوّ
أشدّ من الموت عليّ، وليتني متّ قبل أن أظلمك.

- لم تظلميني يوماً، على العكس، حينما ماتَ والدي لم تنفُضي
يدك منّي كما فعل أهل النّجع، بل ضممتني إلى كنفك، ولم تفرّقي
بيني وبين أبنائك، آويتني بيتك، واخترت لي يونس زوجاً بالرّغم
من يُتْمِي وانعدام السّند من حولي.

- اخترتُك زوجةً له، لأنني لم أرَ من فتيات النّجع من هي
أصلحُ منك، فأنتِ ابنتي التي لم تأتِ من رحمي، ولولا إصرار القدر
على امتحاننا ما طالبتك يوماً بالتخلّي عنه.

- عفواً خالتي لم أفهمك جيّداً، تطالبيني بماذا؟

- يونس لن يفِي بوعده بالزّواج منك.

تشعرُ بأنّ جُدرَ الدار تدور حولها، تفرّ الدّماء من عروقها
فتجتاح جسدها برودةٌ صقيعيّة، تردّد بصوت واهنٍ فارقه الروح:
- لم؟

- إنّه ميراثك من خطأ فاطمة.

- ميراث! أيّ ميراث هذا! لقد فعلتُ ما بوسعي من أجلها،
حميْتُها من غضبك، تخلّصت من طفلها، انتهزت الفرصة كوني أعملُ
بدار المسلماني لأنشر به عدوى نبوءة العرّافة، ودفعت والدّة سيدي
عامر دفعاً لتصديقها، خدمتُكما بروحي وبكياني، أخبريني خالتي ما

الخطأ الذي ارتكبته لتمنحوني هذا الإرث فتنزعوا مني يونس! ألم أعد أليق بكم بعد أن أصبحت فاطمة سيده دار المسلماني!

يزدادُ نحيبُ والدَة فاطمة بينما تسدلُ وشاحها الأسود فوق رأسها المنكّس، وكأنّها لا تريد سماع كلمات رئيسة التي تقتلها:

- ساحيني يا ابنتي، لم يكنْ أُمامي طريقٌ آخر، كانت الطرقُ مغلقةً أُمامي، خيرني القدر ما بينك وبين فاطمة، فتغلّبت عليّ نزعة الأمومة المدفوعة بقبضة الخوف واختربتها.

تعاندها رئيسة بشكّ:

- لا أفهمُ كلماتك خالتي، ولن أتفهمُ أَعذارَك أيّا كانت، كلّ ما أفهمُه هو أنّك تحاولين التّفريقَ بيني وبين يونس، ولا أعلم ما هو دافعُك، لكنني لن أوافقَ على طلبك كما أثقُ أنّ الشيخ يونس لن يظلمني ويوافقك.

- عليه أن يفعل.

- أرفض تصديقَ ذلك، هل أخبرته؟

- لا، ليس بعد، لكن لا مفرّ من الأمر.

- لا شيء يدفعه لذلك.

- لأنّه إن لم يفعل سننتهي، ستكشف العرّافة جميع الأوراق وتُنهيها، فقد كان اتّفاقي معها، نبوءتها الكاذبة الصّادقة مقابل زواجها من يونس، والآن بولادة فاطمة لولدٍ عامر، تكون قد نفّذت

جانبها من الاتفاق، وبذلك يحين وقتُ سدادنا.

كان نحيبُها يبتلع كلماتها، كلماتها التي لم تصبَ سمعَ رئيسة وإنَّها أصابت قلبها مباشرة كطلقاتٍ سدّدت بدقّة متناهية، ممّا جعلها تترنّح لتخرّ أرضاً مردّدة بلوعة:

- والآن ما الذي تؤمّله مني! أنْ أرتضي بجورك عليّ فأساندك!
أنْ أمنحك مباركتي لزواج يونس من امرأة غيّري! صدقاً خالتي..
أخبريني أم تخبريني؟! ألتخبريني استئذاناً أم تخيّريني ما بين فقد
يونس أو فقدكم جميعاً؟! تعلمين جيداً بأنّه لا عائلة لديّ سواكم.
تنهي أسئلتها هائمةً بالنهوض كطفلٍ يتعلّم الوقوف لأول مرّة،
بينما تكمل بصوتٍ يرتعش قهراً، وعينان تذرفان الدّموع ظلماً:
- افعلي ما تريدينه خالتي، ولا تثقلي ضميرك بذنبي، فالله أولى
بي وبقلبي.

- رئيسة، أتبكين؟!

كانت هذه فاطمة التي ما إن تركتها ابنتها حتى توجّهت للمطبخ
حيث رئيسة لتفاجأ بشرودها، بينما خطّان من الدّمع يشقان صفحةً
وجهاها!

تعودُ رئيسة لواقعها بعد أن بدّد صوتُ فاطمة سحبَ الذّكري
التي خيّمت فوق قلبها، تشيخُ بوجهها بعيداً كي لا ترى دموعها:

- لا، فقط عيناى تحرقنى قليلاً.

تبتلعُ فاطمة غصّة:

- أعلمُ أنّ الذّكريات مازالت تقتصّ من روحك، فهي ما توقّفت يوماً عن فعلها معي.

- تظّل الذّكريات من الماضي، وعلينا تناسيها إنّ أبت هي النسيان.

تبتّر كلماتها مبتسمةً فترتعشُ الابتسامة فوق شفاهها: أين زهرة؟
تزفرُ فاطمة بضيق:

- ذهبت لتبدّل ملابسها فوراً أنّ أتيت على ذكرُ تليد، وكأنّ ذكره قد أصابها بمسّ.

- لا تبتسي هكذا، تعلّمين ابنتك جيّداً، ثورتها حالةٌ عرضيّة، وجموحُها محكمُ الوثاق، عندما أنتهي من وضع الأطباق فوق المائدة سأذهبُ إليها.

بعد أن أفرجت النياية عن جثمان إسماعيل، قام جلال بمساعدة رحمة في إنهاء إجراءات دفنه في مقابر الصدقة، فقد شقّ عليه وسط جهل رحمة بعائلة والدها إيجاد أقارب ليدفن بمدافنهم! بعد ذلك صاحبها في رحلة طويلة وشاقّة من الإجراءات للحصول على معاشها، ينظرُ إليها وإلى ضياعها وتشتتها، تبدو كصيدٍ سهل جاهزٍ

للاكل، يستطيع أيّ رجل ببضعة كلمات معسولة أن يفتك بها دون أن تقوى على رفع أصبع واحد للمقاومة، كم ذكره هذا بحال روعة عندما تركها وحيدة في النجع.

(جلال! أهذا أنت؟ أين أنت الآن؟ لقد جاء سيدي تليد إلى دارنا بحثاً عنك.

- هل ذكر لك السبب؟

- قال إنك سرقت بعض الماشية من الزرائب التي كنت تحرسها، توعدك كثيرًا يا جلال، وأدخل وعيده الرعب في قلبي.

- لا تخشي شيئًا، أنا الآن خارج النجع، ولن يستطيع الوصول إليّ.

- هل فعلت ذلك؟

- فعلت ماذا؟

- سرقته كما يدّعي.

- لم تكن ماشية يا روعة، فقط بعض أقفاص من الخضروات،

لم يكن اختفاؤها ليشكل معضلة لدى آل المسلماني، لكن تليد يهول الأمر كي يجد سببًا لإزاحتي عن طريقه.

- أيّ أنك سرقته بالفعل، حقًا لا أفهمك! تسرقه وتدّعي أنّه

يريد إزاحتك؟ وأيّ طريق ذاك الذي تظن أنك عقبته؟

- أنت يا روعة.

- كعادتك تعطي نفسك أهمية زائفة، تليد المسلماني إن أراد
إزاحتك لن يقوم بتأليف مسرحية هزلية كهذه، يكفيه أن يأمر أحد
رجاله فيُرديك قتيلاً، وكأنَّ السنين تمرَّ عليك فلا تزيدك إلاَّ كبراً.
- تأدِّبني معي يا روعة، وإلاَّ قمت بتأديبك.
- كيفَ وقد سلبتني آخرَ سندي بالحياة؟ أبي مات بعد أن سبقته
أمِّي، وها أنت تفرّ خارج النَّجع بفعلتك، عن أيِّ أدبٍ تطالبني وقد
حرمتني من ظلك تاركاً لي ظلَّ الجُدُر الخالي من الأمان!
- أعلمُ بأنَّك قادرةٌ على الاعتناء بنفسك، لذا تحملي حتى أعود اليك.
يتهدَّج صوتها من أثر البكاء:
- عدني فقط أنَّك ستعتني بنفسك، وأنَّك ستحاول جاهداً ألاَّ
توقعها بالمتاعب.
- أعدك، إلى اللقاء.

- جلال...
ينظر إلى رحمة التي كانت تحرك كفَّها أمام وجهه يميناً ويساراً
كي تلفت انتباهه:
- هل قلت شيئاً؟
تنظرُ إليه بنظرة شكٍّ، تكادُ تجزم أن بعينه لمعة دمع:
- أتبكي؟

- لا بدّ وأنّك واهمة، البكاء للنساء يا رحمة.
- تهزّ كتفيها:
- ربّما.
- هل أنهيت جميع المعاملات؟
- نعم، واستلمت المال أيضاً، حسناً ماذا بعد؟
- ستعودين لمنزلك ريثما أنتهي من عملي.
- هل ستأخر؟
- لديّ مناوبة ليليّة يا رحمة، لذا لن أستطيع رؤيتك قبل مساء الغد كي نرتّب أمورَ زواجنا.
- لا، لن نتزوَّج قبل أن تأتي بمهري.
- الثيب ليس لها مهرٌ يا رحمة.
- لكنّك وعدتني.
- ذاك الوعد يتطلّب مالاً، وأنا لا أملك الكثير منه.
- تدفعُ إليه ببعض الرّزم المالية مردّدة:
- خذ هذه الأموال، وحقق لي وعدي.
- يتسلّم منها المالَ بلهفة:
- وأنا عند وعدي، سالم سيكونُ مهرُك.

* * *

في الصّباح، وبعد مغادرة زهرة للجامعة، خرجت فاطمة من

المنزل بصحبة رئيسة عازمةً على التوجّه للحارة التي كانت تقطنُ بها خالةُ الأخيرة، فبحثُ رئيسة الدّؤوب قد أوصلها إلى أنّ بيت خالتها كان خاليًا من السّكّان لسنواتٍ طويلة، لم يتردّد عليه خلاها سوى ابنتها في مواعيد ثابتة، نظرًا لزواج تلك الابنة خارج الحارة، ويبدو أنّها اصطحبتُ معها عائلتها! لا أحد يدري أين ذهبت، ولا أحد يعلم ممّن تزوّجت أيضًا، وكم يبدو هذا مثيرًا للرّيبة، إذ أنّ قاطني الأحياء الشعبيّة يعرفون بعضهم البعض، كما أنّ الفضول هوّ طبعٌ أصيلٌ بنفوس المصريين.

تمضي حتّى محطة المترو، تقطعُ تذكّرتين متفرّسة فيما حولها بعين العجب، فالمحروسة لم تعدّ على حالها، فخمسةٌ وعشرون سنة كافيةٌ لتغيير أمورٍ كثيرة، وأيضًا كافيةٌ لتأكل أكفان الأسرار المدفونة.

تتنظرُ على الرّصيف بجانبها رئيسة، الصّامته كأنّها نسيّت لسانها بالمنزل! تنظرُ للباعة الجائلين، للزّحام الرّهيب، وللجرائد المعلّقة على حبلٍ يتدلّى من أحدِ الحوائط، يسترعى انتباهها خبرٌ بعينه «مقتل محصل للكهرباء على يد أحدِ الأشقياء»، فتقوم بشراء الجريدة، ثمّ تدلف لعربة المترو، تقرأ الخبرَ بلا اكتراث، لكنّ اسمًا بعينه يجذب انتباهها (إسماعيل جاد الشناوي) بينما عقلها يردّد بشيء من الصّدمة:

— ربّاه، أيعقل أن يكون هو؟

— لقد وصلنا.

قالَتْها رَئِيسَة وَهي تَنظُرُ لفاطمة الممسيكةَ بالجريدة، بينما وجهها يبدو شاحباً كالأموات، ممّا دفعها لسؤالها بقلق:

- ما بك؟ هل هناك خطبٌ ما؟

تجاوبها فاطمة بتشتت:

- لا، هيّا بنا.

أنهت جملتها تاركةً الجريدةَ فوق المقعد، ثم تترجّل من عربة المترو، فتتبعها رئيسة القلقة، تتمشيان بالشوارع الضيقة، والملتفة كأفعى تتلوى بين الخرائب، عندما وصلا للمسكن المشود، وجداه مغلقاً بأقفال كثيرة؛ لذا لم تجد فاطمة مفراً من الطريق على البيت المجاور له، ثم انتظرت حتى يقوم أحدهم بالاستجابة.

تمرّ برهة، ومن ثمّ ينفرج البابُ انفراجةً ضيقة لتظهر من ورائه عيناان ثابتان كعين البوم، تحاوطهما تلالٌ من الجلد المتهدلّ، تطلّ منهما نظرة ريبة وتوجّس:

- من؟

- أنا رئيسة ابنة أخت السيّدة سعدية، جارتكم السابقة، هل يمكنك أن تعطينا من وقتك بضعة دقائق.

من دون أن تفسح البابَ قيد أنملة ردّدت:

- ألم تأت إليّ من قبل وأخبرتُك بما لديّ؟ ما الذي أعادك مرّة

ثانية؟

- رجاءٌ سيّدي، يجب أن نصلَ إليها، إنّها مسألة حياةٍ أو موت
فهلّا ساعدتنا.

كانت هذه فاطمة التي أنهتْ جُمْلَتها وهي تمدّ يدها بورقةٍ ماليّة
فئة المائتا جنيه للسيدة.

رؤيةُ المرأة للمبلغ الماليّ أذهب بعضَ حرصها، ممّا جعلها تزيد
من انفراجة الباب لتمدّ يدها قابضةً على الورقة المالية، لكنّ فاطمة
لم تفلّتها مرّدة:

- المعلومات أولاً.

تسحبُ المرأةُ الورقةَ من يدِ فاطمة بعنفٍ قائلة:

- ابنتها تسكن بحارة السّعادة التي تبعدُ عنا ببضعة شوارع.

قالَتْها هامةٌ بإغلاق باب المنزل، لكنّ فاطمة استوقفتها
بإخراجها لورقةٍ أخرى من نفس فئة الأولى، لتبتلع المرأة ريقها
فتنسأبُ الكلمات من شفّيتها بلا توقّف:

- انتقلت سعدية من الحارة بعد زواج ابنتها نرجس، كان هذا
منذ أعوام عدّة، ثمّ بعدها توفّيت سعدية، لكن نرجس ظلّت تتردّد
على الشقّة من وقتٍ لآخر، حتى عرضتها للبيع منذ قرابة العام،
كانت متعجّلة كمّن يسابق الأيام.

- ماذا عن البقيّة؟

- أيّ بقيّة؟ لم يكن هناك سوى سعدية وابنتها، هذا ما تسعفني

به ذاكرتي.

تنظرُ فاطمة لرئيسة، وقلقٌ يرتسم على محيّاها، ثمّ تلتفتُ للمرأة:
- أرجوكِ تذكّري جيّدًا، كان هناك مَنْ يسكن معها.
تهزّ المرأة رأسها:

- السنون تمرّ، وإناءُ الذاكرة بات مثقوبًا، أكاد أجزم أنّي لو
رأيت سعدية أو ابنتها؛ فلن أتعرفهما.

أنهتْ جُمْلتها مختطفَةً الورقة الماليّة من يدِ فاطمة، ثمّ أغلقتْ بابها
دون أن تزيدَ حرفًا، تهّمّ فاطمة بالطرق عليه بجزع:

- أرجوكِ افتحي، مازال لديّ الكثيرُ من الأسئلة.

تصرخُ المرأة من وراء بابها:

- أخبرتكِ بكلّ شيء، اذهبي لحارة السّعادة؛ ربّما وجدت هناك
إجاباتكِ الضائعة.

تجلسُ فاطمة على درجة السّلم بتعب، ترفع نظرها للسّماء
مردّدة:

- سترك يا الله.

بعد أن عادت رحمة لشقّتها الخاوية من الأهل والسّند، ظلّت
تتفرّس في أرجاء المنزل وكأّتها غريبة عنه، وكأنّ رحمة التي عاشت
عمرها بأكمله بين تلك الجُدر ذهبّت بلا رجعة، ربّما من يقف الآن

شبحها! شبح خالٍ من الشّعور والآدميّة، كلّ شيء بعينها بُهت، كلّ الأمور فقدت قيمتها ومغزاها فأصبحت حياتها بطعم الموت.

تعلّق أنظارها ببابِ غرفتها المُشرع، فتصطدّم بخطّ الدماء الأسود القابع كندبةٍ بطول أرض الغرفة، آخرُ ما بقي من طفلها ومن حبّها المشثوم، ومن أحلامها الوردية التي أحال غباؤها لونها للأسود، وأحال حياتها لسلسلةٍ من الخسارات المدوية، فهي تقفٌ وحيدة، تحاوطها جذرٌ جامدة، لا تستشعر ضعفها، ولا تستوعب مدى انهزامها، لا هي قادرةٌ على احتوائها وطمأنيتها، ولا هي قادرةٌ على حمايتها من النفوس الخبيثة، وصدّ النظرات الشّبهة، تقف عاجزةً كدأبها، لا تملك سوى وعدٍ جلال الهشّ بالانتقام لها وبالزّواج منها، وعودٌ لا تدري هل ستنفذ، أم أنّ صاحبها سيسلك ذات الطريق الذي سلّكه سالم من قبل؟! طريق المكر والخداع واستنزافها كليمونةٍ فاسدة وجبّ على بائعها أن يستفاد منها قبل أن يتمرّر طعمها كاملاً، فلا يبقَ منها ما يصلح للاستخدام.

ترتفعُ طرقاتٌ على باب الشّقة تنتشلها من الغرق في الجُحج أفاكارها، تفتح البابَ بمواربة لتجد شاباً عشرينياً لم تره من قبل.

بيادرها الشابّ وهو يحكّ رأسه بخرج:

- هل هذا بيت العمّ إسماعيل؟

تهمّ بإغلاق الباب قائلة:

- البقاء لله.

يستوقفها الشاب صائحًا:

- أعرفُ هذا، وجئت لأقدم واجب العزاء، فالعمّ إسماعيل كان رجلًا طيبًا بالرغم من عدم إظهاره لذلك.

- لم نَقمُ سِرا دَقْ عزاء، شكرَ الله سعيكم.

أنهتْ جُمْلَتِها غَالِقَةً بوجهه بابَ الشقة، ما إنْ هَمَّتْ بالتوجّه لغرفتها، حتى ارتفعت الطرقاتُ مرّةً أخرى، تعودُ لتفتح الباب بمواربةٍ لتصبح به:

- ماذا هناك؟!

يتنحّضُ الشابّ معتذرًا:

- لا بدّ أنّك ابنة العمّ إسماعيل، فأنتِ تشبهينه كثيرًا في التصرفات، هل يمكنني التحدّث إلى والدتك؟ أخبريها أنّ سيد القهوجي الذي يعمل بقهوة المعلّم غسل هنا، وهي بالتّأكيد ستتعرفُ إليّ، فقد كان والدك رحمه الله من الزبائن الدائمين لدينا.

- والدتي متوفّاة منذ زمن، كما أنّ أبي لم يأتِ على ذكركَ ولو لمرةً واحدة أياها السيد، فهلاً ذهبت وتركتني لحالي.

- أتسكّنين وحدك؟!

قالها سيد مستنكرًا، ثمّ تنحّضَ بحرجٍ مستدرّكًا انفعاله:
- حسنًا، محسوبك سيد في خدمتك.

أنهى جُمْلته مخرَجًا من جيبه مطروفاً مغلقاً دفعه إليها:

- هذه مساعدةٌ بسيطةٌ لا ترقى لمنزلة العمِّ إسماعيل لدي، لكن كما يقولون، نواة تسندُ الزَّير، حتى ترتبي أمورَكَ.

تنظرُ للمظروف باشمئزاز:

- لا أعرفك، ولا أريدُ مالك، هيَّا ارحل.

- أخبرْتُكَ أنَّ اسمي سيد، وأعملُ بقهوة المعلِّم عسل، وهذا ما أفعله مع جميع مَنْ أعرفهم، المال ليس بالكثير، وذلك ليس لشحِّ نفسي، وإنَّما كنت فريسةً لاحتيال أحدهم فضاعتْ عليّ ذخيرة العمر، لكنْ لا بأس، سيعوّضني الله بعوضه الجميل.

قال جُمْلته دافعاً بالمظروف إليها مرّةً أخرى لتمسكه رحمةً بقرفٍ، ونفاذُ الصَّبْرِ يكلّل محيّاها، ممّا دفعه ليهمّ بالمغادرة مردّدًا بصدق:

- لنْ أستطيع المرورَ للاطمئنان عليك من وقتٍ لآخر، كَوْنْ أَنتَ تعيشين بمفردك، لكنني متواجدٌ على الدوام بقهوة المعلِّم عسل؛ لذا لا تتردّدي في المرور عليّ إن كنت بحاجةٍ لشيء ما.

قالها موليًّا إيّاها ظهره مغادرًا.

تنظرُ إليه بتعجّب، بينما يردّد لسانُ حالها بسخرية:

- هذا أوّل شخصٍ تقابليه بحياتك ويمنحك شيئًا يا رحمة، الجميع يأخذون منك فقط!

الفصل الثاني عشر

كان الجو شديد البرودة، حدّ أن السّماء التحفّت بالغيوم مُنذرةً
ببداية طقسٍ عاصفٍ، لم يكنْ هناك طقسٌ أفضل من هذا ليواكب
انتظار جلال داخل علبته الحديدية المسماة بـ (التّوكتوك)، أبخرة
السّجائر التي تعبّى داخلها تزيد المشهد غموضاً ورهبة، وبين
سحبها المتجمّعة كان جلال يحيا ذكرياته الخاصة....

(أمام بابِ الزّريبة الملحقة بدارهم يقف، ملثم الوجه، يرتدي
جلبَاباً أسود، وبالرّغم من انتصاف الليل وخلوّ الطّريق وسكون
المنازل كسكون القبور، إلّا إنّ ذلك لم يمنعه من الالتفات يمينا
ويساراً في هدوءٍ حذر، ولو أنّه رأى المشهد بعينه لأقسم أنّه ما من
أحدٍ سيراه في تلك العتمة الخالكة، فقد كانت السّماء تلك الليلة
شديدة السّواد، حدّ أن اختبأت النّجوم وحزم القمر نورَه راحلاً
دون سابق إنذار! لم يكنْ أمامه طريقاً لانتهاك الدّار سوى الوثب
فوق أكوام القشّ المقدّسة بالخارج كي يصل إلى سطح الزّريبة، ثمّ
من بعدها يتخذ السّلم نزولاً من السّطح إلى داخلها، لم تكنْ زريبةٌ

بقدر ما كانت ساحة تجمع بين المطبخ وغرفة الخزين، وفرن الخبز (الواجيد) المصنوع من الطوب النيّ الأخضر، الذي تمّ توارثه عبر عشرات السنين، بالرغم من عدم لجوء روعة إليه إلا نادراً!

كعادة روعة تترك لمبة مُضاءة مدلاة من سقف الزّربية، كرأس تمّ بتر جسدها، فتركت معلقةً عبرة لمن يعتبر، على ضوئها دلف لداخل المنزل الغارق في الظلمة، يتمشى بأرجاء الدار التي يحفظها جيداً، بصيص من ضياء يتسلل جرّاء انفراج أحد الأبواب، بينما يتناهى لسمعه صرير مزعج، بحرص وحذر يقترب، يدفع الباب بروية وبطء ليرى مشهداً جعله يتقهقر للخلف ذهولاً، الصدمة تصيب رجولته بالعجز فتمنعه من إبداء ردّة فعل، فقد كانت روعة عاريةً تلتحف بجسد يشابه عريها، والذي ما إن ترجل منها حتى انبطح على ظهره لاهثاً، ممّا جعل وجه صاحبه مكشوفاً لجلال، الذي ما إن تعرّفه حتى اشتعلت بداخله حرائق لا تطفئها أنهار العالم أجمع!

- هل سنتنظر مطوّلاً؟

ينظر جلال بتشتت لسالم القابع جانبه، وكأنّ خطأ من النيران يفصل بينهما، فما زالت حرائق الذكرى تكوي روحه.

- ما بك، ألم تسمعني؟

يبتلع جلال ريقه ليجاوبه من بين تشّته:

- سمعتك.

أتبع كلمته بأنْ نظر لساعةٍ معصمه، فإذا هي الرابعة عصرًا،
يولي وجهه شطرَ باب الجامعة مرددًا لنفسه «لا بدَّ وأنتها على وشكِ
المغادرة الآن» ينهي جملته ملتفتًا لجلال:

- هذه لحظتك.

- حسنًا.

قالها سالم مترجلًا من التوكتوك، متّجهًا ناحية بسيل، الذي كان
يقف أمام باب الجامعة ناظرًا لساعة معصمه هو الآخر، ممّا أتاح
الفرصة لسالم كي يصدمه بخشونةٍ لا حدّ لها.

يترنّح بسيل لبرهةٍ، ومن ثمّ يعتدلّ معتذرًا.

يصيحُ فيه سالم مشيرًا لعينه:

- ما فائدة هذه إنْ كانت لا تمنعُك من الاصطدام بغيرك؟

بتهذيبٍ ردّد بسيل:

- أنتَ منْ صدمني، وبالرغم من ذلك اعتذرتُ لك.

- وما الذي سأفعله باعتذارك هذا يا ابن الكلاب.

أنهى سالم جملته ممسكًا بياقة بسيل مسدّدًا ركبته في بطنه.

بدوره أمسك بسيل بتلابيبِ سالم لتدور معركةٌ شرسة لم يتوان
أحدهما عن استعراض قوّته بساحتها، ممّا دفع المارّة للتّجمهر حولهما،
ليصادفَ ذلك خروجَ زهرة من باب الجامعة، والتي أخبرها حدسُها

أَنَّ ذَاكَ التَّجْمَهْرِيضَ «بَسِيل» أَيْضًا.

تهمَّ زهرة بالتوجَّه ناحية ذاك الصَّخب، فتربّت يدًا على كتفها من الخلف، وتوقَّف اندفاعها، تستدير زهرة لتستكشف مَنْ صاحب اليد، فتفاجأ برذاذٍ لسائلٍ ما يتطاير فوق صفحة وجهها، ممَّا جعل أطرافها ترتخي في الحال، تساندها ذراعان قويَّتان ثمَّ تسحبها لداخل التوكتوك دون أن يلحظَ أحدٌ، يُمدد جسدها فوق المقعد الخلفي، ومن ثمَّ ينطلق التوكتوك بأقصى سرعةٍ لديه.

بعد أن غادرت فاطمة الحارة التي كانت تقطنُ بها سعدية، توجَّهت من فورها لحارة السَّعادة حيث تقطنُ نرجس، وبسؤال قاطني الحارة عنها، لم يتعرَّفها إلَّا البعض، فقد كانت نرجس متحفظة في علاقتها مع الجيران حدَّ التَّباعُدِ الحذر، لكنَّها استثنَتْ مريم جارتها بالعقار من تلك الحالة، كانت صديقَتها المقرَّبة وكاتمة أسرارها، ولمْ لا! فمريمٌ غريبة الأطوار مثلها في تحفُّظها وتباعدها عن الجميع، ولولا صيْتُ ابنها كأحدِ الأشقياء، ما سمع لها اسمًا! لذا لم تضيِّع فاطمة وقتها فانطلقت لتدقَّ باب مريم، وبالرَّغم من طرُق فاطمة المتواصل حدَّ الإنهاك، إلَّا إنَّ الصَّمت كان الإجابة الوحيدة، وكأنَّ المنزل مهجورٌ منذ سنوات، بالرَّغم من تأكيدات أهل الحارة بتواجدها، يستمرُّ طرُقُ فاطمة على بابِ المنزل بينما كانت مريم

داخله ممسكةً بهاتفها، تهمسُ بقلبي جليّ:

- ما العملُ يا نرجس؟ إنَّهما يطرقان بابَ بيتي.
- أنقني دورك جيّدًا يا مريم، عليكِ ادّعاء عدم معرفتي.
- خائفة يا نرجس، ربّما أبلغوا الشرطة.
- بماذا؟ دعكِ من الخوف، وتيقّني أنّهما لن يصلّا لشيء إن لم يخطئ أحدنا.
- لم لا تخبرينها فحسب.
- أخبر من يا مريم؟ رئيسة! أبهذه السّهولة أخبرها أنّي فرّطت بأمانتها! لا بدّ وأنتك تهذين.
- لم تفرّطي بها يا نرجس، كانت الظروفُ أقوى منك، اشرحي لها ربّما تفهّمتك.
- تتأمّلين كثيرًا.
- طوال هذه السنين لم تشعر بشيء، لم تذكرك الآن؟
- بعد أن فتح الله على زوجي بعقد العمل في دولة الكويت، وقتها كنّا بأمس الحاجة للمال، لذا قمت ببيع منزل والدي، والذي كانت تأتي الحوالات الماليّة عليه، لا بدّ وأنها علمت باختفائي من الحوالات التي تمّ ردّها.
- تنهي كلامها متنهّدة:
- مريم، ما حدث قد حدث، وعلينا الآن أن نقفَ بجانب

بعضنا البعض، خاصّة وأنّ تلك الأموال كانت تصبّ في جيبيك
أيضاً؛ لذا عليك التزام الصّمت حتى تمرّ العاصفة، سأذهب الآن،
لكنني سأهاتفك لاحقاً.
أنهت مجلّتها منهيّة المكالمات.

عادت فاطمة لبيتها بعد أن سلكت متاهة نرجس من السّاعة
العاشرة صباحاً حتى السّاعة الثالثة عصرًا دون أن تكلّ أو تخور
عزيمتها، ولولا خشيتها من وصول زهرة للمنزل قبلها؛ لكانت
أكملت طرّقها الدّوّوب على باب مريم؛ لذا قرّرت فاطمة العودة
لمنزلها لتكمل غداً ما بدأته.

كانت السّاعة تعدّت الخامسة، وزهراء ما زالت خارج المنزل،
كلّما حاولت فاطمة الاتّصال بها جاوبتها الرّسالة المسجّلة للهاتف
المغلّق، بينما بسيل لا يتلقّى اتّصالات رئيسة.
ترمي فاطمة هاتفها جانباً:

- قلبي غير مطمئنّ يا رئيسة، أهذا التّأخير معتاد؟

تجاوبها بصوت قلق:

- لم يحدث هذا من قبل، كما أنّ «بسيل» دائماً يهاتفني إن حدثت
آية تطوّرات.

- إذا ما الذي أخرهما لهذه الدّرجة؟

- صبرًا يا فاطمة، فهما لم يتأخرا سوى ساعةٍ واحدة، الغائب عذرُهُ معه.

- على الأقلَّ يبعثا برسالة، أي شيء من شأنه بثّ الطمأنينة في قلبي.
ما إنْ أنهتْ جُمْلَتَهَا، حتى تعالَى طَرُقٌ على باب الشَّقة:
- ها هُما.

قالتْها رئيسةٌ مُهرولةٌ لفتَحَ الباب، والتي ما إنْ طالعَها وجْهُ
الطَّارِق حتى صرختْ عاليًا:
- بسيل!

- ماذا، ماذا قلت؟
ينكّس رأسه أرضًا كمن أفتعل جرماً، تموت الكلماتُ على
شفاهه فيلوذُ بالصمت.

يمسكُه من ياقةٍ قميصه رافعاً إيَّاه بيدٍ واحدة، فيتأوّه بسيل الذي
تورّم وجهُه من أثرِ الشَّجار:

- لمْ تجدْ زهرةً بالجامعة؟ إذا أين هي؟
بصوتٍ ملأه الخزي:

- لقد تمّ كلُّ شيءٍ بسرعةٍ جنونية، بلحظةٍ واحدة وجدتني
داخلَ عِراكٍ مع شخصٍ لا أعرفه، وحينما انفَضَّ الشَّجار وباعدَ
بيننا المارّة، اكتشفت أن السَّاعة قد تعدّت الرّابعة والنصف، ولم

تكنُ سيدتي زهرة أمام باب الجامعة، فتُشت عنها مطوَّلاً داخل حرم الجامعة وبمحيطها الخارجي، ثمَّ فكَّرت أنَّها ربما عادت للشقة وحدها، حاولت أن أتصل بها مراراً، لكنَّ هاتفها مغلق، ولم أشأ أن أجيب اتصالات والدتي كي لا أسمع تقيعها فعدتُ للشقة على أمل أن أجدها هنا، لكن...

- لكن ماذا؟ تكلم. أتعلم لم فقدت زهرة؟ لأنني اعتمدتُ على امرأةٍ مثلك في حمايتها.

قالها صالح دافعاً «بسيل» ليسقط أرضاً، بينما يجزّ على كلماته غلاً وحقداً مكملًا:

- من اليوم ثيابُ الرجال هذه ما عادت تناسبك، وعدُّ علي.. حينما أجدها سألبسك ثيابَ امرأة، ومن بعدها سأطوفُ بك النّجع حتى يراك الصّغير قبل الكبير.

أنهى صالح جملته مغادرًا، لتجري رئيسة على ابنها المكوّم أرضاً كخرقةٍ بالية محتضنة إياه، بينما عيناها تسكب دمعاً كثيفاً شفقةً بابنها.

- أعد لي ابنتي يا صالح؟

قالتها فاطمة مُنتحبة.

يلتفت صالح لوالدته بغضب، وكأنّه يريد خنقها:

- أنتِ السّبب فيما يحدثُ لنا، زهرة ضاعت، وشرُفنا بات على المحكّ، أرجو ان تكوني سعيدة بحصادك.

قالها هامًا بمغادرة المنزل، لتتهاوى فاطمة أرضًا، ويتهاوى معها عالمها، تمسك بها تفها كغريقٍ يبحث عن طوق نجاة، تكون رقمًا ومن ثم تتصل، ما إن أتاها الصوتُ من الطرف الآخر حتى انهارت باكية، بينما الكلماتُ تنطلق من حلقها بصراخٍ مدوّ:

(- ابتعد عن طريقي يا خادمَ الشياطين. قالها وهو يدفع الخادم الكهل من أمامه دالًّا إلى الدار، ثم أخذ يبحث بين جنباتِه كمن فقد شيئًا، ما إن دلف لأحدِ الغرف حتى وجدها جالسة أمام مبخرتها في هدوءٍ تامٍّ كأنّها على علمٍ مُسبقٍ بمجيئه، ترشقه بنظراتٍ متشّفةٍ بينما تزيد البخور:

- أهلاً بك يا شيخ يونس، ربّما وجبَ عليّ أن أتخطّى الرّسميات، فنحنُ على وشكِ الزّواج، كما أنّ كلمة زوجي تبدو أفضلَ وقعًا، ألا ترى ذلك؟!

يقترّب منها متوعّدًا:

- لن أتزوّجك، وهذا الاتّفاق عليك نسيانه تمامًا، وإلا...

تقاطعُه بصوتٍ كالفحيح:

- وإلا ماذا؟ ستقلبُ أهل النّجع ضديّ بأحدِ خطبك الرّنانة، أم ستستعينُ بصهرِكَ ليطرّدني خارج النّجع! من سيستمعُ إليك يا شيخنا، خاصّة وأنّ قصّتي بها الكثيرُ من التّشويق والإثارة، بالطبع

لن يصدّقوا ببداية الأمر، لكنّهم سرعان ما يتيقّنوا بأنّه (لا دخان من دون نيران متّقدّة).

- من أيّ شرّ عجنّت! أيّ نوع من القدرة أنت؟

تجزّ على أسنانها بشكلٍ يُشبه الابتسامة، بينما تردّد بحقد:

- أنا نتاجٌ ما اقترفته أنت، فلا تتأفّف من بشاعة صنيعك.

تصمّت لبرهة، ثمّ تشابك ذراعيها أمام صدرها، بينما تشدّد على كلماتها مكملة: لديك مهلةٌ حتّى الخميس القادم لتعقدَ عليّ، أظنّها مهلةٌ كافيةٌ لترتّب أمورك، وتعلن الخبرَ بأرجاء النّجع، وإلاّ عليك من الآن أن تتجهّز لتبعات عنادك.....)

ما زالت الذّكري تطارده مع كلّ حرفٍ يقرأه من كتاب الله، كشيطانٍ يوسوسُ إليه ليعرض عن الذّكر! يعلم أنّ الامر كان أكبرَ منه، وأنّ يَمّ الحقائق كان ليغرّقه هو وعائلته لولا إذعانه للاتّفاق، لم يجد حينها متنفسًا لضعفه سوى اعتزالِ فاطمة ووالدته، والصّبر على الابتلاء بزواجه من العرّافة التي لم يقربها يومًا، تاركًا لها حريّة الطّلاق متى شاءت، كان عليه أيضًا أن يعتزلَ أهل النّجع بعد أن أصبح منافقًا أمامهم بزواجه من امرأةٍ كان يحذّرهم منها! ثمّ قرّر من بعدها أن يتعبّد في محراب الصّمت واهبًا نفسه وقلبه لله، طامعًا في رحمته ومغفرته، سنونَ عجافٌ مرّت عليه، أحدثت فجوةً وشقافًا بينه وبين أخته حدّ أنّ كلًّا منهما بات يتحاشى النّظر لعين الآخر!

يزداد ألم الذكرى، ويزداد معه نحيبه، مازال الذنب يؤرقه، يقرأ القرآن بصوت ورع مرتجف، عيناه تسكب دمعاً خاشعاً، جسده يهتز من أثر البكاء، كلما صادفته آية عن النفاق شعر بالخزي والدناءة، فيهرول مسرعاً لقراءة آيات المغفرة، فيردد: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا * رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا * رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ * وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا * أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} (الاية رقم 286 من سورة البقرة)

صوت هاتفه يرتفع فيقطع تلاوته، يلتقط الهاتف فيجد أن المتصل فاطمة! يجاوبها بصوت متحرج:

- السلام عليكم.

فيأتيه صوتها صارخاً مرتعشاً:

- يونس، أنا بالقاهرة، أحتاج كتفاً أتوكأ عليه دون أن يلومني أو يحاكمني، ويدُّ تحنو عليّ لا لتسعني بسياطها، أريدُ أبا أرتمي بأحضانه لأنسى جميع مخاوفي، وأخاً يحميني ويهبّ للزود عني، هل يمكنك أن تكون أخي ولو لمرة واحدة؟ فقط هذه المرة، أيمكنك فعلها؟
يجاوبها منتحباً:

- لك ما تريد يا فاطمة، لك ما تريد، بضع ساعات وأكون عندك بإذن المولى.

- كعادتك.. لا تعقل، ولا عقل فيما تفعل، أتعلم ما الذي
ساهمت فيه للتو؟

قالها مينا صائحًا.

- اهدأ قليلًا، وأخبرني بم رأيت؟

- لقد ساهمت للتو في عملية اختطافٍ دون أن تشعر أيها الأحمق.

- ماذا؟!!!

- جعلك تفتعل شجارًا مع ذاك الشاب؛ ليختطف فتاةً في

غفلةٍ من الجميع، ولم لا! فقد كانت الأنظار معلقة بعراكٍ أحمقين لا
يدركان ماذا يُحَاك لهما.

- قتل، ثم اختطاف، وماذا بعدُ يا الله؟

ردّد سالم بصدمة، وهو يخرّ أرضًا على ركبتيه.

يمدّ مينا يده لسالم مردّدًا:

- يمكنك أن تظّل أرضًا فيدعسوك بأقدامهم، أو تكنُ

كالأشجار تموت منتصبًا!

يتمسّك سالم بيد مينا ناهضًا، ودمعٌ يتلألأ بعينه:

- أمازلت تذكر؟!!

- لم أنسَ يومًا.

- يبدو أنّ الحياة مصرّة على أن تبقيني أرضًا، ماذا عليّ أن أفعل؟

- أماملك طريقان.

- ما هما؟
- استفسر سالم يئأس.
- الهروب، وهذا ما لا تجيده.
- والآخر؟
- أن تواجه وتقاتل، هذا ما تجيده على الدوام.
- كيف وأنا لا أعلم من هي تلك الفتاة، ولا أعلم إلى أين أخذها! حتى لا أعلم من أين أبدأ.
- هل نسيت أنني كنت أراقبه؟
- يخبط سالم على جبهته كمن تذكر شيئاً هاماً:
- لقد نسيت هذا الأمر كلياً، أخبرني هل استطعت أن تعرف إلى أين ذهباً؟
- نعم، فقد تبعته حتى أدخل التوكتوك لمخزن مصنع قديم.
- يدفع سالم مينا أمامه صائحاً:
- ومازلت مكانك، هيّا.
- يوقفه مينا صائحاً:
- سالم، لا بدّ لنا من خطة مُحكمة نسير على هداها كي لا تنغمس أقدامنا عميقاً بتلك الأزمة الموحلة.
- ألدّيك واحدة؟
- بالتأكيد، ونحن بارعان في تنفيذها.

ينظر سالم إليه بأمل:

- ما هي!؟

تفيق زهرة وتلاؤً من أحمالٍ تُثقلُ رأسها، أنفاسها ضيّقة،
وضعية جسدتها غير مريحة، تحاول تعديل وضعها، إلا أنّ شيئاً ما
يكبل حركتها! تحاول بكل قوتها أن تتحرّر من قيودها، أو أن تفتح
عينها لتستوعب أين هي، وما الذي يكبلها هكذا، تعصر ذاكرتها
لآخر مشهدٍ فلا يسعفها وعيها، تزداد حدة محاولاتها فيزداد ألمها
وصداغُ رأسها.

- أخيراً استيقظت بيضاء الثلج!

تفتح عينها بصعوبة، تحاول أن تحدّد مصدر الصوت، ما إن
رأت صاحبه حتى اتّسعت عيناها رعباً:

- من أنت؟ وما الذي تفعله هنا؟

- أعلم أنّك لن تتذكّرني، لكننا تقابلنا قريباً، أمّا عن تواجدي
فهذا لأنني اختطفتك.

تنظرُ إليه بصدمة، يتملّكها شعورٌ بأنّها تسمع مزحة أو أنّها
بقلب كابوس بشع، وستستيقظ منه بعد برهة، لكن الذاكرة
كعادتها، تسعفنا وقتاً أن نكفّ عن دق أبوابها؛ لذا كان على ذاكرتها
أن تعاودها لترسم لها آخر ما رآته بعينها؛ تجمهر المارّة، رذاذ يرش

أمام صفحة وجهها، تغمض عينيها بألم:

- لم؟! أيّ ذنبٍ اقترفته بحقك لتفعل بي هذا؟

- وهل كلّ ما يحدث لنا حصادُ أفعالنا؟ قد لا نزرعُ الشوك،

لكنّنا غالبًا ما نحصدّه.

- لقد اخطأت الحصادَ هذه المرّة، حتّمًا لا تعلم من هي عائلتي،

وإلا لما أوقعتَ نفسك بمأزق كهذا.

يبتسمُ في سخرية:

- بل أعلمُهم جيدًا يا شامية المسلماني.

تتفرّس في ملامحه، شيء ما يُخبرها أنّها قابلته من قبل، لكنّ

ذاكرتها لا تسعفها وقت الحاجة كعادتها:

- أتعرفُهم؟

- ستريّ.

بترَ كلمته ممسكًا بهاتفه، كوّن رقمًا، ومن ثمّ اتّصل:

- معك جلال، لن أطيل عليك، فأنا أكادُ أشتّم رائحة الحرائق

المندلعة بقلوبكم الآن، أخبر «تليد» أنّ زوجته معي، إنّ كان يتحلّى

بالرجولة فليأت لاُسترجاعها، إنّ تأخّر تليد أو حاولتم إخبار

الشرطة أو التلاعب بأيّ شكل فسأغتصبُها بأبشع الطرق ثمّ من

بعدها سألتقطُ لها صورًا ستُبهركم حتّمًا حينما ترونها على مواقع

التّواصل الاجتماعي.

أنهى جملته غالبًا الهاتف نازعًا للشريحة، ومن ثم شرع في إتلافها.

- أعد علي ما أخبرك به مرّة أخرى.

منكس الرأس كعادته منذ اختطاف زهرة، وبصوتٍ لا روح فيه
كرّر عليه ما قاله جلال بالنص.

يخبطُ صالح الحائط بقبضته:

- أواثق أنت أنه جلال شقيق روعة؟

- لن أخطئ صوته، كما أنه عرفني بنفسه.

- وكيف لجلال أن يتعرف زهرة؟ لا أذكر أي مناسبة جمعتها

من قبل!

ينظر بسيل بقلقٍ لوالدته، فتسابق رئيسة بالرد:

- قابلناه مصادفةً بحفل خطبة الدكتور راشد مدرّس زهراء بالجامعة.

يجزّ صالح على أسنانه مخاطبًا والدته:

- أتمنى أن تكوني سعيدةً بما حدث.

تصيحُ فيه بحنق:

- كفّ عن ملامتي، كلّ هذا بسببك أنت، كنت تعلم بعلاقة

تليد المحرّمة مع روعة، لكنك التزمت الصّمت فكانت النتيجة أن

اتخذ جلال ابنتي حطبًا لانتقامه.

تنهض من مقامها ناظرةً إليه بقوة مُكملة:

- هذا خطؤك، وعليك إصلاحه بأيّ ثمن، حتى وإن كان دمّ
تليد نفسه.

يغمضُ صالح عينيه لبرهةٍ في محاولةٍ لكبح زناد غضبه.

- لا مفرّ من إبلاغ الشرّطة. (أكلمت فاطمة).

يصيحُ بوجهها عاليًا:

- ما رأيك أن اتّصل ببرنامج صبايا الخير أيضًا؟ ألم تفهمي
بعد! ناهيك عن تهديد هذا النذل، فإخبارُ الشرّطة يعني أن يتسلّل
الخبرُ للجرائد ومواقع السّوشال ميديا، وتصبح سمعتنا علكةً في
أفواه الجميع، سيحطّ هذا من قدري وقدرِ العائلة، خاصّة وأنني
كبيرها، سيردّون أن «صالح» عاجزٌ عن حماية أخته فكيفَ له أن
يحمي عائلته؟ لذا لن أسمح بحدوثِ هذا، وإن كان الثمنُ التضحية
بالجميع، وبزهرة نفسها إن تطلّب الأمر.

أمسك بهاتفه مكوّنًا رقم تليد، ثم اتّصل:

- مرحبًا تليد، أريدك أن تأتي للقاهرة غدًا لإنهاء بعض الأمور العالقة.

يأتيه صوتُ تليد مُستغربًا:

- ماذا عن النّجع؟!

- لن يحترق النّجع لغيابنا، دُعْ أموره ليسيّرهما رجالنا.

- حسنًا، كما تريد.

- أريدك أيضًا أن تصحبَ معك روعة؛ فقد توفّي جلال

شقيقتها، وعليها أن تستلم جثمانه.

- كيف حدث هذا؟!

- قصّة طويلة سأخبرك تفاصيلها عندما أراك.

قالها منهيًا الاتصال، وغضبٌ أعمى يغشى تعقله، ويدفعه للاتّصال مرّة أخرى، لكن برقمٍ مختلف، ما إن أجاب الطرف الآخر حتى ردّد بهدوءٍ ما قبل العاصفة:

- مُر الرجال بمراقبة تليد جيّدًا، إن لم يتوجّه إلى القاهرة بحلول الصّباح، كبّلوه وأحضروه إليّ، ولا تنسوا أن تأتوا بروعة أيضًا.

- أمرك سيدي.

- أخبر «إيهاب» أن يتخيّر من الرجال عتاتهم، ومن ثمّ يوافني بهم، لا وقتَ للتلكؤ؛ لذا الطّيران يبدو مناسبًا.

أنهى تليد مكالمته مع صالح، وشكوكٌ توخّزُ فكره؛ مكالمته الهاتفية ليلاً، طلبه السّريع لقدمه، نبرةٌ صوته وخبرٌ موت جلال، كلّ هذه الأشياء تكالبت على قلبه لتنزِع منه الرّاحة والأمان، وبالرّغم من أنها ليست المرّة الأولى التي يطلب فيها صالح طلبًا كهذا، إلّا أنّ الأمر يبدو غريبًا، ربّما لو كان طلبه يخلو من ذكر روعة ما كانت لشكوكه أن تتواجد، لكن أن يسافر بصحبته هذا ما أقلّقه، إذ لم يصحبها هو، بينما يُمكن لأحد رجال صالح أن يفعلها! ومنذ

متى اكرث صالح لموتٍ أحدٍ خارج دائرة رجاله!
«أيعقل أنه علم بما أخطط له» هكذا حدث نفسه!

- من المتصل؟

كانت هذه روعة.

وكأنه لم يلحظ تواجدها إلا للتو، ينظر إليها بحيرة، لا يدري
أيخبرها بأمر جلال أم عليه الانتظار حتى يتأكد أنها ليست خدعة من
صنع صالح! يترك الهاتف جانباً ومن ثم يعود للفراش:

- كان هذا صالح، علي السفر باكراً للقاهرة.

تلتف ذراعها حوله مُحضنة، بينما يرتاح رأسها على صدره:

- سأشتاق لك كثيراً.

- ما رأيك بأن تأتي معي؟

- هل يُمكنني ذلك؟ ماذا عن سيدي صالح؟

ينظر لعينيها العاشقة ولشعرها الفاتن، كلما لامسها أيقن أن
حبها ما هو إلا سعادة مؤقتة لن يكتب لها الاستمرار، فأحياناً يروق
للقدرِ معاندة الحب!

- تعلمين أنني لا أخشى أحداً.

- لكنني أفعل، فأنت كل ما أملك بهذه الحياة.

- ماذا عن جلال يا روعة؟

تدفن رأسها بصدرة:

- لا حرمني الله منكما، ولا أراني فيكما مكروهاً.
كلماتها توخز صدره، عشقها اللا محدود يقوده للجنون، دفنها لرأسها
بين أضلعه وكأنتها خلقت منه، يدفعه لوطئها تعبيراً عن حبه بالطريقة
الوحيدة التي يعرفها، فالكلمات لا تسعفه بقدر ما تسعفه فحولته!

- عير، أين صديقتك زهرة؟ سيبدأ اختبارُ المعمل بعد قليل،
أخشى أن تفوته.

تتلّفت عير حولها، بينما تضع هاتفها فوق أذنها لتتصل بزهرة،
ما عادت تحصي محاولاتها للاتصال بها منذ أن اكتشفت غيابها هذا
الصباح، كل ما تعرفه أنّ هاتفها مغلق إلى جانب عدم تواجدها،
بالرغم من رؤيتها لسبيل أمام باب الجامعة!
تزيح الهاتف من فوق أذنها لتعيد الاتصال مرة أخرى، بينما
تجاوب صديقتها بقلق:

- لا أعلمُ يا راوية، حقاً لا أعلم، هاتفها مغلق، والأمر برمته يقلقني.
- ذاك الحارسُ الشخصي الذي يتبعها كظلّها يقف أمام
الجامعة، لم لا تسأليه؟
- أعتقدُ أنّي سأفعل، تابعي بابَ المعمل وهاتفيني إن جدّ أمرٌ
ما، لن أتأخّر.

أنهت جملتها مَهْرولةً كمن يسابق الرّيح، ما إن تحطّت بوابة

الجامعة حتى تلتفت يميناً ويساراً وسط الزحام، لتقعَ عيناها على
بسيل الذي كان يتفرّس في وجوه الحلائق كأنّه يبحثُ عن أمرٍ ما،
تقرب منه مبادرةً:

- آسفة أستاذ بسيل على التّطفّل، لكنني لا أجدُ زهرة بالجامعة،
هل هناك خطبٌ ما؟

يلتفتُ إليها بينما تكلّل الدهشة وجهه، إنّها تلك الفتاة التي
أخبره جلال بأنّها خطيبته، يندفعُ نحوها كثورٍ هائجٍ ليقبضَ على
ذراعها صائحاً:

- أينَ جلال!
تحاولُ سحبَ ذراعها من قبضته، لكنّ ذراعها مقيدٌ كمن
أطبقتُ عليه كمامةً، تصرخ فيه بحنق:
- هل جُننت! أتركُ ذراعي، ومنَ جلال هذا؟!

على الطّرف الآخر، وقفَ سالم أمام باب الجامعة على أملٍ أن
يجدَ الشخص الذي تعارك معه بالأمس، وحينما طالَ به الانتظار
أمسكَ هاتفه واتّصل:

- ما الأخبارُ لديك؟
- مازال جلال بالداخل، الأجواء تبدو هادئة، وأنت؟
- لم يظهرْ ذاك الشابّ بعد.

قالها سالم ساحقًا عقبَ سيجارته بحذائه، ثم التفت متفرسًا في
الوجوه من حوله، ليصطدم نظره بوجه الشخص المنشود، فيصيح بمينا:
- لقد وجدته.

- سالم، التزم بالخطة، تتبعه فقط حتى نعرف تفاصيل الأمر.
- سأحدثك لاحقًا.

قالها سالم وهو يُغلق الهاتف قاطعًا استرسال مينا، ليمضي من
فوره تجاه بسيل القابض على ذراع فتاة ما وكأنه يتعارك معها! يقترب
منهما ليسمعه يصيح بتوعد:

- لن أتركك قبل أن تخبريني أين يوجد جلال.
يربت سالم بيده على كتفه، فيلتفت إليه بسيل الذي ما إن تعرّفه
حتى صاح فيه بغضب:

- أنت مرة أخرى! لقد جئت لحتفك.
أنهى جملته مُنقّضًا على سالم، الذي تراجع للخلف رافعًا يده
علامة الاستسلام:

- قبل أن تقوم بأيّ تصرف أخرق، لديّ ما تبحث عنه.
بذهول ردّد بسيل:
- ماذا؟!!

يأحدي الحداثق المتناثرة بمُحيط الجامعة، حلّق صالح وبسيل

حول سالم وكأنّه مجرّم يخشيان فراره!

- لمْ لمْ تذهب للشرطة وتُخبرهم بما لديك من معلومات؟
- لا يمكنني ذلك حالياً، فبيني وبين الشرطة سوء تفاهمٍ مازال قائماً، كما أنّه لا يُمكنني الإبلاغ عن عملية اختطافٍ وأنا لا معلومات لديّ عن ابنتكما.

يقرب صالح وجهه منه ناظراً لعمق عينه:

- وما الذي يدفعني لأصدّقك؟ ما الذي يضمنُ لي أنّ تواجدك هنا ليس مخطّطاً آخر من مخطّطات جلال؟
- جئتُكم لتبادل المنفعة، أنتم تريدان استعادة ابنتكما، وأنا أريدُ التخلص منه، لكنّ إن شئتَ ذهبْتُ واختفيتُ عن أنظاركما للأبد.
- ما اسمك؟

- لمْ؟

قالها سالم بتعجّب.

- سأتعرف على ماضيكَ من أصدقائنا في الدّاخلية.

يضحك سالم بتهكّم:

- طالما أنّ أصدقاءك بالدّاخلية فلنْ يصعب عليك استرجاع ابنتكم دون الحاجة إليّ؛ لذا اسمح لي بالمغادرة فلديّ ما يكفي من المتاعب، ولا وقتَ لديّ للغة التّرهيب هذه.
- قالها هامّاً بالمغادرة.

يكشفُ صالح عن سلاحه المختبئ بطيّات ثيابه صائحًا:
- أثبت مكانك.

ينظرُ سالم للسلاح المتدلي من جيب صالح، وابتسامةً مستهزئة
تلوي شفاهه:

- أعتقدُ أنّي أخافك، أو أخاف سلاحك هذا! هيّا تفضّل
وافعلها، يُمكنك قتلي هنا بعرض الطريق، ولن يكثرَ أحدٌ
لفعلتك، لكنني لن أسمح لك أبدًا بأن تسلمني لمقصلة الشرطة
دون مقاومة.

يرتفعُ رنينُ الهاتف قاطعًا احتدامهم الدائر، وشاراتُ الغضب
المحتقنة، يرفع صالح هاتفه مجيبًا:

- متى ستصل؟

- جيّد، سأرسل لك العنوان لتوافيني هناك.
أنهى جملته غالفًا الهاتف ملتفتًا لسالم:

- أين يوجد جلال؟

- هل اتّفقنا؟

يجزّ صالح على ضروسه: نعم.

- سأخبركما.

- لا، لن نخبرنا، بل ستأخذنا إليه.

قالها صالح مشيرًا لسالم بالتقدّم أمامه، بينما أمسك بذراع بسيل هامسًا:

- هل آنستي يمكنها حمل السلاح، أم أنها ستولول مرّعبة كالنّسوة؟

ينكّس بسيل رأسه أرضاً، بينما يجاوبه بصوتٍ مختنق:

- لن أخذلك مرّة أخرى، هذا وعدٌ منّي.

أنهى جملته لاحقاً بسالم الذي التفتَ إليهما سائلاً:

- هل لديكما خطّة؟

- هل لديك واحدة؟

قالها صالح بتحدٍّ.

بيادله سالم التّحدي صائحاً:

- ما مدى سرّعتك في إصابة الهدف؟

الفصل الثالث عشر

يقترِبُ منها سائلاً:

- ماذا!! أتقولين شيئاً؟

تزدادُ همهماتِها وتنهمرُ دموعُها، بينما يتلوّى جسدُها المكبّل بلا هوادة.

- آه، كيف غفلتُ عن هذا! يبدو أنّ هناك شريطاً لاصقاً يكمّم فمك، حسناً سأزيله لكنّ إن صرخت..... فلن يسمعَكَ أحدٌ.

أنهى جُمْلته مقهقهةً بهستيرية واضحة، ينتهي من ضحكاته وهو يزيلُ الشريط اللاصق لتصرّخ فيه بغضب:

- مثانتي ستنفجرُ يا حيوان.

ينظرُ إليها بجمودٍ نظرةٍ ارتعدت لها أوصاله، يمسكُها من حجابها بعنفٍ صائحاً بجنون:

- ابنة المسلماني حقاً، كدأب عائلتك، الجميعُ بنظرِكم حيواناتٌ وجبَ قنصُها إن صعبَ ترويضُها، ولو أنّك نظرتِ لعائلتك بعين الإنصاف لرأيتِ زريبةً كاملةً من البهائم؛ لذا حاولي التزامَ الأدب وإلا أريْتُكَ وجهي الحيواني.

أنهى جُمْلته مفلتًا حجابها، ثمَّ أشارَ لسطلٍ بأحدِ الأركان:

- دورة المياه أمامك، هيّا أنجزى مهمّتك، أم تريدان مساعدة؟
من وسطِ دُموعها:

- أرجوك، لا يمكنني الاحتمال أكثر من هذا.
يرفع كتفيه بلا اكتراث:

- الخيارُ لك عزيزتي.

تنهمرُ دُموعُها جرّاء عدم احتمالها، تننّ مئانتها بشدّة، الإعياء
يتملّكها، تشعر بفقدانها السيطرة على عضلات جسديها، يقتربُ
منها ونظرةُ جنونٍ ترسم على وجهه:

- دعيني أساعدك. (قالها مقتربًا).

تتخبّط بين يديه مُرتعبة، كمن يصرّع الغرق، فيصفعُها بظاهِر
كفّه، تزداد مقاومتُها وتلوّيهَا، تصرخ فيه:

- ابتعد عني يا قدر.

فيزيده صراخُها جنونًا.

يحملُها كطفلةٍ تجاه السّطل، ما إن اقتربَ منها حتى دفعها أرضًا
ليصطدمَ رأسُها بالجدار في رحلة سقوطها فتفقّد الوعي، بينما تتكوّن
أسفلها بركةٌ من المياه.

ينظرُ إلى جسدها المكوّم، وضحكةٌ ساخرة تكلّل ثغره:

- من منّا الآن الذي يبدو كالحوانات؟

أنهى جملته واضعاً شريحة جديدة داخل هاتفه، ومن ثم أرسل لبسيل رسالة نصية بالعنوان، ثم أنهاها محذراً:
(لا أتوقع سوى زيارة تليد، وإلا لن تروا ابتكم بخير مرة أخرى)
أنهى إرسال رسالته، ومن ثم أغلق الهاتف نازعاً للشريحة كعادته.

كاد الليل يتتصف حينما أصبح تليد وروعة في المكان الذي أرسله صالح باستخدام برنامج (gps الخرائط)
تنظر روعة بقلقٍ للخرائب التي حولها، والظلام الذي يلف المنطقة الخالية من طيف البشر:
- ما هذا المكان يا تليد؟!

ينظر تليد بدوره لما حوله، ويقينٌ يتملّكه بأنّ «صالح» قد أعدّ له فخاً، فلا مبنى قائمٌ على حاله بهذه المنطقة، بل بقايا مصانع مهذّمة ومهجورة متناثرة كمخلفات حرب، يُخرجُ سلاحه وهو يحود بمقود السيارة للعودة للخلف، لكنّ دقّ على زجاج النافذة يبتّر أفكاره، ليرى «صالح» بجانب بابهِ مُشهرّاً سلاحه صائحاً:
- ترجّل.

بسرعةٍ حود طارة السيّارة مع تغيير نظام الدّفع لتسير السيّارة للخلف، لكنّ بسيل الواقف خلف السيارة دفعه للتوقّف بعد أن أطلق رصاصةً تحذيريةً نحو كبِد السّماء.

يفتحُ صالح البابَ المجاور لتليد مصوبًا سلاحه تجاه رأسه:

- ترَجُل، وأنتِ أيضًا.

يخرجُ تليد من السيارة صائحًا بغضبٍ كثورٍ أسقطوه أرضًا:

- ما هذا يا ابن العمِّ؟ أدبّر لقتلي؟ ظننتُك رجلًا تقاتل وجهًا لوجه.

- إن كنتُ أريد قتلكَ ما كنتُ جعلتُك تكابد عناءَ السفرِ إلى

القاهرة، كنتُ فعلتُها وأنت بعقر دارك بين رجالك.

- إذا لمْ هذا الغموض! أين المشفى، وأين جلال؟

قالها تليد وهو ينظرُ حوله بغضب.

- ما به جلال؟

تسأله روعة في خوفٍ، بينما دمعٌ يطفر من عينيها.

- لا تتعجّل، فجلالٌ ينتظرك بالداخل، وبحوذته زهرة، فقد

اختطفها ثأراً منك.

أنهى جملته ناظرًا الروعة باشمئزاز.

- وأنت ساعدته للنيل مني، عوضًا عن تحذيري وإخباري بما فعل.

- أختي بحوذته، ولا يمكنني أن أعول عليك، فربما لو أخبرتك

لمكثت في النّجع جاعلاً من اختطافها سلاحًا يطيحُ بسمعتي ويزيحي

عن طريق السّيادة الذي تتمناه منذ خلافتي لمنصب كبير العائلة.

- جلال خاطئ، ما بيني وبين تليد ليس زنا؛ فأنا امرأته أمام

الله، ومعني ما يُثبت ذلك.

كانت هذه روعة التي أنهت جملتها وهي تُخرج ورقة الزواج العرفي أمامهما.

ينظرُ صالح لتلبد متهمكًا:

- ها قد حلّت معضلتكما.

أنهى جملته مشيرًا لهما بالتقدّم ليَمْضيا أمامه، بينما خاطب «بسيل» من دون أن يلتفت إليه:

- حاول ألاّ تخذلني مجددًا.

* * *

- ما الأخبار؟

كان مينا مستلقيًا فوق أحدِ الأسقف المهدّمة، والتي بالرغم من بُعدها عن المخزن الذي يضمّ «جلال» وزهرة، إلّا إنّها تكشف ما يحدث بالداخل، يترك مينا منظاره ملتفتًا لجلال بحنق:

- مازالا بالداخل، ما الذي أخرجك هكذا؟

- كنت أسوّي أموري مع أهل الفتاة.

يعود مينا للمراقبة مرّة أخرى:

- وهل تمّت الأمور على خير؟

- أعتقد ذلك.

- إذا ما هي الخطة؟

يرفع سالم كتفيه بلا مبالاة:

- تشّيت انتباه.

يلتفتُ إليه مينا بعدم فهم:

- ماذا؟

بعد أن سمع جلال دوي الرصاصة بالخارج، قام بإعداد عدّته لاستقبال تليد، يدرك جيدًا أنّها مسألة وقت حتى يظهر أمامه، فصالح لن يتوانى عن إحضاره بنفسه كي يستردّ أخته، لذا قام بتكبير زهرة إلى كرسي وضعه بمنتصف ساحة المصنع المهجور، بينما وقف خلفها مسدّدًا سلاحه نحو رأسها، يخاطبها دون أن يكثرَ لهمها:

- أتعلمين ماذا سأفعل؟

يجابه صوتها المختق، وحركات رأسها الرافضة، فيكمل كأنها يخاطب نفسه:

- سأقتلهم جميعًا، روعة وتليد وصالح، أتعلمين لم؟ لأنّ «تليد» جعل من روعة عاهرة، بينما وقف صالح يشاهده وهو يدعسُ شرفي دون أن يفعل شيئًا، فأصبح بذلك شريكًا في الجرم مثلها، أتريدين أن تعرفي ماذا سأفعل بك بعدها؟

يزداد تلويها وصرأها المكتوم، ليطلق ضحكةً مجلجلة:

- سأدعُ خيالك يجيب تساؤلي.

لم يكذّ ينهي ضحكته حتى شعرَ بقدوم أحدهم، يسحب صمام
الأمّان من مسدّسه ليقربه من رأس زهرة صائحا:

- أخيراً أتيت.

تلفظ العتمة كلّاً من تليد ورّوعة، كلاهما رافعٌ يديه بمحاذاة
رأسه علامة الاستسلام، يتبعهما صالح ومسدسه مشهراً نحوهما
ليردّد بحذر:

- ها هي أمانتك، فأعطني أمانتي.

يضحكُ جلال بانتشاء:

- مهلاً، بهذه السرعة! لا بدّ من ضيافتك أولاً.

ما إنْ أنهى جملته حتى كشف ستار الجُدُر المحيطة بهم، عن أربعة
رجال مفتولي العضلات، كلّ منهم يُشهرُ سلاحه نحو ثلاثتهم، ممّا
دفع «صالح» لأنْ يمسك برأس رّوعة جاعلاً من جسدها درعاً
واقياً له، بينما يصيح بغضب:

- لا تكنْ أحمق يا جلال، تريد «تليد».. ها هو أمامك، لكنْ لا

داع لزجّ النساء في تصفية حساباتك.

- تليد زوجي يا جلال، ولم يخطئ بحقّك، أرجوك يمكننا حلّ الأمور.
كانت هذه رّوعة صارخةً من وسط دموعها.

يدفعُ تليد بورقة الزّواج العرفي أمام جلال قائلاً:

- رّوعة زوجتي، وأنتَ بمثابة أخي، خلّصني منهما، وسيكون

إرث المسلماني بقبضتنا، حينها ستعودُ للنَّجع مرفوعَ الرَّأس، وأختُك ستصبح سيدةَ عائلة المسلماني وزوجتي أمامَ الجميع.

يتراجع صالح للخلفِ ساحبًا روعةً معه متلفتًا حوله في حذر،
بينما يصيح مستفسرًا:

- هل ستصدِّقه؟

- لمَ لا؟ يبدو الأمر عادلاً.

قالها جلال بلا اكتراث.

- إذا لقد حفرت قبرك للتو.

ما إن أنهى صالح جُمْلته حتى خرج بسيل يتبعه سالم وبعض الرجال من قلب العتمة، يتردد بأذهانهم تحذير سالم المكرر «احفظوا أماكنكم جيدًا» ينظرُ الفريقان لبعضهما البعض بتحفظ، الجميع مدجج بالأسلحة، الجميع على أهبة الاستعداد، وبحرٍّ من الدماء على وشك التكوّن، بينما تجهّز الموتُ لرقصة الوداع الأخيرة على شرف النوايا المحتقنة! وفي غمرة الترقب انطفأت الأنوار فجأة، وابتلعتهُم غياهبُ الظلمة، لتبزغ في لحظة شمس عدّة وسط دويّ يصمّ الأذان.

بعد مرور خمسة أشهر، داخل قصرِ المسلماني....
يدلفُ صالح إلى حجرة المجلس يتبعه بسيل وبعض من رجاله،

يَتَّجِهَ بِتَوَدَّةٍ إِلَى كُرْسِيِّهِ، بَيْنَمَا تَحَاوِطُهُ الْوُجُوهُ الْمُتَحَفِّزَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
كُضْبَاعٍ تَرِيدُ نَهْشَهُ! يَتَّخِذُ مَقْعَدَ كَبِيرِ الْعَائِلَةِ فَيَحْلُقُ حَوْلَهُ أَتْبَاعُهُ،
يُحْكِمُ قَبْضَتَيْهِ فَوْقَ جَانِبِي الْمَقْعَدِ، بَيْنَمَا يَتَفَرَّسُ فِي وَجْهِ الْحُضُورِ
بِقُوَّةٍ وَتَحَدٍّ:

- مَا بَكُمْ تَجْتَمِعُونَ الْيَوْمَ كَأُخُوَّةِ يُوسُفَ بَعْدَ أَنْ اتَّفَقُوا عَلَى
الْقَائَةِ بِالْجَبِّ!

يَصْمُتُ لِبَرَهَةٍ، وَمِنْ ثَمَّ يَمِيلُ جِزْعُهُ لِلْأَمَامِ لِيَكْمَلَ بِتَهَكُّمٍ:
- لَكِنْ لِسُوءِ حَظِّكُمْ، لَا صَغِيرٌ هُنَا لَتَتَّخِذُوهُ يُوسُفًا، أَوْ جَبٌّ
يَنْتَظِرُ فِتَاتَ أَيْدِيكُمْ الْآثِمَةِ، إِنْ كَانَ هُنَاكَ جَبٌّ.. فَالْجَبُّ هُوَ أَنَا،
وَعَلَيْكُمْ جَمِيعًا أَنْ تَخْشَوْا غِيَاهِبِي.

أَنْهَى جُمْلَتَهُ وَهُوَ يَرْجِعُ بظَهْرِهِ لِلْخَلْفِ مُسْتَرْخِيًا.
يَتَصَاعَدُ صَوْتُ عَمَّةِ الْمُسْنِّ:

- يَا صَالِحُ يَا وَلَدِي، اجْتَمَاعُنَا الْيَوْمَ مِنْ أَجْلِكَ، فَقَدْ نَا «تَلِيد»
فَلَا نَرِيدُ أَنْ نَفْقِدَكَ أَنْتَ الْآخِرَ.

- أَهَذَا تَهْدِيدٌ؟

- حَاشَى لِلَّهِ يَا بَنِي، بَلْ هُوَ خَوْفٌ عَلَيْكَ وَعَلَى تَمَاسُكِ الْعَائِلَةِ،
فَنَحْنُ لَا نَرِيدُ غَرِيبًا بِمَحْرَابِ عَائِلَتِنَا، هَا هُمْ أَبْنَاءُ عَمُومَتِكَ، اخْتَرُ
مِنْهُمْ مَنْ تَرَاهُ مُنَاسِبًا لِأَخْتِكَ، وَدَعْ أَمْرَ زَوَاجِهَا مِنْ ذَاكَ الْغَرِيبِ.
يَطَالِعُهُمْ صَالِحٌ بِقَرَفٍ:

- مَنْ تقصد! تلك الجرذان المرتعبة التي ما فتئت قرص لحمي
ومساندةً تلبد في نواياه للتخلص مني، اسألهم يا عمي، كم واحد
منهم عارض «تليد» أو ردّ غيبتني، وأنا الذي أفنيت أيامي في تضخيم
ثرواتهم وملء جيوبهم بالمال!

تبادل النظرات بين الحاضرين، فتنكّس الرؤوس خزيًا، بينما
تجمّلت الأفواه بالصمت.

بتهمّم ردّد صالح:

- أرايت! وتريدني أن أستاذمنهم على شرفي، فهؤلاء لا يزِنوا
بعيني مثقال ذرة.

يصمت لبرهة، ثم أكمل أمرًا «بسيل» دون أن يلتفت إليه:

- أَدْخِلْهُمْ.

ما إن قالها حتى همّ الأخير بالمضيّ خارج الحجرة لبرهة، ثم
عاد من بعدها وهو يدفع أمامه مجموعة من الرجال المقيدة أياديهم
وأرجلهم، ممّا أدّى إلى تعثرهم جميعًا وسقوطهم أرضًا!

تتطاير نظرات مرتابة بأرجاء الغرفة، ينظر أبناء عمومته للرجال
المكبّلين، وتوجّس يعتلي وجوههم، بينما يرتفع صوت صالح:

- هلا أعدتم عليّ مرّة أخرى، ما الذي أمركم به تليد؟

ترتفع أصوات الرجال المقيدة مستجدية:

- عفوك سيدي صالح، فنحن لا حيلة لنا ولا قوّة سوى تنفيذ الأوامر.

- انطقوا.

يبتلعُ أحدُ الرجال ريقَه بصعوبةٍ مجاوبًا:

- أمرنا سيّدي تليد بقتلك ما إن تطأ قدمك أرض النجع.

- كفاكَ كذبًا يا ابنَ الكلاب، أتلفقُ التّهم لأسيادك، والله

لأقتلنك جرّاء افتراءك.

قالها أحدُ المتواجدين وهو يركلُ جسدَ الرّجل المكوّم أرضًا بغلّ

واضح، بينما يُشهر سلاحه.

رؤية صالح للسّلاح المشهَر جعلته يضربُ قائمَ كرسيه بغضبٍ صائحًا:

- أخفض سلاحك ولا تنسَ أنّك أمام كبير العائلة.

يقاطعه صوتٌ غاضبٌ لأحدهم:

- ما هذا يا صالح! أوضعتَ ثقتك بالغرباء والخدم، وسلّبتها

مَن يحملون دماءك!

ينظرُ إليه صالح ببرود:

- في محنتي لم تؤازرنى سوى يد الغريب، أمّا مَن يحملون دمي

فقد استمعوا ووعوا، واتّخذوا من الصمت ملاذًا فاكتفوا بالمشاهدة،

ألا يقولون إنّ الصمت علامة الرضا!

يرتفع صوتٌ آخر:

- لكنّ هذا لا يمنحك الحقّ بأن تزوّجَ أختك لشخصٍ لا

ينتمي إلينا، نساؤنا كأرضنا لا يطؤها الدّخلاء، لو كان والدك على

قيد الحياة ما وافقك أبداً.

يلتفتُ إليه صالح بغضب:

- لو كان عمّك على قيد الحياة لأُرداكم قتلى دون أن يرتعش له جفنٌ، فرحمة الله عليه كان يمقت خائني العهد.
يرتفع صوتُ عمّه مرّةً أخرى مستعظفاً:

- يا ولدي، الدّم لا ينقلب إلى ماء، والظّفْر لا ينسلخ من اللّحم، والأخطاء يمكن تدراكها، جدّ التسوية المُرضية لك ونحنُ على استعدادٍ لتنفيذها، فقط لا تخسّرنا جميعاً، ألا يكفيك ما قاسيناه مؤخّراً.

- ما قاسيتموه هو حصادُ نواياكم الخبيثة ونبْتُ شروركم، أمّا عن التسوية، فلا شيء بإمكانه أن يعيدَ الثقة بكم أو يمحي المهانة التي تعرّضت لها، فالطلقة لا تردّ، واليدُ الغادرة لن تدركَ معنى الوفاء يوماً، ومن حاول الإيقاع بي مرّة سيحاول فعلها مجدّداً؛ لذا من اليوم سأقومُ بزراعة الأرض وبيع محصولها كما المعتاد، لكن سيتمّ تقسيم المقابل علينا جميعاً، كلّ حسب نصيبه، لا مزيدَ من إشراككم معي في عقود التوكيلات العالمية، لا مزيدَ من صفقات السلاح التي تملأُ أرصدتكم بالبنوك، ليقمُ كلّ منكم بتنمية ثروته مفرداً، ربّما أدركتم يوماً حجمَ المسؤوليّة التي حملتها على عاتقي، والجهد الذي بذلته من أجل إعلاء اسم هذه العائلة، بينما أنتم تحيكون الخطط من أجل الإطاحة بي.

- يا ولدي...

- هذا آخر ما لديّ يا عمّي، بعد إذنكم أودّ الانفراد بنفسي،
تفضّلوا لصحن الدّار كي يتمّ ضيافتكم بما يليق بصالح المسلماني.

عندما أنهى جملته، انتفض الحضور بسخطٍ، بينما تطايرت من
أفواههم هُتّاتٌ مشحونةٌ بالغضب عبّأت جوّ الغرفة، بينما خاطب
صالح «بسيل» دون اكتراث لجوّ الغرفة المشحون:

- طاردُ رجالٍ تليدٍ حتى النهاية، لا تبقِ منهم أثرًا، وخذْ معك
هذه الحُثالة فهي تثير غضبي الأعمى.

قالها مشيرًا برأسه لمجموعة الرّجال المكبّلة والمكومة أرضًا.
يهمّ بسيل وبقية رجال صالح بدفعهم خارج الغرفة وسط
دموعهم وصرخاتهم:

- عفوك ورضاك سيّدي صالح، سامحنا رجاءً.
- هيّا.

قالها من دون أن ينظر إليهم.

يمضي الرّجال لخارج الغرفة فتخلو أرجاؤها حول صالح
القابع فوق عرشه، ينظر لصورة والده داخل إطارها الخشبي
المذهب، والتي تحتل جزءًا كبيرًا من الحائط، بينما داخله يتقلّب في
نار الحيرة، فمنذ حادث اختطاف زهرة وسؤال يؤرّقه «ماذا كان
ليحدث لو لم يتواجد سالم وخطّته؟» فلا يجد إلّا إجابة واحدة تلمع

كنجمةٍ بقلب سماءٍ حالكةٍ الظلمة، تخبره بأنّه لكان في عداد الأموات! فتلك الحادثة لم تقضِ على تليد و جلال ورؤعة فقط، بل قضت على ثقته بالآخرين، صحيح أنّ نوايا تليد للإطاحة به من منصب كبير العائلة لم تكن مستترة، لكن أن تصل لقتله فهذا ما لم يتوقعه أبداً، لذا عليه من الآن فصاعداً أن يحيا لنفسه فقط، وأن يحيط نفسه بأسوار عالية شائكة تمنع الخونة من الوصول إليه، لكن ما ينغص عليه قراره هذا ويقصّ فكره، أن ذلك يخالف جميع ما علّمه والده إياه، فقد علّمه - رحمه الله عليه - أنّ العشيرة هي ركنه الآمن للبقاء قوياً، حتّى وإن كانت تعاني مرضاً ببعض فروعها، حينها يتوجّب علينا بتر تلك الفروع لا بتر الشجرة بأكملها.

- لقد قسوت على أبناء عمومك كثيراً.

كان هذا صوت الشيخ يونس الواقف على أعتاب حجرة المجلس.

- أأذن لي بالدّخول؟ (قالها مكماً).

يتنهّد صالح:

- تفضّل يا شيخنا.

يتخذ مقعداً، بينما يتكئ على عصاه متنهّداً:

- لا أريد التّدخل في شئونكم الخاصّة، لكنني لا أوافقك.

- بعض القسوة مفيدة يا شيخنا.

- ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك.

- وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص. (سورة المائدة)
- فمن تصدّق به فهو كفّارة له.

يتنّهّد صالح بعمق:

- كنتُ سأعفو عنهم لو لا تكالبهم اليوم لمحاسبتني كتكالبِ الأكلة لقصاعها.

- أعذرهم يا ولدي، فهذا الكرسيّ له شهوته، وكلّ منهم يراه حقّه بعين خياله، لكنّ عليك ألاّ تؤجّج أحقادهم باستقوائك عليهم وتجبرّك، فمهما كان ذكاؤك ونفوذك، إلّا إنك لا تستطيع المضي وحدك، حتى وإن دجّجت نفسك بآلاف الرجال.

- أتريدني أن أصبح مطيّهم!؟

- بل أريدك أن ترخي همّ الجبال قليلاً، فلا تجعل منها مشانق تفصلُ عنق التّراحم بينكم.

تمسّك أناملُ صالح بخاتم والده، فتلقّه حول أصبعه بينما يلوذ بالصمت.

يهمّ الشيخ يونس بالنّهوض في نيّة واضحة للمُغادرة مكملاً:
- تلك العائلةُ يا ولدي كالجُدُر، شاحخة، صلدة، وظلّها يحوي تلاًّ من الأمان والسند، لا بأس بأن يصيبها بعضُ التصدّعات، لا بأس بأن يعمل الزّمن بمبضعه في جسدها تاركا به تشوّهات،

لكن من الخطأ أن تزيد أنت من تلك الشقوق وتعمل على اتساعها،
وذلك لأنك كبير العائلة، وبقاؤها متماسكة هو دورك بالأساس.

ينهي حديثه ليزفر نفساً عميقاً، ثم يكمل بينما هو في طريقه
لباب الغرفة:

- سأتركك الآن لتختلي بنفسك وتقرر ما عليك فعله، وكلّ ثقة
برجاحة عقلك واتزانك.

* * *

- لا أصدّق أننا مررنا بكلّ هذا، واليوم هو يوم زفافك يا سالم.
- أنا أيضاً يا مينا، لا أصدّق أننا نجونا، وأنّ أيام الشقاء قد
ولّت بلا رجعة.

- بفضل خطّتك المجنونة كدّاب جميع خطّطك.
- ولطالما أتت بشمارها، انظر إلى ما وصلنا إليه بعد رحلة طويلة
محفوفة بالمخاطر، ليكتب لنا في نهايتها الاستقرار والبعد عن المتاعب،
وكانّ الحظّ ابتسم لنا أخيراً!

- من كان ليصدّق.. حينما أخبرتني بخطّتك قلتُ لنفسي إنّك
جنّنت، نقطع الكهرباء! أهذه خطة؟
يضحك سالم منتشياً:

- كان لتشتيت انتباه جلال ومن معه، نقطع الكهرباء بعد أن
يحفظ رجالنا أماكنهم جيّداً فنردّهم قتلى قبل أن يفيقوا من صدمة

العُتْمَة، عنصرُ المفاجأة يا صديقي.

- هنيئًا لك، أنقذت نفسك من جلال، وأنقذت زهرة أيضًا،
بينما ساعدت صالح في حبك مسرحية قتل جلال لكل من تليد
وروعة انتقامًا للشرف، فأصبحت بذلك الذراع اليمنى لصالح،
واليوم سيزوجك أخته مكافأة لك.

- أمتأكد أنها مكافأة؟

تساقط ابتسامة مينا أرضًا فرددت بأسى:

- لا شيء يبقى على حاله، ستتحسن حالتها مع الأيام.
- ليس عجْزُها ما يؤرِّق روعي، بل نظرةُ الاشمئزاز التي
تكحل وجهها كلما رأيتني؛ هي التي تقتلني.
- ألهذا الحدّ تعلّقت بها؟!!

- حينما رأيتهَا مكبّلة فوق ذاك الكرسي، ضعيفة وهشة، عيناها
تحمل خوفًا وجزعًا، كطفلة تساق إلى الموت، لا أعلم لم وخز ذلك
قلبي، وأثار حميتي وخوفي، وجهها الوضاء أشرق بسماء روعي،
فغمر بنوره مُروجي القاتمة، لم أعترف بالتعلق يومًا، لكن قلبي تعلّق
بها كطفلٍ مشرّد وجدّ بها المأوى! وحينما أنطفأت الأضواء واختفى
وجهها عن عيني، أصابني الهلع من فكرة فقدِها، لم أشعر بنفسي
إلا وأنا أجري تجاهها محاولاً حمايتها من الرصاص، لولا أن سبقتني
رصاصَةٌ واستقرّت بظهرها فارتمت بأحضانِي، وليت الرصاصَة

أُردتني ولم تصبها.

- لا تبتسّ رجاءً، فزهرة ليست في حالةٍ طبيعية لتحكم على مشاعرها، فقد مرّت بمحنةٍ رهيبة ستأخذُ وقتًا كي تتعافى منها، كما أنّك فعلتَ ما بوسعك فلا تقسُ على نفسك، يكفي أنّك بجانبها الآن ودع الباقي للزّمن، فهو كفيلٌ بإصلاح الأمور.
- أتمنّى ذلك حقًا.

يربّتُ مينا على كتفه مشجعًا:

- كفى حديثًا، وهيا لتكملِ ملابسك كي لا تتأخّر على عرسك.
قالها مينا في محاولةٍ لتغيير جوّ الحزن الذي خيم على سالم.

- لم ترفضين ارتداءَ فستان زفافك يا زهرة؟

تلثفٌ بكروسيّها المتحرّك لتواجه والدتها:

- وهل سيشكّل ذلك فارقًا؟ هل سيمحو مدنّ الموت بداخلي،

أم سيعيدُ الحياةَ لساقبيّ مرّةً أخرى؟

تحتشدُ الدّموع بعين فاطمة ألماً جرّاء كلمات ابنتها:

- الفرح هو من يُحينا يا زهرة، الفرح قادرٌ على هزيمة الموت

والعجزِ بداخلنا، وكلّ فتاة تحلم بارتداء هذا الفستان، فلا تبخلي على

نفسك بتحقيق حلمٍ من أحلامها.

- لم يعد لديّ أحلام، بتّ أحيا العدم، فقد سلّبتموني الحياةَ

بأكملها، انظري إليّ، أرملة، عاجزة، تنعتني نسوة العائلة بالشؤم،
حتى دراستي لم أكملها، عاقبتموني كأنني مُذنبَة لا ضحية، وفي
النهاية تزوّجوني لمن!! لمن يا أمّي؟
تحتضنها بأسى:

- أرجوكِ ابتي لا تفعلي هذا بنفسك، لعلّ الخير يكمنُ في الشرّ.
- وأيّ خيرٍ بقي لي يا أمّي، أيّ خير! ليتني متّ واحتضني
القبر، ربّما ارتحت كما ارتاح تليد ورؤعة من هذه الحياة الظالمة.
- استغفري الله يا زهرة، استغفري الله.
- أرجوكِ أمّي، اتركيني بحالي ولا تشغلي بالك، فبهيمتكم دائماً
مُستسلمةٌ لنِصالكم.

- هل أقنعتها؟
تغلق فاطمة بابَ الحجرة خلفها جيّداً، بينما تمسح دموعها
لتجاوب بأسى:
- تعلمين أنّها لا تستمع إلّا إليك، فادخلي إليها وحاولي تهدئتها.
- حسناً.
قالتُها رئيسة زافرةً نفساً عميقاً كمن يقبلُ على عملية انتحارية،
ثمّ بعدها دلفتُ لداخل الغرفة لتجدَ زهرة تنظر من نافذة غرفتها،
ودمعٌ يتلأأ على صفحة وجهها.

تبادرُها رئيسة قائلة:

- تذكّرني بوالدتك يومَ زفافها؛ حزنها وتمرّدها، قنوطها
ورفضها، وكأنّ السنينَ لم تمرّ، وكأنّني أعيد ذات المشهد مرّةً أخرى.
تبتّرُ رئيسة كلماتها لبرهةٍ، بينما تنظرُ لدموع زهرة المنسكبة،
فتنكّس رأسها أرضاً مكملةً وكأنّها تحدّث نفسها:

- كانت تشعرُ بخوفٍ لا حدّ له، وكأنّها ذبيحةٌ يوم النحر، كانت
تنعي حظّها، وأنّ الحياة لم تكن عادلةً معها، والآن انظري إلى مكانتها
بين نساء النجع، من تناطّحها قوّة وسلطة؛ بل من لديها ابنةٌ رائعة
مثلك، وشابٌّ يُناطح أعنّى الرّجال قوّة كصالح؛ لذا أتمنّى ألا تصدري
أحكامك المُسبقة على الأمور، وتلبّسينها ثوب البشاعة يا زهرة، كوني
واثقةً أنّ لا أحد يستحقّ نهاية قاسية، لا أحد خاصّة أنت.

من دون أن تلتفتَ إليها ردّدت زهرة بألم:

- لعلّه ميراثٌ من الشّقاء وجبَ عليّ حمله للأبد.

بترتُ كلماتها لتبتلع غصّةً بحلقها، ومن ثمّ أكملت:

- أخبريني خالتي، كيفَ سأنسى ما حدثَ كما نسيتم ونسيّ

أهل النّجع؟

- يبدأ النّسيان بتقبّل مشيئة الله، والنظر للخير الذي تحويه

الأمور يا ابنتي.

تبتسمُ بهكّم:

- وهل أفعالكم هي مشيئةُ الله؟
تقتربُ منها رئيسة لتقف أمامها:
- حاشى الله، لا أحد بإمكانه ادّعاء ذلك، لكن إن كانت الحياة تدفعنا لدربٍ بعينه، فكيف لنا أن نعترض لمجرّد أن أنفسنا تكره المضيّ به.
- الحياة لم تدفعني لشيء، بل دفعتني ثمنَ أخطائكم.
- ولم لا تقولين أنها أنقذتك؟
- نعم أنقذتني من تليد لترميني بمصير أسوأ منه، أيّ مصير ذاك الذي ينتظر فتاة عاجزة تتزوَّج من رجل لا تعلم له أصلاً!!
- أخوك لن يزوّجك لعابر مجهول الهوية، ذاك الرجل ساعد أخاك في إنقاذك وإنقاذ العائلة، كما أن فضيحة تليد لم تمسك بأذى.
- تنظرُ زهرة لساقِها العاجزتين فتردّد بسخرية:
- بالفعل، لم يطلني أذى!
- الطيّب طمأننا بأنك ستعودين للمشي مجددًا عمّا قريب، فالطلقة التي أصابت عمودك الفقري لم تُحدث ضررًا بالنخاع الشوكي، كلّها مسألة وقتٍ حبيبتى، وستعودين كما كنت بإذن الله.
- وحتى يحدث ذلك عليّ تقبّل ما يحدث بصدرٍ رحب! أن أفتح ذراعي للحياة وكأنّ شيئاً لم يكن، كأنني لم أختطف وأهان على يد جلال، وكأنّ «تليد» لم يخنني بمباركة أخي، أن أتعاش مع كلّ القذرة التي سكبها أمامي دون أن تثور مشاعري.

- لا بأس في ثورتها، لا بأس في الإغراب عنها، لكن يجب ألا
تطغى على تعقلنا، يا ابنتي، الحزن الذي بات بصدورنا مؤخرًا أذهب
الآمان من أيامنا؛ لذا كان علينا أن نغتاله، أن نبحت عن بداية جديدة
وسعيدة، ولا شيء يقتل الحزن سوى الفرح، حتى أنت يا زهرة
تحتاجين لقتل الأسى القابع بداخلك، ولو بنصلٍ ثلم لفرحة مزيّفة.
تنهمرُ دموع زهرة بلا توقّف، بينما يرتعش جسدها:

- كيف لي أن أنسى خالتي، كيف؟ كلّ شيء بداخلي غارق في
الضياع والظلمة، كلّما غفّت عيني أيقظتها شمسٌ طلقاتهم، بينما
أنا مكبّلة وعاجزة بلا يدٍ تمتد إليّ وسط الظلام لتتشلني، كأنّ الموت
يتسم لي بشهوة كلّما دوت طلقاتهم.
تحتضنها رئيسة بشدة:

- لكن سالم أنقذك، هروا إليك غير آبهٍ بسيل الطلقات المنهمر،
وحمايك بجسده، وهذه نقطة تُحسب لصالحه.
- تخلّيت عن الحسابات منذ زمن، فجميع الرجال صاروا
«تليد» بعيني.

- لا أقول ذلك لتقبّليه، فقط أقول إنّ به شيئاً يستحقّ المحاولة،
من أجلك أنت.. لا من أجله هو.
تنظرُ إليها بأمل:

- هل ستكونين بجانبني؟

تحتضنها رئيسة ماسحةً بكفّها على ظهرها:
- سأظلّ دائماً بجانبك، بالرّغم من أنك لا تحتاجين أحداً؛ فأنت أقوى ممّا تظنين.

أنهت مجملتها، ثم حرّرتها من أحضانها لتنظر بعمق عينيها:
- لا أحبّ رؤية الدّمع بعينيك يا زهرة، فتلك العينان خلقت للفرح فقط.

بترت كلماتها مبتسمةً بوجهها لتكمل:
- هيّا لنعدّ عروستنا الرّائعة التي ستقهّر جميع النسوة بجملها
الفاتن، هيّا لنريم زهرة المسلماني الياصرة التي لن تذوّبها ظروفٌ أو
تسقطها أحقادهم.

على مدخل النّجع، وقفت سيارةٌ أجرة تسأل أحد المارة عن بيت المسلماني، ما إن سمع الرجل الاسم حتى تهلّل وجهه عن المعرفة، وأشار على السائق أن يسلك الممرّ المنتصب على جانبيه الأعمدة الخشبية التي تحوي بينها حبال المصابيح الكهربائية الملوّنة! تتقدّم السيارة وسطاً تأرجحها على الطريق الضيّق والممتدّ بطول مجرى مائي يفصل بينه وبين الأراضي الزراعية، كان النّجع في حالة من النشاط، وكأنّه يحيا عيداً من الأعياد، مظاهر الاحتفال واضحة في أرجاء النّجع؛ الزينات بكلّ مكان، الأطفال في حالة مرحٍ

وركّض مستمرّ، النساء يحملن الكثير من القفاف فوق رؤوسهنّ،
بينما الموسيقى الشّعبيّة الدائرة تثير حماسة الشباب فتُغريهم بالرقص
على أنغامها، بينما تضوي السماء من حينٍ لآخر بسيلٍ من الأعيرة
النارية التي تطلق ابتهاجًا بالحفل.

حينما توقّفت السيارة الأجرة أمام قصر المسلماني، ترجّلت منها
فتاة مراهقة، أخذت تتلفّت حولها علّها تجد ما تبحث عنه، أصواتُ
الرّغاريد تصمّ آذانها، مظاهرُ الاحتفال المبالغ فيه والزيناتُ المبهرجة
تثير حقدَها، أمامها تُساق الذّبائح الواحدة تلو الأخرى وسط
صيحَاتِ الأطفال الفرحة، تقترب منها أحدُ النساء تطالع هيئتها
بتعجّب:

- هل تبحثين عن أحد؟

بجمودٍ ردّدت:

- العريس.

تنظرُ إليها المرأة بعدمِ فهم:

- ماذا؟!

- أبحثُ عن العريس؛ فأنا ابنة خالته.

تنفرجُ أسارير المرأة مرحّبة:

- تفضّلي، أنرتِ النّجع.

قالتها المرأة وهي تقودها لداخل الدار لتسألها مكملة:

- لكن أين باقي الأهل؟

تجاوبها ببرود:

- على وشك الوصول.

- وما هو اسمك؟

- رحمة، هل هناك أمر آخر؟

- لا، سأذهب لأخبر سيدي فاطمة.

تركها المرأة بصحن الدار بين بقية المدعوّات من النساء، اللاتي استقبلنها بنظراتٍ شملتها كلّها كمقتني أثر يبحث عن ضالته، وحينما فشلت نظراتهم في بلوغ مسعاها همّت إحداهنّ بمناداة المرأة وسؤالها مشيرة إليها، لكن الفتاة لم تكثرث هنّ؛ فقد كانت تتحرّك في أنحاء الدار بحثاً عن غايتها.

- من تلك الفتاة يا زينب؟

تميل زينب على أذنها لتجاوبها وسط أصوات الزّغاريد والموسيقى:

- ابنة خالة العريس.

تمصّص المرأة شفيتها:

- أخيراً وجدنا أحد الأقارب لمجهول الهوية هذا! أين البقية؟

- قالت إنهم بالطريق، سأذهب لأعلم سيدي فاطمة بوجودها.

أنهت زينب جملتها مهرولة، بينما مالت المرأة على أذن السيدة
المجاورة لها قائلةً بامتعاض:

- لا أفهم كيف وافق رجال العائلة على هذه المهزلة! أليس
منهم رجلٌ رشيد! كيف خنعوا لصالح كالإبل، وتركوه يزوج ابنتنا
لشخصٍ غريب!

تجاوبها جارتها:

- بل فعلوا ونددوا، وعقدوا مجلساً فور اتخاذ صالح لهذا القرار،
لكنك تعلمين مدى تجبر صالح وتعتته، خاصة أنه حملهم جميعاً
تبعات خيانة تليد له، فقد كان رحمه الله يعاشر روعة ابنة هريدي.
تخبط المرأة على صدرها:

- أحقاً فعل؟!!

- نعم، ويبدو أن الجميع كان على علمٍ بذلك، حتى جلال
الغائب عن النجع منذ سنوات عليمٌ بجُرمهما؛ لذا قام بالتخطيط
لانتقام منهما، وذلك عن طريق المسكينة زهرة، لينتهي الأمر بأن
ساق الموت ثلاثتهم بينما ترك زهرة لتعاني العجز.

- كل هذا وصالح لا يدري! اللهم سترك، استرها على بناتنا يا الله.
تنهّد المرأة في أسى:

- هم الآن عند الله، ولا نملك لهم سوى الدعاء، لكنني لا
أعتقد أن معاشره تليد لروعة هو ما أثار كل هذه الضجة، بل خططُ

تليد المستتره هي التي تركت أثراً بالغاً بنفس صالح، خاصّة بعد اعتراف رجال تليد بأنه كان يتتوي قتله، حينها أقسم صالح ألا يثق برجال العائلة مرّة أخرى.

- لكنّ هذا لا يعني أن يزوّج أخته لشخصٍ لا ينتمي للعائلة، فبناتنا كأرضنا محرّمة على الغريب.

- دُعِك من تلك الأقاويل البائدة، الزّمن يتغيّر، ولم يعد الزّواج من داخل العائلة شرطاً أساسيّاً، ولا يزعجك أمر الأرض؛ فصالح لن يفرط بسهم واحد من أرض المسلماني. تنهّد المرأة بعمق:

- انظري لتلك الاحتفالات الصّاخبة، لا بدّ وأنّ الحرائق مندلعة بقلب أمّ تليد الآن.

تهزّ جارتها رأسها مؤمّنة على كلامها، ثمّ تُضيف:

- مسكينة، فالصدّات لا تكفّ عن إمطارها؛ بالأوّل فقدت ولدها، ثمّ جاءت فضيحتّه، ثمّ استحواذ صالح على ميراث أخته من تركّة تليد، فقد كانت زوجته حتى لحظة وفاته⁽¹⁾، والآن مراسم الزّواج الباذخة التي تمتدّ لجميع أنحاء النّجع دون مراعاة لحزنها! تبتّر كلماتها متنهّدة في ضيق، ثمّ تكمل بأسى:

(1) : إذا عقد الرّجل على امرأة ثمّ مات فإنّها ترثه، وتعتدّ عليه أربعة أشهرٍ وعشراً، ونحْدُ عليه.

- في حقيقة الأمر، موْتُ تليد أحدث شروخاً كبيرة في جُدر عائلة المسلماني العاتية، شروخاً لن يربأها فرحٌ أو يرممها الزمن.
تمصّصُ المرأة العجوزُ شفّتها مرّةً أخرى، بينما تهزّ رأسها وعظاً:

- يبدو أنّ القادم لا يبشّر بالخير أبداً، اللهم حفظك وعنايتك.
- آمين.

تعدّت السّاعة السّابعة مساء حينما انتهت رئيسة من تجهيز زهرة، والتي كانت تبدو في غاية الجمال والرّوعة، ممّا دفع رئيسة لإطلاق الزّغاريد الواحدة تلو الأخرى دون توقّف، ممّا دفع زهرة للابتسام خجلاً:

- إن استمرّيت على هذا المنوال؛ فحتمًا ستصابين بأزمة قلبية.
- قلبي لا يسعُ فرحتي يا زهرة، أيّ حورية أنت يا ابنتي! كذب الشعراء عندما تغزّلوا بغيرك، جميعُ القصائد لا توفّيك حقّك، انظري لابتك يا فاطمة.

تنهمرُ دموع فاطمة على صفحة وجهها، لسانها مُنعقدٌ ممّا ترى، فجّمال زهرة فاقَ كلّ توقّع بالرّغم من أنّ رئيسة لم تُصفِ إليها سوى بعض الرّتوش البسيطة من المساحيق، تهزّ رأسها غير مصدّقة:
- لها كلّ الحقّ يا ابنتي؛ فوجهك كالبدر في تمامه، ما شاء الله.

تصيحُ رئيسةُ بسعادة:

- والله لأشعلُ البخورَ وأرقيكِ قبل أن تُخرجي للمدعوين،
أخاف أن تصابي بالعين حبيتي.

- لن أصاب بأكثر مما حدث. (رددت زهرة بتهكم)

- تقللين من شأنك كثيرًا حوريّتي، لكنّ والذي خلّقك لن
أتراجعَ عن رقيتك.

قالتُها رئيسةُ مُهرولة، تغادر غرفة زهرة متّجهة ناحية المطبخ كي
تشعل المبخرة، وبينما هي في طريقها اصطدمتُ عيناها بآخر شخص
كانت تتوقّع أن تراه في هذا المكان، تتجمّد الحياة من حولها، تحبّط
على صدرها، بينما تشهقُ بصوتٍ جزع:
- نرجس!

- هل انتهيت؟

كان هذا صالح سائلاً وهو يدلفُ لغرفة سالم.
يلتفتُ إليه سالم وابتسامةُ فرح تكلّل وجهه:

- نعم، متى سيأتي المأذون؟

- بعد قليل.

قالها صالح هامًا بالجلوس على أحد مقاعد الغرفة، بينما التفت
لينا مخاطبًا:

- أريد «سالم» لبعض الوقت.

- أمرك.

قالها مينا وهو ينظر لسالم، بينما يهّم بالمغادرة.

ينظر سالم إليه بتوجّس، يسأله وقبضة خوفٍ تعصر قلبه:

- هل هناك خطبٌ ما؟

- اجلس. (قالها صالح مشيرًا للكرسي المقابل له).

ينفّذ سالم الأمر، بينما داخله يرتجف.

- أتعلم لم وافقتُ على زواجك من زهرة؟

- لن تجدَ مَنْ يعتني بها أو يقدّرُها كما أفعل.

يعلو وجه صالح ابتسامةٌ ساخرة:

- أنت مجرّد مجرمٍ صادفه الخطّ فلم يُثبِتْ جرمه بعد!

يبتلعُ سالم الإهانة، بينما يردّد بصوتٍ مختنق:

- لم أدّعي أنّي خلاف ذلك.

- لا تقاطعني. قالها صالح، ثم أكمل:

- إن شئت زوجت زهرة لمن هو أفضل منك مالا ونسبًا،

لكن الظروف التي مررنا بها أثبتت أنّك أكثر شجاعة وأصدق

وعداً عن الكثير ممّن قابلتهم من الرجال، والمرحلة التي تمرّ بها

العائلة تستوجب إقصاء أنصاف الرجال من دائرتي، فالعائلة

بعد ما حدث مؤخرًا في حالة غليانٍ مُستعر، خاصّة بعد موت

تليد دون وجود كبش فداءٍ للأخذ بالثأر منه، فقد مات كلُّ من جلال وروعة كما تعلم، ممّا جعل مشاعر الانتقام بداخلهم موجّهة تجاهي، كما أنّ زهرة بوضعها الحالي ليست قادرةً على التعايش مع دناءة أخرى، لذا زواجك من زهرة سيستمرّ طالما كنت لي ولها سندًا، لكنّ هذا لا يعني أنّني سأرفض طلبها إن أتت لي يومًا طالبةً الانفصال عنك، ولن أدفعها لتعطيك فرصةً أخرى، لذا عليك اغتنامَ التي بيدك جيدًا، بأنّ تبدأ صفحةً أخرى، وأظنّ أنّ وضعك الجديد سيعطيك امتيازاتٍ أفضل، صحيح أنّي أقدر الرجل فيك يا سالم، لكن صدّقني أنا لا أعطي الثقة لمن حولي مرّتين، وأظنّك رأيت بعينك كيف قتلتُ «تليد» ابن عمّي دون أن يطرفَ لي جفن، أتمنى ألا تنسى كلماتي هذه أبدًا.

يبتلعُ سالم التهديد المبطن، بينما يجاوبه مصافحًا:
 - لن أخذلك أبدًا، أعدك.
 يصافحه صالح مسددًا نظراته لعمق عينه، قائلاً بقوة:
 - أتمنى ذلك، جهّز نفسك والحقّ بي في المجلس.
 قالها صالح هامًا بالمغادرة.

على جانب السّاحة الممتدّة أمام قصر المسلماني، تجمّع بعض

رجال العائلة بركنٍ منزوٍ في انتظار حضور المأذون وبدء مراسم عقد القران، وجوههم جامدةٌ لا تعكس فرحاً أو حزنًا، يتابعون الاحتفالات المهيبة والتي لم يدّخر صالح جهداً لجعلها باهرة، تعقر الذبائح أمامهم وسط أنغام الطبل والمزمار، ورقص الفتيان وتحطيب الشباب، يميل أحدهم على الآخر مخاطبًا:

- معنا أم علينا؟

- لا يمكن أن تكون جادًا! قليلٌ من التعقل رجاء، بالنهاية يبقى صالح ابن عمنا وكبيرنا، حتى وإن اختلفنا.

- دُعكَ من نزعة الضمير هذه، ولتقرّر أيّ صفٍ ستأخذ.

- قبل أن أقرّر، ما الذي تنتون فعله؟

- لا شيء، سنعطي صالح درسًا.

- مَنْ معك من رجال العائلة؟

- جميعهم، لم يبقَ سواك ليقرّر.

- هل وافق عمّي؟

- لم يجد بديلاً أمام تحالفنا، ما هو رأيك؟

- قلبي لا يرتاح لهذا الأمر، لكن ما باليد حيلة، فقط عِدني أن «صالح» لن يتأذى.

- تلك أقدارٌ لا نملك لها عهدًا، مَنْ يدري! ربّما كان الأذى قسمتنا، لكنني أعدك بأننا سنعيد الأمور لنصابها الصحيح.

يهزّ رأسه باستسلام:

- لله الأمر من قبل ومن بعد، معكم.

- إذا، جهّز سلاحك والحق بنا، فكما تعلم لدينا عقد قران،
وعلينا ألا نفوّته.

الخاتمة

- نرجس، أين أنت؟ نهينا الأرض بحثاً عنك! وما الذي جاء بك إلى هنا في هذا اليوم؟!
- لم آتِ من أجلك يا ابنة الخالة، جئت لأتني مدعوة.
- مدعوة!
- ردّدت رئيسة بعدم فهم، ثم أكملت: ممّن؟
- أين الأمانة يا نرجس؟ (بلهفةٍ ردّدت فاطمة)
- على رسلكما، ما بكما تُمطراني بالأسئلة كأنّني بقلب مركز الشرطة؟
- تجرّها فاطمة من ذراعها لحجرتها، بينما تلحقها رئيسة غالقة الباب خلفها.
- انطقي يا نرجس وإلا لن تري مني خيراً.
- ردّدت فاطمة بغضب.
- وما شأنك أنت، إنّه ابن رئيسة لا ابنك أنت!
- تنظر رئيسة لفاطمة برجاءٍ كأنّها تناشدها «اهدئي ولا تهدمي

المعبدَ فوق رؤوسنا» بينما تخاطب نرجس:

- حسنًا يا نرجس، أين هو ابني؟

بصوتٍ متنمّر تجاوبها:

- ابنك بأحضانك يا رئيسة، وبالمناسبة سيتزوّج ابنتها دون أن

تدري إحداكما.

تخبطُ رئيسة على صدرها بصدمة:

- مَنْ تقصدين؟ سالم!

تشابك نرجس ذراعيها، بينما تجاوبها بتهكّم:

- نعم سالم، ومن غيره! طبعي ألاّ تتعرّفي عليه، فأنت لم تكلفي

نفسك عناءَ رؤيته منذ أن تركته لدينا قطعة لحم صغيرة، وذهبت

بعدها بكلّ تحجّر قلبٍ وصقيعِ شعورٍ لتتزوّجي بآخر دون مراعاة

لصرخاته المستمرة، تركته كخرقةٍ بالية لا تعني لك الكثير، لم تمنحيه

من اهتمامك سوى حفنةٍ من النقود ترسلينها كلّ بضعة أشهر، غير

أبهة بضرورة استخراج أوراق ثبوتية للولد، ممّا دفع والدتي لتزويجي

بأول شخص طرق بابها شريطة أن يمنحه اسمه، وكأني من حملت

به سفايحًا، وكأني كنت الفاجرة لا أنت! وكلّ ذلك من أجل

أموالك السخية، والتي كانت والدتي على استعدادٍ لبيعي من أجل

ألاّ يتوقّف تدفقها، لكنّ خلفه العار لا تجلب إلّا العارَ معها، لذا

كلّما كبر سالم كبرت مصائبه معه ممّا اضطرّني لتركه بحارة السعادة،

والانتقال بعيداً عنه رافةً بزوجي وأطفالي، فقد ساعدتني أموالك على ذلك، أموالك التي قاسمتها مع مريم جارتى ووالدة مينا صديقه لتعتني به عوضاً عني، ولتكون هي الخيطُ الواصل بيننا، فهو بالنهاية يحمل اسمَ زوجي! حتى رزقنا الله بعملٍ في الخارج منذ سنة، انتقلنا على أثره خارج البلاد، وحينها فقط ارتحُتُ منك ومن سالم ومن مصائبكما التي لا تنتهي.

لكن ذات صباح وجدت مريم تهاتفني، تزف إليّ خبراً بأن سالم سيتزوج من ابنة عائلة صعيدية ذات مال وسلطة؛ لذا جئتُ من فوري لأتأكد بأم عيني، فهو بالنهاية ابني بالأوراق الثبوتية، ويحمل اسم زوجي بهويته، لكنني لم أتوقع أبداً أن تجمعنا الحياة هكذا!

تنظرُ إليهما فاطمة بعينٍ ذائغة، حديثهما الدائر يتحوّل لأصواتٍ مُبهمّة، تحاصرهما الحقائق بينما شريطٌ من الذكريات يمرّ أمام عينيها! تتذكرُ كلَّ ما مرّ بها بدايةً من تنكّر إسماعيل لما في بطنها ورفضه للزواج منها، تيهها وضياعها وهي وحيدة بالقاهرة، طالبة بكلية الآداب مُعدّمة الحيلة لا تدري ما تفعل بمصاها، اتّصال رئيسة صديقة عمرها وخطيبة شقيقها الشيخ يونس آنذاك، إخبارها بحملها بعد أن نفذت الحلولُ منها، أنها ما عادت قادرةً على المضيّ قدماً بتلك الحياة، وأنها لن تعود للنّجع مرّةً أخرى.

زيارة رئيسة لها بصحبة والدتها في بيت الطالبات بالقاهرة، والدتها

التي بدت أكبرَ من عمرها بعشرات السنين، بذاك الحزن الذي حفر وجهها بمهارة، وكتفئها المهدلين من ثقل المصيبة، ضربَ والدتها المبرح لها الذي لولا تواجد رئيسة لكان أفقدها حياتها جرّاء قوته.

اتّصال رئيسة بخالتها سعدية التي تقطن بالقاهرة، ناسبة الحمل لها طالبةً منها المساعدة، فقد كانت رئيسة يتيمةً ممّا جعل خالتها ترقّ لحالها وترضي بالنهاية استقبال الطفل بيتها شريطة مبلغٍ ماليّ يرسل إليها كلّ فترة!

الولادة على يد قابلةٍ وما أعقبها من نزفٍ كاذٍ يودي بحياتها، عودتها للنّجع تحمل أطناناً من الخزي، تهشّم روحها بعد أن تركت قطعةً منها بيت سعدية، لتبدأ رحلة جديدة من المعاناة في إيجاد زوج لها، تقودها والدتها على أمل أن تتخلّص من فضيحتها، بينما تساق هي كالماشية، لا يحقّ لها الاعتراض؛ بل عليها أن تحمد ربّها أنهم تركوها تحيا بعد العار الذي ألحقته بهم.

اصطحاب والدتها لدار العرافة كي تجد حلاً لمصائبها، العرافة وخطّتها، موافقة والدتها، إشاعة تنتشر بين جنبات النّجع كما تنتشر النيران بغاية كاملة، «وريت عامر المسلماني سيأتي من رحم فتاة شامية الملامح تحمل فوق كتفئها رأساً ضخماً»

رئيسة التي تعمل بدار المسلماني، ووسوستها لسيّدة الدار الكبيرة حتى صدقت النبوءة، ممّا جعلها تحثّ عامر على نهب النّجع

بحثاً عن الفتاة المنشودة، فقد كان حلمٌ إنجابه للذكر يتملكه، لتقع عيناه عليها في النهاية وينكفى قلبه أمامها، فيطلبها للزواج!

ذهابها قبل الزواج بيومٍ لقرية بعيدة بصحبة والدتها ورئيسة، قيام امرأةٍ عجوز برأب بكارتها بطريقةٍ بدائية غريبة، والتي نصحتها بالألا تتحرك حتى يوم الزفاف، كما نصحتها أيضاً بأن تضع منوماً لزوجها بالشراب إن استطاعت حتى يمرّ الأمر بسلام.

تمرّ أمامها الذكريات في تسارع، ولادتها لصالح، كشف الستار عن اتفاق العرافة أمام رئيسة، فينكسر فؤادها وتتلوى حزناً جرّاء الحقيقة الموجهة.

يونس المصلوبة رجولته ما بين فضيحةٍ وأخرى، اعتزاله لهم بعد أن أخبرته والدتها بدينها للعرافة، انكسار هيئته، تركه لعمله بكتاب النّجع، زواجه من العرافة، تعبّده بمحراب الصمت، وصومه عن التحدّث إلى البشر.

زواج رئيسة ليأتي «بسيل» بشهورٍ قليلة تسبق حملها بزهرة، الزّمن ينسيها طفلَ إسماعيل، لكنّ رئيسة لم تنسَ يوماً؛ فقد كانت ترسل المال لخالتها بانتظام، الذكريات تتسارع أمام عينيها، تلتفّ حول عنقها، ترزخ بكامل ثقلها فوق صدرها فتندفع متخبّطة كذبيحةٍ في نزعها الأخير، تهول خارج غرفتها مترنّحة، بينما تصرخُ عالياً:

- أوقفوا هذا الزّواج.

فيضيّع صراخها بين أصوات الغناء والاحتفال بصحن الدار،
أحداقها المتسعة ترى الوجوه النّاظرة إليها مسوّخًا شامتةً مرعبة،
ضحكاتهم متشقيّة، أفواههم جحيّمٌ يريد ابتلاعها، أذنها تسمع
المباركات «فاطمة الزّانية»، ترى النّساء المحلّقات حولها كنصالٍ
تريد بها شرًّا، رقصهنّ يتسارع على أنغام فضيحتها، تخرق الزّحام
غير آبه بتخطيها وباستنكار المدعوّين لأفعالها، تحاول الوصول
جاهدةً للمجلس، قبل أن يقول القدر كلمته ويتمّ عقد القران،
تصيح عاليًا كغريقٍ يبحث عن طوق نجاة:

- أوقفوا هذا الزّواج.

الجموعُ مُحْتَشِدَة، رجال ونساء، الأمور مختلطة، تصفيق كطبول
حرب، رقص مُحْتَدَم كمراوغات عدو، عيونٌ متربّصة، وجوه
متفرّسة، ومشاعر محتقنة! جُدُر الدّار تدور من حولها، كدوران
سلومي برقصتها الأخيرة قبل النّحر، تمضي كمن يسير دهرًا،
المسافات تعاندها، والوقت يلاعبها، بلحظةٍ واحدة تكالبت عليها
فصولٌ عدّة، وقبل أن تصلَ لباب المجلس، ارتفع دويّ الرصاص
من مكانٍ ما لتتوقّف الأصوات لبرهة، لتعلو من بعدها صرخاتُ
فرعة، بينما تقافز الجموع كقردة مرتعبة لا أحد يفهم سرّ صراخها،
تنتاب قلبها الرّجفة، تسمع الأصوات مُشتبكة، ما بين عويل

ونجدة، يصدح صوتٌ «فليتصل أحدكم بالإسعاف» بينما يصرخ آخر «لقد أصيب بشدة»..

الجميع يهرول خوفاً، تخلو الدّار المكتظة، ويفرّ الأمان معهم، الرّهبة تعصف بقلبها، الخوف يسري بجسدها ويسقطها أرضاً، تحاول النهوض مجدّداً، يدُ الشيخ يونس تقبضُ على ذراعها، الدّماء تلتطّخ ثيابه ووجهه، يحاول سحبها بعيداً عن حجرة المجلس، بينما يصيح بصوتٍ يشبه البكاء:

- ارْجعي يا فاطمة، فالمكان ليس آمناً.

تحاول إفلات ذراعها من قبضته، تعافزُ للوصول إلى المجلس، إحساسٌ يُخبرها أنّ بداخله أمراً جليلاً، يحاوطها الشيخ يونس بكِلا ذراعيه، يردّد وعيناه تسكب الدّمع أنهاراً:

- لله ما أعطى، ولله ما أخذ.

يتوقّف صراخها للحظة، كلماته قنابل تفتّت روحها، يشحب وجهها، بينما تسأله وعيناها ترجوه أن يكذب إحساسها:

- ماذا تقصد يا يونس؟ أين صالح وسالم؟

يشيح بوجهه بعيداً، بينما يجيبها صوتٌ نحيبه.

تضربُ صدره بقبضتها، تمسك بجلبابه فتَهزّه رجاءً وخوفاً:

- أين هما؟ أخِي، أخبرني رجاءً.

ترتخي ذراعاه، فتحررها، بينما يتهاوى جسده أرضاً بجانبها،

يضع كفيه أمام وجهه، ويتحوّل البكاء لعويل.

بشاقٍ تنهض، تمضي بتعثر، قدماها لا تطاوعها، كأنها صارت
حجرًا، تتجه إلى المجلس والأفكار الخبيثة تسبقها، تغمض عينيها
بشدّة، تصارع هوة سوداء تريد أن تبتلعها، ما إن دلفت للداخل
حتى اصطدمت عيناها بمشهد جعلها تترنّح؛ فقد كانت الدماء
تملأ أركان الحجرة، أجساد متساقطة أرضًا، مصابة بالرّعدة، يتطاير
منها شهقات النّزع، بينما وقف الموت شاهراً منجله استعداداً لحصاد
الليلة، تغمض عينيها بشدّة، تتمنى أن تصاب بالعمى أو تفقد
النّبض، تميد بها الأرض، وقبل أن تبتلعها العتمة انطلقت من جوفها
صرخة اهتزّت لها الجدر من شدّتها، لتتخلّى عن خرّسها ولأوّل مرّة،
ردّدت معها الصّرخة:

- ولدي!

تمّت

فهرس المحتويات

5	 الفصلُ الأوَّل
19	 الفصلُ الثَّاني
38	 الفصلُ الثَّالث
62	 الفصلُ الرَّابِع
81	 الفصلُ الخَامِس
99	 الفصلُ السَّادِس
116	 الفصلُ السَّابِع
132	 الفصلُ الثَّامِن

156	 الفصلُ التّاسع
174	 الفصلُ العاشر
200	 الفصلُ الحادي عَشَر
233	 الفصلُ الثّاني عَشَر
258	 الفصلُ الثّالثُ عَشَر
291	 الخاتمة